سيرة

بول أوستر

تقرير من الداخل

ترجمة
أحمد زياد ناصر



إهداء لـ..

عائلة ***sunflower*** الصغيرة

تقرير من الداخل

تقرير من الداخل

بول أوستر

ترجمة: أحمد زياد ناصر

Report From The Interior

By Paul Auster

Translated by Ahmad Ziad Naser

الطبعة الأولى: أغسطس ـ آب، 2023 (1000 نسخة)

تمت ترجمة ونشر هذا الكتاب *تقرير من الداخل*، بالاتفاق مع الوكالة الأدبية «كارول مانّ»، نيويورك/ الولايات المتحدة الأميركية.

This translation of *Report From The Interior*, was published under agreement with «Carol Mann Literary Agency». New York/USA.



بغداد ـ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647714440520 / +9647811005860

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 35 - 0

بول أوستر

تقرير من الداخل

ترجمة
أحمد زياد ناصر



www.daralrafidain.com

الفهرس

في البدء كان كلُّ شيء حيًّا، فكانت أصغر الأشياء ممنوحةً قلوبًا تنبض، وحتى للغَيْم أسماء تُعرَف بها، وكنتَ ترى المِقَصّات تقدر على المشي، وأن الهواتف وأباريق الشاي كان واحدها ابنَ عمٍّ للآخر، والعيون ونظّاراتها إخوة، وكان وجه الساعة وجهًا بشريًّا، وكلّ حبة بازلاء في صحنك امتَلَكت شخصيّةً تختلف عن الأخرى، ثمّ بَدَا لك الشَّبَكُ في مقدَّمة سيارة والدَيْك فمًا مكشِّرًا عن أسنان كثيرة. وقد كانت الأقلام سُفُنًا هوائية، والنقود المعدِنية صحونًا للقهوة أو الشاي، وأغصان الأشجار أذْرُعًا، ولم تخْلُ الحجارة من القدرة على التفكير، أما الإله فكان في كل مكان.

ولم يجدِ المرءُ مشكلةً في تصديق أن سَاكِنَ القمر الرجُلَ[1] كان إنسانًا حقيقيًّا، فكنتَ تراه دانِيًا ببصره إليك من سماء الليل، ووجهه وجهُ بشريٍّ دون شكّ، وما أَهَمَّكَ كثيرًا أنه كان بلا جسد، فقد ظلّ بشريًّا برأيك، وما جالَ بين أفكارك قطّ احتمال وجود أي تناقض في كل هذا. وقد بدا في الوقت نفسه قفز البقرة فوق القمر قابلًا للتصديق، كهَرَبِ الصحن مع الملعقة.[2]

هكذا كانت أولى أفكارك: بقايا من الماضي الذي عِشْتَهُ في داخلك كصَبِيّ.[3] ولستَ تستطيع إلا تذكُّر جزءٍ منه، أو قطع وجُذاذاتٍ منفصلة، أو ومضاتٍ عابرة تصطخب فجأةً كيفما اتَّفَق لها فتحملك على تمييز ما غاب عنك، إذ تثيرها رائحة

(1) كان اعتقادًا شاع في العصور الوسطى المسيحية ثم تناقله الناس من جيل إلى جيل كتناقلهم القصص الشعبية. فيُقال مثلًا إنه قابيل الرحّال بعد أن حُكِم عليه بالدوران حول الأرض إلى الأبد، ويُقال أيضًا إنه الرجل الذي أمسكه بنو إسرائيل يحتطب حطبًا في يوم السبت فقدموه إلى موسى وهارون وأمرهم الرب برجمه حتى مات (سفر العدد، 15، 32 ـ 36)، لكن الاعتقاد يقول بدلًا من ذلك إنه عُوقِب بسُكنى القمر حتى يوم القيامة، إلخ. [المترجم]

(2) انظر أسجوعة أو أغنية الأطفال الإنكليزية التي تبدأ بالشطر: Hey, diddle diddle. [المترجم]

(3) هذا هو مقصد أوستر من العنوان: أنه يبغي التكلم على نفسه «داخليًّا» كغاية أولى، فترجمنا العنوان حرفيًّا كما هو. [المترجم]

شيء ما، أو ملمسه، أو النحو الذي ترى فيه سقوط الضوء على شيء من الأشياء التي تراها في حاضِرِ رُشْدِكَ. تظنّ في الأقل أن بإمكانك التذكّر، بل تعتقد أنك تتذكر، ولكن يُحتَمل أنك لا تتذكر شيئًا ألبتة، ولعلك لا تتذكر إلا ذِكْرَى تذَكُّرٍ لاحِقٍ لِمَا تظنُّ أنه دارَ في خَلَدِكَ في ذاك الزمان البعيد الذي فاتَ بالنسبة إليك الآن.

الثالث من كانون الثاني عام 2012، مرّت سنة بالضبط بعد اليوم الذي بدأتَ فيه بتأليف كتابك الأخير، أي دفتر يومياتك الشتوي[1] الذي اكتمل الآن. كان من الممكن أن تكتب عن جسدك، فتبيِّن ما تشعَّب من الضربات والمباهج التي خَبرَتْها ذاتك الجسدية، أما أن تأخذ باستكشاف عقلك وأنت تتذكر هذه الذات منذ الصِّبَا فلا مناص من أن يكون مهمّةً أشَقّ، ولعلها مستحيلة. مع هذا تظلُّ شاعِرًا باندفاعك إلى تجربة أمرٍ كهذا في الأقلّ، وليس هذا لأنك تَعُدّ نفسك موضوعًا نادرًا وفريدًا قَمِينًا بالدَّرْس، بل لأنك تحديدًا لا ترى هذا في نفسك، ولا تَخَالُها تختلف عن أي إنسان وعن الجميع.

ثم إنك لا تملك من دليلٍ على صدق ذكرياتك ولو كان جزءًا قليلًا منها إلا كونك ترتدّ أحيانًا إلى طُرق تفكيرك القديمة. ما زالت بعض الآثار متَلَبِّثَةً بك حتى الستينيات من عمرك، فلم يُطَهَّر عقلك تمامًا من اعتقاده أيام طَلْعَةِ الصِّبَا أن الأرواح موجودة في كل ما حوله من أشياء، وما زلت في كل صيفٍ بينما تستلقي على ظهرك بين العشب تنظر عاليًا نحو الغيوم المارَّة فتراقبها في تحوّلها إلى وجوه وطيورٍ وحيوانات، وإلى دُولٍ وبلادٍ وممالكَ ابتدعها الخيال، وما زال شبَكُ مقدَّمة السيارة يحملك على التفكير بالأسنان، وما زلتَ ترى راقصةَ باليه في نازِعِ السِّدَادات. إنك لم تنفكّ تكون الشخص الذي كُنتَهُ على الرغم من دليل المظهر الخارجي، وحتى لو عدتَ لا تكون الشخص نفسه.

وقد قرَّرْتَ في تفكيرك بالقصد من كل هذا أن لا تتجاوز حدّ سنِّ الثانية عشرة، فبعدها كَفَفْتَ عن كونك طفلًا، إذ كانت سنّ البلوغ تلوح من بعيد، وسنّ الرشد تتلألأ ومضاتها في خَلَدك، وكنْتَ تحوَّلْتَ حينها إلى موجودٍ من ضَرْبٍ يختلف عن الشخص

---

(1) يشير إلى كتابه الصادر عام 2012، وكان عنوانه «مذكّرات شتوية» Winter Journal، وهو كتاب يوميات ككتابنا هذا الذي بين أيدينا، لكن مواضيعه مختلفة. [المترجم]

الصغير الذي كانت حياته غوْصًا مستمرًّا في كلّ جديد، والذي كان في كلّ يومٍ يفعل شيئًا ما لأول مرة، بل أشياء جمّة أو كثيرة، وما يُهمّك الآن بالذات إنما هو هذا التقدم المتأنّي من حال الجهل إلى حالٍ أقلّ منه. مَنْ ذا الذي كُنتَهُ أيها الفتى؟ كيف صِرتَ شخصًا قادرًا على التفكير؟ ولو كنتَ قادرًا على هذا حقًّا، فأين أدتْ بكَ أفكارك؟ انبُشِ القصص القديمة، نقِّب في كل مكان عن ما يمكنك العثور عليه، ثم احمل هذه النُّتَف تحت الضوء وتأمّلها. افعل هذا. حاول فعله.

وبلا ريبٍ كان العالمُ مسطَّحًا، فعندما حاول أحدهم تفسير استدارة الأرض لك، وأنها كوكب يدور حول الشمس مع كواكب ثمانية أخرى ضمن شيءٍ يُدعى نظامًا شمسيًّا، عجزتَ عن استيعاب ما كان يقوله الولد الأكبر سنًّا. فلو كانتِ الأرض مستديرة، لَسَقَطَ عنها كلّ من كان دون خط الاستواء، إذ لم يخطر لك ألبتة قدرة أحدهم على العيش رأسًا على عقب. حاول الولد الأكبر أن يفسر لك مفهوم الجاذبية، لكنه كان أمرًا يفوق استيعابك أيضًا. لقد تخيَّلتَ حينها ملايين الناس تُغمَر سِرَاعًا في عَتَمَةٍ ليلٍ أبديٍّ لم يترك شيئًا إلا وخيَّم عليه. ثم قلتَ لنفسك: لو كانتِ الأرض مستديرةً حقًّا، فلن يكون عليها مكان آمن إلا القطب الشمالي.

وقد اعتقَدْتَ، بتأثير من أفلام الكرتون التي أحبَبْتَ مشاهدتها بالطبع، أن في القطب الشمالي قطبًا ناتئًا فعلًا منه، يشبه الأعمدة المخطّطة والدوَّارة الموجودة على أبواب محلات الحلاقة.[1]

أمّا النجوم فكانت أمرًا لا يُفَسَّر، فلا هي محض ثُقوبٍ في السماء، ولا هي شُموع، ولا أضواء إلكترونية، ولا أي شيء يشابه ما كنتَ تعرفه آنذاك. وقد فاقَتْ فهمَك تمامًا جَسَامة هذا الهواء الأسود الذي كان يعلوك، ورَحَابة الفضاء الذي حال بينك وبين هذه الأجسام اللامعة الصغيرة. بَدَتْ أشباحًا لطيفة وجميلة تطوف في الليل، ولم توجَد إلا لأنها كانت هناك دون أي سبب. نعم، إنها من إبداع الإله، ولكن ما الذي كان يفكر فيه هذا الإله يا تُرى؟

(1) تُدعى Barber's pole، والشرائط الدوارة فيها غالبًا باللون الأحمر والأبيض، وفي دول كالولايات المتحدة يُضاف اللون الأزرق. تعود أيضًا إلى العصور الوسطى في العموم. [المترجم]

وكما يلي كانت الظروف التي أحاطت بك آنذاك: أمريكا منتصف القرن، ووالدتك ووالدك، ودراجة بثلاث عجلات وأخرى هوائية بعجلتين وعَرَبة، وأجهزة الراديو والتلفزيون بالأبيض والأسود، وسيارات بناقل حركة يدوي، وشُقّتان صغيرتان ومنزل في الضواحي، وكنتَ تتمتع بصحة ضعيفة في الطفولة تتحول إلى قوَّةِ الصِّبَى المعتادة، وعائلتك من الطبقة الوسطى المكافِحة، والبلدة يسكنها خمسة عشر ألفًا من الْبُرتستانت والكاثوليك واليهود، كلهم بِيضٌ حَاشَا حفنةً من السود، ولكنك لم تجد بوذيين أو هِنْدوسًا أو مسلمين، وكانت لديك أختٌ صغيرة وثمانية أبناء عمومة، وقصص مصورة، وشخصية روتي كازوتي والممثل پِنْكِي لي،[1] وأغنية «رأيتُ ماما تُقَبّل بابا نويل»،[2] ومعلَّبات من شركة كَمْپل سوپ، وشرائح الخبز من وَنْدِر ابْرِد، وبازلاء معلَّبة، وسيّارات معدّلة ومُسَرَّعة، وسجائر بثلاثة وعشرين سِنْتًا لكل علبة. إنه عالَم صغير في داخل العالم الكبير، لكنه عَنَى لك العالم بأكمله ما دام هذا العالم الكبير لم يكن قد ظَهَر لكَ بعدُ.

وكنتَ ترى المزارع اﭬْرَاي يلاحقُ راكِضًا في حقل الذرة القطَّ فيلِكس.[3] ومع أنهما كانا صامتين، فإنك كنتَ ترى تصرفاتهما مصحوبة بخَشْخَشة مستمرة من موسيقا سريعة ومَرِحة، وإذ كنتَ تشاهدهما وهما يخوضان معركة أخرى جديدة في حربهما التي لا تنتهي أبدًا كنتَ تقتنع بأنهما حقيقيان، وأن هذه الأشكال المرسومة بخشونة بالأبيض والأسود لم تكن أقلَّ حياةً منك. كانت تظهر دائمًا بعد الظهر في برنامج تلفزيوني يُدعى «حفلات مرح للصغار» *Junior Frolics*، وكان يقدّمها رجل يُدعى افْرِدْ سيلز Fred Sayles لم تعرفه إلا باسم العمّ افْرِدْ، وهو الحارس ذو الشعر الفضي

(1) شخصية روتي Rootie Kazootie مأخوذة من سلسلة أطفال تلفزيونية صدرت من عام 1950 إلى 1954 بعنوان «نادي روتي كازوتي»، أما الممثل پنكي Pinky Lee فكان نفسه أيضًا مقدّم برنامج للأطفال يُدعَى باسمه The Pinky Lee Show في خمسينيات القرن العشرين، عاش بين 1907 و1993. [المترجم]

(2) أغنية عيد ميلاد شهيرة كتبها الملحّن البريطاني طومس باترك كونر Connor وصدرت مسموعةً عام 1952. [المترجم]

(3) يشير إلى مشهد من سلسلة رسوم متحركة صامتة صدرت في أوائل القرن الماضي في أمريكا ثم تتابعت حتى الخمسينيات، كان اسمها في البداية Farmer Al Falfa. [المترجم]

لِأَرض الأعاجيب هذه. ولمّا كنتَ لا تفهم شيئًا ألبتة عن إنتاج الأفلاح المتحركة، ولا حتى شيئًا قليلًا عن ما يُفعَل لتحريك هذه الرسوم، حَسِبْتَ أن هذه الشخصيات، مثل المزارع اجْراي والقطّ فيلِكس، موجودة بلا ريب في كونٍ بديلٍ ما، ليسَ كضَرَباتِ قلَمٍ راقصة على شاشة التلفاز، بل كمخلوقات كاملة التكوين والأبعاد وحجمها بحجم الراشدين. والمنطق يقضي أن تكون كبيرة الحجم، ما دامت أحجام الناس الذين يظهرون على التلفاز دائمًا أكبر منها كما هي في الشاشة، والمنطق يقضي أيضًا أن تكون في كونٍ بديل، فالكون الذي تعيش فيه ليس مسكونًا بهذه الشخصيات الكرتونية على عكس ما تتمنّاه. ثم تجيء إليك أمّك يومًا ما في سنّك الخامسة فتخبرك بأنها ستأخذك أنت وصديقك بِلِي إلى الاسْتُديو في مدينة نيوآرك حيث يُبَثّ برنامج ***Junior Frolics***، عندها سيمكنك رؤية العمّ افْرِدْ شخصيًّا كما تخبرك أمك، وستكون جزءًا من العرض نفسه. كل هذا يثيرك ويشعل حماستك أيّما إشعال، لكنه لا يداني أبدًا حماستك عندما تفكّر أنك وأخيرًا سترى بأمّ عينيك المزارع اجْراي والقط فيلِكس، وأنّك بعد لَأْيٍ وطول انتظار ستكتشف مظهرهما الحقيقي، فأنت في عقلك ترى كل ما يجري بينهما وهو يُفَضُّ على منصّة ضخمة بحجم ملعب كرة قدم، فيتلاحق المزارع المُسِنّ الحادّ الطَّبْع والقطّ الأسود المخادِع جيئةً وذهابًا في إحدى مناوشاتهما الملحمية. يحلّ اليوم المقرَّر فلا يحدث أي شيء كما ظنَنْت: ترى الاستديو صغيرًا، والعمّ افْرِدْ يضع بعض مساحيق التجميل، وبعد أن تُعطى كيسًا من حلوى النعناع ليرافقك في أثناء العرض تقعد في المدرج مع بِلِي وسائر الصِّبْيَة. تنظر إلى ما يُفترَض أنه المنصّة، وهو في الحقيقة أرض الاستديو الخرسانية، فلا ترى عليها إلا أدوات تلفزيون لا تكبر ـ ولعلها أصغر ـ أدوات التلفزيون التي في منزلك حجمًا، أما المزارع والقطّ فلا ترى لهما أثرًا في الجِوَار. ثم يقدّم العمّ افْرِدْ أول مسلسل كرتوني بعد الترحيب بالحُضور في العرض، فيبدأ الإرسال وترى المزارِع اجْراي والقط فيلِكس يتواثبان كما اعتادا دائمًا، وما زالا حَبِيسَيْ هذا الصندوق، وصَغيرَيِ الحجم كما كانا دائمًا. هنا تعتريك الحَيْرة، وتسأل نفسك: أي خطأ ارتكبته يا تُرى؟ أين ضَللتُ التفكيرَ؟ فقد جاء الواقع مخالفًا للمُتَخَيَّل بشكل صارخ، ولا يمكنك الشعور إلا بأنك كنتَ ألعوبةَ مَكِيدَةٍ كريهة. مشدوهًا وخائبَ الأمل، تجد نفسك بالكاد قادرًا على مشاهدة العرض، وإذ

تعود أدراجك بعدئذ إلى السيارة مع بِلِي وأمك، تقذف بحلوى النعناع وكلّك تقزُّز.

العشب والأشجار، والحشرات والطيور، والحيوانات الصغيرة، وأصوات تلك الحيوانات وهي تتدافع غير مرئية بأجسادها في الشُّجَيرات المحيطة. كنتَ تبلغ من العمر خمس سنين ونصف سنة عندما غادرت عائلتك الشقة الضيقة مع الحديقة في يونيون واستقرَّت في المنزل الأبيض القديم عند إرڤنج آڤِنيو في ساوث أورنج في ولاية انيوجرسي. لم يكن منزلًا كبيرًا، لكنه أول منزل عاش فيه والداك، لذا فهو منزلك الأول أيضًا، ومع أنه لم يكن رحبًا من الداخل، فإن حديقته الخلفية بدت شاسعةً لك، وهذا لأنها حقيقةً حديقتان: الأولى بقعة صغيرة مُعْشِبَة تُحاذي مؤخَّرة المنزل مباشرةً، وتحدُّها حديقة أزهار والدتك التي تتخذ شكلَ هلالٍ، وقد تلاها مباشَرَةً مَرأبٌ خشبيّ أبيض شَطَر الأرض إلى تضاريسَ مستقلة، فكانت الحديقة الثانية خلف الأولى، وهي الحديقة خلف الخلفية، إذ كانت أكثر برِّيَّةً وأكبر من الحديقة الخلفية التي تقدَّمتها، وكانت حقلًا منعزلًا أجريتَ فيه أحمى تَحَرِّيَاتِك عن الحياتَيْن النباتية والحيوانية في مملكتك الجديدة. أما الأثر الوحيد الذي دلّ على وجود رجل في الحديقة فكانت حديقة خضراوات والدك، والحقّ أنها كانت أساسًا حديقة بندورة، لم تُزرَع بعد انتقال عائلتك إلى المنزل عام 1952 إلا بقليل، ثم على طول السنين الست والعشرين ونصف السنة التي بقيت من عمر والدك ظلّ يقضي فصول صيف حياته في زراعة البندورة، وقد كانت أحمَر وأسمن حبات بندورة رآها أي أحد تنبت في انيوجرسي، فكانت تفيض السِّلَال بها في كل شهر آب، وكانت الحبات من الكَثرة بحيث اضْطُر إلى توزيعها قبل أن تفسد. كذا كانت حديقة والدك، تمتدّ على طول المرأب في الحديقة خلف الخلفية، كانت رقعته من الأرض، لكنها كانت عالمك بأكمله، فعشت في هذا المنزل حتى الثانية عشرة.

طيور أبي الحنّاء، وطيور الحسُّون، والقيق الأزرق، والطيور الصفارية، والغربان، والدُّوريّ، وطيور النمنمة، والكردينال، والشحرور، والطائر الأزرق المعتاد. لم تكن الطيور تقل في غرابتها عن النجوم في نظرك، ولمّا كان موطنها الحقيقي في الهواء كان إحساسك أنها والنجوم من عائلة واحدة. ومع أنها كانت تملك هبة القدرة على الطيران التي صعب عليك فهمها، إلى جانب الكثرة الوافرة من الألوان الزاهية والباهتة، وكلها

مواضيع جديرة بالدرس والملاحظة، فلم يُثِرْكَ شيءٌ أكثر من ما كانت تصنعه من أصوات، فكان كل صوت لغةً تختلف باختلاف نوع الطائر، منها التغاريد المُطرِبَة أو الخشنة، ومنها الزعقات الأجَشّة الغليظة. وقد اقتنعتَ من البداية أنها كانت تتحادث معًا، وأن هذه الأصوات لم تكن إلا كلماتٍ معَبِّرة امتلكتها لغة الطيور الخاصة، فكما ترى وجود أناس من ألوان مختلفة يتكلمون لغات لا عَدّ لها، ترى حال هذه المخلوقات المُحَلِّقة التي تتقافز أحيانًا على عشب حديقتك خلف الخلفية، إذ يتكلم كل طائر حنّاء إلى زميله بلغة لها مفرداتها وقواعدها يفهمها واحدهم كما كنتَ تفهم الإنكليزية.

كنتَ في الصيف تشطر ورقة العشب حتى نصفها ثم تصفّر بها، وتمسك باليراعات المضيئة ليلًا ثم تتجوَّل حاملًا برطمانك السحريّ الوهَّاج. أما في الخريف فكنت تغرز سِنْفَ[1] أشجار القيقب الساقطة في أنفك، وتلتقط حبات البلوط من الأرض فترميها نحو الشجيرات حتى تغيب عن النظر، إذ كانت هذه الحبّات طعامًا شهيًّا تطمع فيه السناجب، ولمّا كانت هذه السناجب أحَبَّ الحيوانات لديك ـ لسرعتها، ولوثباتها الجريئة عبر أغصان أشجار البلوط ـ أمْعَنْتَ في مراقبتها وهي تحفر حفرًا صغيرة فتدفن فيها حبات البلوط، وقد أخبرتك أمك أن السناجب كانت تخزّنها من أجل أشهُر الشتاء العِجَاف، بيد أن الحقيقة كانت أنك ما رأيتَ قطّ سنجابًا ينبش حبة بلوط في الشتاء، فاستنتجتَ حينها أن السناجب ما كانت تحفر هذه الحفر إلا لمتعة فِعل الحفر نفسه، وأنها كانت مولَعة به فتعجز عن التوقف.

وكنتَ تظنّ حتى سنّ الخامسة أو السادسة، بل حتى السابعة ربما، أن الكلمتين *مخلوق بشري* كانتا تُلفظان *حبة فول بشرية*،[2] فوجَدتَ الأمر محيِّرًا، فما لَلبشرية أن تُمَثَّل بهذا النوع الصغير والشائع من الخضار! ولكنك قرَّرتَ بنحو ما، وبتحريف أفكارك كذا وكذا لتناسب سوءَ فهمٍ كهذا، أن ما مَيَّز حبة الفول هو صِغَرها بالضبط، فنحن كافّة ننشأ بذْءًا في أرحام أمَّهاتنا وحجمنا لا يكبر حبّةَ الفول، فكانت حبة الفول إذن أصدق وأقوى رمزٍ دالٍّ على الحياة نفسها.

(1) السِّنْف جمع سِنفة، وهي وعاء البَذرة أو الثمرة، ووعاء بذور وثمار بعض أنواع القيقب maple مميز لأنه يتخذ شكلًا مجنَّحًا. [المترجم]

(2) وهذا لقُرب نطق كلمة being من bean، بخاصة عندما يُصمَت لفظ حرف الـG الأخير. [المترجم]

ولم يكن الإلهُ الموجود في كل مكان والحاكم على كل شيء قوّةَ خيرٍ أو حبّ، بل كان قوة خوف، وكان مساوِيًا للشعور بالذنب، وهو صاحب الأمر في شرطة العقل السماوية، وهو الذي لا يُرى، والقَدِير الذي يمكنه اجتياح عقلك فيستمع إلى أفكارك، ويسمعك تحادِثَ نفسك فيترجم صمتَكَ نفسه إلى كلمات. لقد كان بصيرًا بكل شيء، وسميعًا لكل شيء، فكنتَ مضطرًّا إلى التصرف بأحسن ما لديك دائمًا، فإن لم تفعل قُضي عليك بأفظع ضروب العقاب، وأروع الأوجاع، والحَبْس في أظْلَمِ زنزانة، محكومًا فيها أن تعيش عيشَ المُقِلّ طوالَ حياتك. ولمّا صرتَ في سنّ تسمح بارتيادك المدرسة، علمتَ أن عاقبة أي فعلِ تمرُّدٍ كانت السحق، وكنت ترى أصدقاءك لا يتركون قاعدةً إلا وقوّضوها بحيلة وبراعة، ويلفّقون صُوَرًا من الأذى أمْلأَ مواربةً من وراء ظهور الأساتذة فيَنْفذوا منها دون عقاب، أما أنت فكلما غلبك الإغراء وشاركت في هذه المشاكسات قُبِض عليك وعُوقِبْت لا محالة. للأسف، لم تملك موهبةَ النزوع إلى الأذى، ولمّا تخيّلتَ إلهك الغضبان يستهزئ بك ضاحكًا ضحكةً كلها ازدراء، أدركتَ أنك مجبر على أن تكون صالحًا ـ وإلا!

ها أنت الآن في سنّ السادسة: تقف في غرفتك صباحَ يوم السبت، ثم ترتدي هندامك وتربط حذاءك (يا لك من صبي كبير الآن! يا لك من صبي مقتدر!)، وكُلّكُ تأهُّب للنشاط، وها أنت في صدد الهبوط إلى الطابق السفلي لتبدأ يومك، وما كِدْتَ تقف في ضوء صباحٍ ربيعي باكِر حتى غمرك شعورٌ بالسعادة، وإحساس عارِم وجامح بالعافية والمرح، حتى مرت لحظةٌ فحَدَّثتَ نفسك: ما من شيء يفضُل أن تكون في سنّ السادسة، فهي أحسن سنٍّ قد يبلغها أحدٌ. وإنك تتذكر تفكيرك في هذا بوضوح لا يقل عن وضوح تذكرك ما فعلته قبل ثلاث ثوانٍ، فما زالت ذِكراهُ متأجِّجَةً بعد تسع وخمسين سنة من هذا الصباح، بصفاءٍ لم تَشُبه شائبة، وبِعَيْنِ التيقُّظ الذي تتذكر به آلافًا أو ملايين أو آلاف الملايين من الذكريات التي استطعت الاحتفاظ بها. ما الذي حدث فأثار شعورًا طاغيًا كهذا؟ يستحيل أن تعلم، لكن ظَنَّكَ أنه شيء يتعلق بالوعي بالذات، أعني ما يحدث للصِّبْيَةِ في نحو سنّ السادسة، عندما يصحو صوتهم الداخلي فتبدأ قدرتهم على التفكير بفكرةٍ ما وإعلام أنفسهم بأنهم يفكرون بهذه الفكرة المعينة. تستهلّ حياتنا هنا بُعْدًا جديدًا، ففي هذه اللحظة بالذات نتَمَلَّك القدرة على سرد

القصص على أنفسنا سَرْدًا لا ينقطع حتى يُقضَى آخر يوم في حياتنا. فأنت حتى ذلك الصباح لم تكن إلا موجودًا، لكنك غدوتَ الآن عالمًا بوجودك، وفي وسعك التفكير في كونك حيًّا، ومتى ما حزتَ هذه الاستطاعة صار لك أن تتلذّذ تمام التلذذ بحقيقة وجودك، وهو ما يعني قدرتك على إخبار نفسك بحلاوة أن يكون المرء حيًّا.

1953. ما زلتَ في السنّ السادسة، ومرت بضعة أيام أو أسابيع بعد ذاك التنوُّر، ثم ها أنت تختبر نقطة تحول أخرى في نموِّك الداخلي صَدَف أن وقعت في صالة السينما في انيوجرسي. لم تَزُر السينما إلا مرتين أو ثلاثًا من قبل، وكان ما شاهدته في كل مرة فِلمَ رسوم متحركة للأطفال (يخطر في البال *سندريلا* و*بينوكيو*)، أما ما كان فيها أناسٌ أحياء فلم تتوفر لك إلا على التلفاز، بخاصة أفلام الغرب الأمريكي منخفضة الميزانية من الثلاثينيات والأربعينيات، كـHopalong Cassidy وGabby Hayes وBuster Crabbe وAl "Fuzzy" St. John، كلها أفلام خرقاء يملؤها إطلاق النار، ارتدى الأبطال فيها طواقِيَ بيضًا وبدا الأشرار بشواربهم السود، وهَنِئْتَ بها كثيرًا ووثقت بها بقناعة متَّقِدة. ثم اصطُحِبْتَ يومًا ما في السنة التي صرت فيها في سنّك السادسة إلى مشاهدة فِلمٍ يُعرض ليلًا، ولا شك أن من اصطحبك كان والديك، مع أنك لا تتذكر وجودهما هناك. كانت هذه أول تجربة مشاهدة فلم خضتها ولم تكن عَرْضًا صباحيًّا يوم السبت، ولا فلم رسوم متحركة من دزني، ولا فلم غربٍ أمريكي بالأبيض والأسود، بل كان فلمًا جديدًا بألوانٍ وأُنتِجَ للبالغين. ما زلتَ تتذكر ضخامة الصالة المكتظّة، وشعور الرهبة عند القعود في الظلمة بعد إطفاء الأضواء، كان مزيجًا من الترقُّب والقلق، كما لو كنتَ في الصالة ولم تكن في الوقت نفسه، وكأنك غادرتَ جسدك الخاص بالطريقة نفسها التي يتلاشى فيها المرء عن نفسه عندما يستبدّ به حُلمٌ ما. وكان الفلم المقصود *حرب العوالم* المبنيّ على رواية هـ. ج. وِلز، وكان حينها مُشادًا به باعتباره عملًا منقطع النظير في ما تعلّق بالمؤثرات الخاصة التي رافقت عملية إنتاجه، فكان أدقّ وأكثر تطوّرًا وإقناعًا من أي فلم سبقه. هذا ما قرأته في السنين القليلة الفائتة، لكنك لم تدرك أي شيء من هذا في عام 1953، إذ لم تكن سوى صبي في سنّه السادسة يشاهد كتيبةً من المرّيخيين يغزون الأرض، وقد بدَتِ الألوانُ عبر هذه الشاشة المهولة الشاخصة بإزائك أزهى من أي لون شاهدته قبلًا، فكانت شديدة اللمعان

والوضوح والإشباع حتى آلَمَتْ عينيك. تهبط من سماء الليل سفينة فضائية معدنية مستديرة كاستدارة الحجر، فيُفتَح أحد أغطية هذه الآلة الطائرة، ثم شيئًا فشيئًا يظهر مرّيخيٌّ من داخلها، قوامه شبيه بقوام حشرة بطولٍ خارق للطبيعة وذراعين كالعِصِيّ وأصابع طويلة بشكل مخيف، ثم يحدث أن يثبّت أحد المريخيين بصره على واحد من المخلوقات الأرضية، فيصوّب عليه بعينيه البشعتين وبَصَلِيّتَيِ الشكل، ولا تمر لحظة إلا وينطلق شعاع من الضوء، ثم بعد ثوانٍ ترى المخلوق الأرضي وقد اختفى: لقد أُبِيد وصار هباءً، حُوِّلَ إلى مجرد ظلٍّ على الأرض، ثم يختفي الظلّ نفسه أيضًا كما لو لم يكن الشخص هناك ولم يكن حيًّا قطّ. لكن الغريب أنك لا تتذكر شعورك بالخوف ألبتة، فالأحرى أن كلمة «ذُهِلْتَ» هي الأنسب لوصف ما كنتَ تختبره. كان إحساسًا بالرهبة والدهشة، كما لو أن المشهد آنذاك سلَبَك عقلك ورمى به إلى حالةٍ من النشوة المُفقِدة للحسّ. ثم حدث شيء فظيع، شيء أفظع بكثير من موت وإبادة الجنود الذين حاولوا قتل المريخيين بأسلحتهم التافهة. لعل رجال العساكر هؤلاء أخطؤوا عندما افترضوا أن الغزاةَ قَدِموا حامِلِين نيّاتٍ عدائية، ولعل المرّيخيين كانوا ببساطة يدافعون عن أنفسهم كما سيدافع عن نفسه أي مخلوق آخر لقي نفسه معرَّضًا للهجوم. كنتَ على أي حال مستعدًّا لمنحهم قرينة الشكّ، فقد بدا لك خطأً أن يستبيح البشر لخوفهم من المجهول التحوُّل سريعًا إلى العنف. ثم أَقْبَلَ رجلُ السلام، وكان والد السيدة القائدة، أعني الحبيبة أو الزوجة الشابة والجميلة للرجل القائد، وقد كان هذا الوالد قسًّا أو كاهنًا من نوع ما، أي رجلَ دين، فأنشأ يعظ مَنْ حوله بصوت لطيف وهادئ بأن يُباشروا الفضائيين بالحُسنَى والمودَّة، وبأن يَقْدِموا إليهم وحُبّ اللّه في قلوبهم. وحتى يبرهن على ما كان يقول، طفق الوالد القسّ يمشي نحو إحدى السفن، حاملًا الإنجيل بيدٍ والصليب بأخرى، مُطَمْئِنًا المرّيخيين من أيّ خوف، وقائلًا لهم إننا ساكنو الأرض لم نُرِد إلا العيش في وئامٍ مع ساكِنِي الكون كافّة، فكان فمه يقشعرّ بالعاطفة، وكانت عيناه متهلِّلَتَيْن بقوّة الإيمان، ثم لمّا صار دون السفينة بأمتار معدودة، فُتِح غطاؤها وظهر مريخيٌّ أشبه بالعصا، وما كاد القس الوالد يخطو خطوة أخرى حتى أُطلِقَ شعاع ضوءٍ حوَّل حامل الكلمة المقدَّسة إلى ظلّ، وما مرّت لحظة حتى غاب الظلّ وصار هباءً عَدَمًا. لقد كان الإله القَدِير بلا حَولٍ ولا قوة، ولقد وقف عاجزًا في وجه الشر كأَوْهَنِ

الرجال، وكلّ من آمن به أَلْفَى مصيره محتومًا بالهلاك. هكذا كان الدرس الذي تعلمته من حرب *العوالم* في تلك الليلة، فكان صدمةً لم تُشفَ منها أبدًا.

اعفُ عن الآخرين، اعفُ عنهم دائمًا، وإيّاك أن تعفو عن نفسك، وقلْ رجاءً وشكرًا، ولا تضع مرفقك على الطاولة، وإيّاك والتفاخر، وإيّاك وقول شيء فظّ عن أحد ما من وراء ظهره، وتذكر أن تضع ملابسك المتسخة في السلّة، وأطْفِئِ الأضواء قبل مغادرة الغرفة، وانظر إلى عيون الناس عند محادثتهم، وإياك وَرَدُّ كلام والديك، واغسل يديك بالصابون وتأكّد أن تنظف ما تحت أظفارك، ولا تكذب، ولا تسرق، ولا تضرب أختك الصغرى، وصافح غيرك بقوّة، وكُنْ في المنزل بحلول الخامسة، وفَرِّش أسنانك قبل الذهاب إلى السرير، وتذكر قبل كل شيء أن لا تمشي تحت السلالم، وأن تتجنب القطط السود، وإيّاك أن تلمس بقدميك الشقوق الموجودة على الأرصفة.

لقد أغَمَّتْكَ حالُ البائسين والمظلومين والمُعْدِمين، ومع أنك كنتَ أصغَرَ من أن تفهم أي شيء عن السياسة والاقتصاد، وأن تستوعب القوى الساحقة التي تمارسها الرأسمالية على من كانوا بالكاد يمتلكون أو لم يمتلكوا أي شيء، فإنك لم تَحْتَجْ إلا إلى أن ترفع رأسك وتنظر من حولك حتى تدرك أن العالم لم يكن عادلًا، وأن بعض الناس عانى أكثر من غيره، وأن كلمة *مُساوٍ* كانت في واقع الأمر نسبيةً. لعل مِنْ ما ساهم في إدراكك هذا كان إظهارك مبكّرًا على أحياء السود الفقيرة في نيوآرك ومدينة جِرسي، في مساء أيام الجمعة عندما رافقتَ والدك في جولاته لِجَمْعِ أُجَرِ السكن من المستأجرين، أنت الصبي الاستثنائي القادم من طبقة متوسطة وتوفّرت لك الفرصة كي تدخل شقق البائسين والمعدمين، وكي ترى وتشمّ ظروف الفقر، والنساء المتعبات وأولادهنّ، وليس يُرى في ما يظهر إلا رجل عَرَضيّ، ولمّا كان مستأجرو والدك السود دائمي اللطف تجاهك، تساءلتَ مع نفسك لِمَ على هؤلاء الناس أن يعيشوا بأقلّ القليل، وبأقل من ما عشتَ عليه أنت كثيرًا، أنت الهانئ والمستريح أيما استراحة في منزلك الوَثِير الواقع في الضواحي، وهم في غُرَفهم القاحلة بأثاثها الخَرِب أو المحتوية بالكاد على شيء منه. لم يتعلق الأمر في رأيك بمسألة العِرق، لم يكن الأمر هكذا في الأقل آنذاك، إذ لمّا كان شعورك الارتياحَ وأنت بين أظْهُرِ مستأجري والدك السود، ولم تهتمّ بكون بشرتهم سوداء أو بيضاء، فإن الأمر كله لُخِّص في مسألة المال، في حقيقة

كونهم لم يملكوا المال الكافي ولا نوعًا من العمل يضمن لهم مالًا كافيًا كي يعيشوا في منزل كمنزلك. ثم لمّا كبرت قليلًا وبدأت تقرأ التاريخ الأمريكي، في ذلك الجزء منه الذي تصادف مع صعود حركة الحقوق المدنية، استطعتَ أن تفهم أكثر قدْرًا معقولًا من ما شهدته وأنت صبي في نحو السادسة والسابعة، لمّا كنت أعجز من أن تفهم شيئًا وما زال وعيك في أيام بزوغه المظلمة، فكلّ ما علمته كان أن الحياة تظهر عطوفة مع بعض الناس وقاسية مع بعضٍ آخر، ولهذا آلَمَك قلبك.

ثم أتت مسألة *أطفال الهند الجوعى*، فكانت أمْعَنَ في تجريدها وأصعب على الاستيعاب لبُعدها وغرابتها، بيد أنها أثَّرَتْ في خيالك تأثيرًا قويًّا: أطفال عارون إلا قليلًا وليس لديهم ما يكفي من الطعام، وبأطرافٍ هزيلة ضامرة دِقَّتها كدقة المزمار، وحافُون، ولا يلبسون إلا أسمالًا وخُرَقًا، يتجولون في مدن مكتظة شاسعة ويشحذون كَسْرَةً من خبز. هذا ما تراءى لك في كل مرة تكلّمت والدتك على هؤلاء الأطفال، ولم يحدث مرةً أن تكلمت إلا وكانت على طاولة العشاء، فهذه كانت حيلة الأمهات الأمريكيات المعتادة في خمسينيات القرن العشرين، إذ يداومن على الإشارة إلى أطفال الهند المُعْوِزين والمَسْغولين[1] حتى يحملن أولادهن على الشعور بالخزي فينظفوا صحونهم من الطعام، وما أكثر المرات التي تمنَّيْتَ فيها أن تدعو طفلًا هنديًّا إلى منزلك حتى تتقاسم معه عشاءك، فالحقّ أنك كنتَ آكِلًا دقيقًا صعب الإرضاء في صِغَرك، ولا ريب أن هذا كان نتيجة نظامٍ هضمي مَعِيب ابتُلِيتَ به حتى سنك الثالثة والنصف أو الرابعة، وكانت توجد بعض الأطعمة التي لم تحتملها، فكنتَ تفشل دائمًا في إنهاء ما قُدِّمَ إليك منها على طبقك، فتفكر في أولاد وبنات الهند ليَعْتَلِجَكَ الشعور بالذنب وتصيبك التمزُّقات.

ولستَ قادرًا على تذكّر أنه كان قُرِئ لك يومًا، ولا تذكُر أنك تعلّمت القراءة، فكلّ ما تستطيع استذكاره أنك كنتَ تُحادث أمّك عن بعض الشخصيات التي كنت مُولَعًا بها، كانت شخصيات من الكتب، ولذا لا ريب أنها كتبٌ كانت قرأتها لك، لكنك لا تذكر أنك حملتَ هذه الكتب بيديك، ولا أنك جلست أو استلقيت إلى جانب أمك وهي

(1) المسغول كالمهزول، من السَّغَل، وهو سوء الغذاء ودقّة القوائم والأطراف. [المترجم]

تشير إلى الرسوم التوضيحية وتقرأ كلمات القصص جَهْرًا، ولا تقدر حتى على سماع صوتها، ولا الشعور بجسدها يُجاوِر جسدك. لكنك إن أجهدتَ نفسك كفايةً فأغلقت عينيك طويلًا كما يجب فأدخلتَ نفسك في حالٍ أشبه بالغيبوبة، رأيتَ أنك بالكاد تقدر على استحضار تأثير بعض الحكايات الخيالية فيك، وبخاصة حكاية «هانسل واجْرِيتل» التي كانت أكثر حكاية أخافتك، ثم حكايات أخرى مثل «رمبلستلسكن» و«رابونزل»،[1] إلى جانب ذكريات باهتة عن النظر إلى صور دَمْبو (Dumbo) ووِيني الدبدوب (ويني ذا بوه) والدلماسيّ الصغير المدعوّ بِي - وِي.[2] لكن قصة بيتر الأرنب كانت أكثر قصة أَهَمَّتْك وستظلّ تعرفها عن ظهر قلبٍ إلى حد ما، ما يعني أنها قُرِئت لك كثيرًا من المرات، وكانت هذه عن بيتر المسكين والشقيّ، وهو الابن الضال للسيدة الكبيرة أَرْنُوبة (رَابِت)، وعن مصايبه التي فعلها في حديقة خضراوات السيد مكچريچور. وإذ تتصفح الآن نسخةً من الكتاب تَدْهَش لِقَدْرِ ما يبدو مألوفًا لديك، بكلّ تفصيلٍ من كل لوحة، وبكلّ كلمة من النصّ، وبخاصة هذه الكلمات المروّعة التي تلفظت بها السيدة العجوز أرنوبة (رابِت) في الصفحة الثانية: «يمكنك الذهاب إلى الحقول أو على طول الممر الضيق، ولكن إيّاك الذهاب إلى حديقة السيد مكچريچور، ففيها وقع حادثٌ لوالدك فوضعه السيد مكچريچور في فَطِيرة». فلا غَرْوَ أنْ كان للقصة تأثير كهذا فيك، إذ مهما كان المحيط ريفيًّا وساحرًا، لم يندفع بيتر إلى لهوٍ مسائي قصد منه الترفيه عن نفسه، فهو بالتسلل إلى حديقة السيد مكچريچور كان يخاطر بحياته بكل جَسَارة، بل بكل غباء، وإنك إذ تدرس الآن محتوى الكتاب تغدو قادرًا على تخيّل شدّة خوفك على حياة بيتر، وعمق ابتهاجك بهَرَبه. كأنها ذِكْرَى ليست بذِكرى حقًّا، لكنها ما زالت تعيش في داخلك. عندما وُلِدت ابنتُك قبل أربع وعشرين سنة، كان من الهدايا التي تَسَلَّمْتها كوبٌ صينيٌّ مزخرف برَسْمَيْن من كُتب الكاتبة الإنگليزية بياتِركس پوتر، وقد استطاع هذا الكوب بطريقة ما النجاة من أهوال طفولة وصِبَا ابنتك، وكنت تستخدمه

(1) كلها تجدها في حكايات الأخوين اجْرِم أو غريم الألمانيين. يُقال للأولى بيت الحلوى، وللثانية جُعيدان، والثالثة معروفة باسمها. [المترجم]

(2) لعله يشير إلى القصة التي كتبتها الأمريكية دُروثي كَنهرت Kunhardth بعنوان «بي - وي الصغير، أو افتح الصندوق الآن» Little Peewee; Or, Now Open the Box عن كلب من النوع الدلماسي. [المترجم]

على طول السنين الخمس عشرة الماضية لشرب شَايِك في الصباح. ومع أنه ينقصك شهر واحد فقط حتى يوم ميلادك الخامس والستين، ما زلت في كل صباح تشرب من كوبٍ مصمم للأطفال، وهو كوب الأرنب بيتر، وبشأن هذا تخبر نفسك أنك تفضل هذا الكوب على سائر الأكواب في البيت لحجمه الممتاز، فهو أصغر من الكُوز، وأكبر من فنجان الشاي التقليدي، وله انحناءة سارّة حول الحافَة في أعلى الفنجان تشعر أنها مريحة عندما تقابل شَفَتَيْك وتسمح للشاي بالانسكاب في حلقك دون الاندلاق جانبًا. إنه إذن كوب عملي وأساسي، لكنك في الآن عينه لن تتفوّه بالحقيقة إنِ ادَّعَيْت عدم اكتراثك بالصور التي تزيّنه، فأنت يسرّك بدء اليوم بالأرنب بيتر، وهو صديقك القديم منذ سنين الصبا المبكرة، أي منذ وقت غابرٍ حتى فقدتَ أي ذكريات واعية متعلّقة به، وها أنت تعيش في فزع من اليوم الذي سينزلق الكوب فيه من يدك وينكسر.

لقد أخبرتك أمّك في وقت ما من سنين فُتُوّتِك أنك استطعت تعرُّف حروف الهجاء عندما صرتَ في سن الثالثة أو الرابعة، لكنك لا تعرف إن كان يمكن تصديق هذا الادعاء لمّا كانت أمك تميل إلى المبالغة متى ما تكلَّمت على إنجازات حَدَاثَتِك، هذا وإن حقيقة أنك أُلحِقْتَ بمجموعة القراءة المتوسطة عندما بدأت الصف الأول توحي كما يبدو بأنك لم تكن نَضَجْتَ قبل أوانك كما تظنّك أمك. انظر دِكْ يركض، وانظر جِين تركض.[1] كنتَ في السادسة، وتضعك أقوى ذكرياتك من ذلك الوقت على مكتب منفصل عن سائر الصِّبْية، على مكتب فردي في آخر غرفة الصف حيث نُفِيتَ مؤقتًا عقابًا على إساءتك التصرف في الحصّة (إما بالحديث إلى أحدهم عندما كان مفروضًا منك التزام الصمت، وإما نتيجة عقاب واحد من بين أخرى كثيرة تلقيتها لِفقدانك البراعة في صنع الأذى)، وبينما قَعَدتَ على مكتبك الانفرادي وأنت تتصفح كتابًا لا بد أنه طُبِع في عشرينيات القرن (كان الأولاد في رسومِه يرتدون سراويل قصيرة)، قَدِمَت معلِّمَتُك إليك، وهي امرأة لطيفة وشابة بِذِراعَيْن مكتنزتين ونَمِشَتَيْن،

(1) دك Dick وجين Jane الشخصيتان الرئيستان اللتان اخترعتهما المربّية والمحررة زِرْنا آدس شَرْب Zerna Sharp لسلسلة كتب تأسيسية لتعليم القراءة للأطفال ألّفها المربّي الأمريكي وِلْيَم اجراي William Gray. [المترجم]

اسمها الآنسة دورسيه أو لعلها السيدة دورسي،[1] فوضعت يدها على كتفك تتلمّسك برِقّة، بل حتى بلُطف وحُنُوّ، فكان أمرًا فَجَأَكَ أولًا ثم بَدَا أحسنَ ما يكون، ثم انحنت فهمست في أذنك مُخْبِرةً إياك بأنها تَشَجَّعت بما أحرزْتَهُ من تقدم، وبأن عملَكَ تحسَّن أيّما تحسُّن، ولذا قرَّرتْ نقلك إلى أفضل مجموعة قراءة، لذا لا ريب أنك كنتَ تتحسن شيئًا فشيئًا. هذا وأيًّا ما كانت المصاعب التي واجهتها في أولى أسابيع سنة المدرسة فإنها الآن صارت من أمر الماضي، لكنك مع هذا متى ما استرجعتَ الذكرى الواضحة الوحيدة التي تشبّثت بها من تلكم الأيام التي كنتَ تتعلم فيها القراءة والكتابة، لم تستطع فعل شيء غير هزِّ رأسك مذهولًا. إنك لا تعرف إن كان جرى هذا الحادث قبل أو بعد ترقيتك إلى أفضل مجموعة قراءة، لكنك تتذكر تذكُّرًا جَلِيًّا أنك حضرتَ إلى المدرسة متأخرًا قليلًا في ذلكم الصباح بسبب موعد عند الطبيب، وأن أول درس لليوم كان قد بدأ فعلًا، حينها انْسَلَلْتَ إلى مقعدك المعتاد بجانب مَلْكُم افْرَنكلِن، وهذا كان صبيًّا ضخمًا مُعَمْلقًا بمنكَبَيْن عريضين أيّما عرض، وكان يُظَنّ أنه ينتسب إلى بِنْجَمِن افْرَنكلِن،[2] وهي حقيقة أو وهم دائمًا ما أثَّرت فيك. كانت الآنسة أو السيدة دورسيه ـ دورسي تقف حذاء اللوح الأسود في مقدّمة الغرفة الصفية، وهي تُلقِّن الأولاد النحو الذي يُكتَب به حرف الواو *W*، فكان كل طالب يُقلّدها بدقّة بكتابة صفٍّ من حروف الواو وظهره محنيّ فوق مكتبه ممسكًا قلمًا بيده. ولمّا نظرتَ شِمالَكَ لترى كيف يُبْلِي قَرِيب بنجمن افرنكلن في الواجب، أضْحَكَكَ أن زميلك لم يكن يتَلَبَّث ليفصل بين حروف الواو (كذا w w w w)، لكنه أوصلها كلها بعضها ببعض (كذا wwww)، فأثارك بُدُوّ هذا الحرف الممدود جَسُورًا وشائقًا على الورقة، وحتى مع علمك تمام العلم أن حرف الواو *w* الحقيقي يُكتَب بأربع جَرَّاتٍ بالقلم فقط، فإنك سارَعتَ في تقرير أنك تُفضّل نسخة مَلْكُم افرنكلن من الحرف، ولذا بدلًا من حلّ الواجب بالطريقة

(1) يوجد هنا تنويع في كتابة الاسم يصعب نقله في الترجمة العربية لتشابه اللفظ، إذ يكتب المؤلف عن المعلمة ما يلي: إن اسمها إما الآنسة Dorsey أو Dorsi، ولعله السيدة Dorsey أو Dorsi. سيرد ذكر المعلّمة مرة أخرى باللفظين هذين بعد عدة سطور، لذا سأترجم حينها لمجرّد التفريق اللفظ Dorsey كذا: دورسيه، واللفظ Dorsi كذا: دورسي. [المترجم]

(2) المؤسِّس المعروف للولايات المتحدة، والمؤلِّف يحاول استرجاع سذاجة الصبا بافتراض قرابة بين شخصين لمجرد وجود تشابه في أحد أقسام الاسم. [المترجم]

الصحيحة طفقت تنسخ مثال صديقك مُرِيدًا إبطال التمرين ومُثْبِتًا حَسْمًا أنك، ومهما قطَعت من الأشواط في التقدّم، ما زلتَ أحمقَ بمستوًى عالمي في حُمْقك.

* * *

قد وُجِد زمانٌ في حياتك، لعله كان قبل أو بعد السادسة (لستَ تدري تمامًا لأن] تسلسل الحوادث تشوش قليلًا)، اعتقدتَ فيه أن الأبجدية احتوت على حرفين زائدين، وهما حرفان سرّيّان لم يعرفهما أحدٌ غيرك، أعني حرف لامٍ مقلوبَ الوجه: ـا، وحرف ألِفٍ مقلوبًا رأسًا على عقب: ∀.

كان أفضل شيء يخصّ مدرسة النحو التي حضرتها فاستمرت من الروضة حتى نهاية الصف السادس، أنك لم يُقرَّر عليك أي واجب منزلي فيها قطّ، إذ كان المديرون الذي شغلوا مناصب المجلس المحلّي للتعلم أتباعًا لجون دُوِي (John Dewey)، وهذا كان الفيلسوف الذي غيّر مناهج التعليم الأمريكي بأسلوب تناوله الليبرالي التقدمي والإنساني لنموّ مرحلة الصِّبَا، ولذا كنتَ المستفيدَ من حكمة ديوِي، كنت الصبي الذي يُسمح له بالانطلاق حرًّا متى ما رَنّ الجرس الأخير الذي يأذن بانتهاء دوام المدرسة في اليوم المَعْنِيّ، فتكون لك حرية اللعب مع أصدقائك، وحرية الذهاب إلى البيت والقراءة، وحرية عدم فعل أي شيء. إنك مُقِرٌّ بفضل هؤلاء السادة المجهولين أيّما إقرار لحفاظهم على صِبَاكَ مَصُونًا، ولعدم إثقال كاهلك بأعمال فارغة لا ضرورة لها، ولحيازتهم ما يكفي من البصيرة حتى يفهموا أن الصِّبْية لا يمكنهم احتمال قَدْرٍ أكبر من هذا القَدْر المعيّن، ومن ثَم عليهم أن يُتركوا على هواهم. لقد أثبت هؤلاء السادة أن كل ما ينبغي تعلُّمه يمكن تعلُّمه ضمن حدود المدرسة، إذ قد تلَقَّيتَ أنت وزملاؤك تعليمًا ابتدائيًّا جيدًا في ظلّ هذا النظام، نعم جائزٌ أنه لم يكن دائمًا على أيدي أبْدَعِ الأساتذة، لكنهم كانوا ذوي كفاية لكل هذا، وقد مرَّنوكم على الرَّاءات الثلاث[1] حتى نقَشوها عليكم بنتائجَ يتعذّر محْوُها، وعندما تفكّر بطِفْلَيْكَ اللذين شَبَّا في عصر من الاختلاط والقلق في ما يتعلق بالشؤون التربوية، تتذكر كيف خضعا ليلًا بعد ليل لواجبات منزلية

(1) الراءات الثلاث هي القراءة والكتابة والحساب، من الإنگليزية: reading, writing, and arithmetic، فتُختَصَر بمصطلح الراءات الثلاث. [المترجم]

طاحنة ولا تُحتَمَل، وغالبًا ما احتاجا إلى مساعدة والديهما كي يُنهِيَا ما كُلِّفا به، ثم سنةً بعد سنة إذ تشاهد جسدَيهما يخوران وأعينهما تبدآن بالانغماض، تأسف لهما وتحزن على ما يُصرف من ساعات طوالٍ من عمرهما في خدمة فكرة عقيمٍ.

لم يوجد في منزلك إلا كتب قليلة، فالتعليم الرسمي لوالديك توقف مع نهاية المدرسة الثانوية، ولم يهتمّ أحدهما بالقراءة. مع ذلك كانت توجد مكتبة عامة مقبولة في البلدة التي عشتَ فيها، وكنت تذهب إليها كثيرًا، فتتفحص كتابين أو ثلاثة أو أربعة في كل أسبوع، فلمّا صرتَ في الثامنة اكتَسَبتَ عادة قراءة الروايات، وكان أكثرها عاديًّا لا قيمة كبيرة فيه، وهو قصص كُتبت ونُشرت للشباب في أوائل الخمسينيات، ومثال عليها المجلّدات التي لا عدّ لها من سلسلة الفِتْيَة هاردي Hardy Boys، وكنتَ علمتَ لاحقًا أن صانعها عاش في ميپلوود في انيوجرسي، وهي البلدة المجاورة لبلدتك، بيد أن أكثر ما أعجبك من الروايات كان عن ضروب الرياضة، وعلى الخصوص سلسلة اتْشِب هِلْتِن Chip Hilton [المدرِّب كرة السلة الأمريكي] كلير بي Clair Bee، وكانت تابَعَتْ هذه السلسلة مغامرات المدرسة الثانوية للبطوليّ اتْشِب وصديقه بِچِي كُوِين وهما يفوزان في مسابقة بعد أخرى بفرق درجة قليل، أو في مباريات انتهت دائمًا بتمريرة ما قبل أخيرة من الظَّهِير الرُّبعي ينجح اللاعب في إيصالها إلى منطقة الفريق الخصم، أو في رَمْيَة من نصف ساحة اللعب قبل انطلاق صوت الصافرة الأخير، أو في الركض دورة كاملة بحيث تنتهي المباراة في النصف الثاني من الجولة الحادية عشرة. ثم إنك تذكر أيضًا رواية شائقة كان اسمها *Flying Spikes* عن لاعب دوريٍّ هَرِمٍ سابق كان يلعب في الدوري الرئيس تجاوز سنين عُنفوانه وأوْجِه، وها هو يقدّم آخر محاولة رَمْية قد يحرز المجد بها في الدوريات الدنيا، وتذكر كثيرًا من الأعمال الأخرى غير الروائية عن رياضتك المفضلة، ككتاب *يومي الأعظم في كرة القاعدة*، وكتب عن اللاعب جورج بيب روث، ولُو چيرِچ، وجاكي روبنسن، والشاب وِلِي مِيْس. لقد أمتعتك السِّيَر الذاتية تقريبًا بقدر ما أمتعتك الروايات، وقد قرأتها بفضول مملوء شَغَفًا، وبخاصة ما كان منها عن حيوات أشخاص من الماضي البائد، كأبرهام لِنْكِن، وجان دارك (عذراء أورليان)، ولُوِي باستير، وذاك الرجل المتعدد المواهب الذي كان سَلَفَ ـ ولعله ليس كذلك ـ زميلك السابق، أعني بنجمن افرنكلن. وتتذكر جيدًا سلسلة كتب

لاندمارك Landmark للأطفال، فمكتبة مدرستك للنَّحْوِ كانت مملوءة بها، لكن ما استغرقك أكثر كان الكتب ذات الغلاف الفني المقوّى من Bobbs ـ Merrill بكُعُوبها وبَطَائنها البرتقالية، فهي مجموعة ضخمة من السِّيَر الذاتية مع رسوم ظِلِّيَّة كالحة السواد تتخلل صفحات النَّصّ، كنتَ قرأتَ عشراتٍ منها، هذا إن لم يكن أكثر. وثمّة أيضًا الكتب الذي أهدتك إياها جدّتك من ناحية أمّك، وكان كتابًا لم يُعَتِّم أن صار أغلى ما تملك، وهو مجلّد ثخين عنوانه *عن الشجاعة والبسالة Of Courage and Valor* (كتبه مؤلّف اسمه استرونچ ونشرته شركة هارت بوك في عام 1955)، وقد مثّل خلاصة وافية لخمسين سيرة ذاتية قصيرة عن مَنْ كان فاضلًا شريفًا من الأموات، ومنهم النبي داود (وهو يهزم جالوت)، والملكة إستر، والقائد الروماني أوراتيوس وهو على الجسر، وأندروكليس والأسد، والبطل الشعبي ڤلهلم تِلْ، وجون اسمث وبوكاهنتس، والسيد والتر رالي، ونيثن هيل، وسَكاجُوِيَا، وسِمون بوليڤَر، وافلورنس نَيْتِنچيل، وهِرِييت توبمن، وسوزن ب. أنتوني، وبوكر ت. واشنطن، وإمّا لِعازر. ثم بمناسبة يوم ميلادك الثامن أعطتك جدتك المحبوبة نفسها نسخةً متعددة المجلدات من أعمال روبرت لويس استيڤنسن، فكانت لغة روايتي *مخطوف* وجزيرة *الكنز* شديدة الصعوبة عليك في تلك السنّ (تتذكر مثلًا أنك تخبّطتَ عند كلمة *إجهاد fatigue* لمّا صادفتها أول مرة مطبوعةً فتَلَفَّظتها لنفسك كذا: *فَتَاچو fat ـ a ـ gew*)، لكنك ناضَلْتَ بكل رجولة في أثناء قراءة الرواية الأقل حجمًا دكتور جيكل *ومستر هَيْد*، مع أن الجزء الأكبر منها كان سهلًا وسَلِسًا على ذهنك. أما كتاب *حديقة الطفل الشِّعْرِيَّة* الأبسط بكثير فكُنْتَ أحببته أيّما حبّ، ولمّا علمتَ أن استيڤنسن كان رجلًا راشدًا عندما نَظَم هذه الأشعار أدهشتك براعته في توظيف ضمير المتكلم بنحو شافٍ على طول الكتاب، فكان يزعم الكتابة من وجهة نظر صَبِيٍّ صغير، وها أنت تفهم الآن فجأةً أنه هذه كانت أول لمحة التقطتها عن الخَفِيّ الذي كان يُشَغِّل الإبداع الأدبي، وهذا ما أعني به السيرورة الغامضة التي يسلكها شخصٌ ما حتى يقفز إلى ذهنٍ آخر غير ذهنه. ثم نَظَمْتَ في السنة التالية أولى قصائدك، وكان أوحى بها إليك مباشرةً استيڤنسن ما دام الشاعر الوحيد الذي قرأته، فكانت أشبه بجزء تافه من المخاط المجفَّف بدأت بالمقطع الثنائي: *ها هو الربيع هنا، فابتهج!* لقد نسيتَ لحسن الحظ باقي القصيدة، لكنك تتذكر تمام التذكر ما اعتلج

فيك من سعادة وأنت تنظم ما كان أسوأ قصيدة كُتبت على الإطلاق، وما من شكّ أنها ما زالت الأسوأ، إذ كان الوقت من السنة مَطْلَعَ الربيع فعلًا، وكان مزاجك طَرِبًا نَشْوانًا وأنت تمشي وحيدًا على العشب النّامي جديدًا في متنزّه اجروف (Grove)، فخالَجَتْكَ حاجةٌ إلى التعبير عن هذا الانتشاء بالكلمات، بكلمات تكتبها مسجوعَةً أو مُقفَّاة، وإنه لمن المؤسف أن قوافيك كانت جِدّ جدباء، غير أنّ ما أَهَمَّك لم يكن سوى الباعث والجهد والحسّ السّامي بِمَنْ كُنْتَهُ، وبعمق شعورك بانتمائك إلى العالم الذي أحاط بك وأنت تتقدم ببطء بقلمك على الورقة فتستخرج أشعارك التّعيسة بكلّ مشقة. وكنتَ في الربيع هذا نفسه شَرَيْتَ لأول مرة في حياتك كتابًا بأموالك، وكان كتابًا راقبته أسابيع وشهورًا قبل شرائه، غير أنك احتجتَ إلى بعض الوقت حتى استطعت ادّخار المطلوب من المال (الرقم الذي تتذكره هو ثلاثة دولارات وخمسة وتسعون سنتًا) كي تمشي إلى البيت مجددًا حاملًا نسخة المكتبة الحديثة الضخمة من القصائد والقصص الكاملة لإدچر آلن پو. لقد استصعبت كثيرًا پو هذا أيضًا، إذ لم يكن دماغك ذو السنين التسع بعد متحضِّرًا كفايةً كي يستوعب كاتبًا منمَّقًا ومعقَّدًا كهذا، لكن حتى لو لم تفهم سوى القليل من ما قَرَأْتَهُ فإنك أحببتَ جَرْسَ الكلمات في ذهنك، وأحببتَ غلاظة اللغة والكآبة الغريبة التي تَخَلَّلَت جُمَل پو الطويلة وشديدة التنميق (الپاروكية). ثم تلاشى غالب الصعوبات في خلال سنة، ولمّا صرتَ في العاشرة أَتَيْتَ على اكتشافك التالي المهم: شرلوك هومز. لقد كان هومز وواتسن الرفيقين العزيزين لساعاتك التي قضيتها وحيدًا، فكانا زوجين غريبين من الدكتور **الحس المشترك المُمِلّ** ومستر **الفَهّامة الشاذّ**، ومع أنك تابعت تفاصيل قضاياهما العديدة بانتباهٍ شديد، فإن أكثر ما أَلَذَّكَ كان محادثاتهما، أعني هذا الأخذ والردّ المنعش الذي جرى بين شخصين اختلفا في الإدراك والحَسَّاسية، فكان واحدًا من أمثلته شَدَهَكَ كثيرًا على وجه الخصوص وقَلَب بكل عنف جميع ما تعلمت تفكيرَه عن العالم حتى ذلك الوقت، حتى ظلّ ما كُشِف لك حينها يُقلقك ويتحداك سنينًا تالية: كان رجل العلم العملي واتسن يخبر هومز عن النظام الشمسي، وهو النظام الشمسي نفسه الذي عانَيْتَ جِدّ المعاناة حتى فهمته في صغرك، فشرح له أن الأرض وسائر الكواكب تدور حول الشمس بانتظام ودقّة، فأخبره من فوْرِه هومز المتعجرفُ والمُتَقَلِّب وأبو العُرَيِّف أنه لا يهتمّ بتعلُّم مثل

هذه الأشياء، وأن معرفةً كهذه لا تعدو كونها مضيعة تامّة للوقت، وأنه سيفعل كل ما في وسعه لنسيان ما أُخبر به توًّا. وأنت إذ كنتَ لمّا قرأتَ هذه الفِقرة صبيًّا ذا عشر سنين في صفّه الرابع، ولعلك كنت ذا إحدى عشرة سنة وفي الصف الخامس، لم تسمع أحدًا قطّ من قبل يُحاجِج ضدّ السعي إلى التعلُّم، وبخاصة شخصٌ من مقام هومز، هذا الرجل الذي كان معترَفًا به كأحد أعظم مفكّري القرن، ثم ها أنت تجده هنا يخبر صديقه أنه لا يهتم. أما في عالمك فكان مفترَضًا منك الاهتمام، ومفترَضًا الاعتناء بكل ميادين المعرفة البشرية، فتدرس الرياضيات كما تدرس فنّ الخط، وتدرس الموسيقا كما تدرس العلوم، أما محبوبُك هومز فكان يعارض هذا قائلًا لا، وإن من الأشياء ما يفضل الآخر أهمية، وإن على غير المهم أن يُطَّرَح ويُنسَى ما دام لا يفيد في شيء سوى بلبلة ذهن المرء بجُذاذتٍ عقيمٍ من *اللا شيء*. ثم مرّتِ السنونُ ووجدت نفسك تفقد الاهتمام بالعلم والرياضيات، فاسترجعت كلمات هومز واستعملتها دفاعًا عن لا مبالاتك بمثل هذه المواضيع، وهو لا شك موقف أحمق لكنك تَبَنَّيْتَه على أي حال، ولعل هذا دليلٌ آخر على أن أدب الخيال قد يُسَمِّم العقل فعلًا.

كان أشهر عَلَمٍ من جانِبك من العالم هو تومس إدسن، وكان مرّ على موته ستة عشر عامًا فقط عندما وُلِدت، وكان مختبره في وِست أورنج، وهذه لم تكن بهذا البعد من منزلك في ساوث أورنج المجاورة، ولأنه حُوِّل إلى متحف بعد موت المخترِع، أي إلى معلَمٍ وطني، فإنك زرته مراتٍ كثيرة في رحلاتٍ مدرسية عندما كنتَ صبيًّا، فقدمتَ الإجلال اللازم بكلّ وَقَار لساحر مِنْلو پارك[1] الذي كان مسؤولاً عن ألف اختراع، منها المصباح المتوهّج والفُنوچراف (الحاكي) والسِّينما، وهذا الاختراع الأخير هو الذي جعل إدسن في نظرك أحد أهمّ البشر الذي عاشوا على الإطلاق، والمخترع الأفضل في التاريخ البشري. ثم يؤخذ الزوّار بعد جولة في المختبر خارجًا إلى مبنًى يُدعى ابلاك ماريا، وهو كوخ من ورق القَطِران كان استديو الأفلام الأول في العالم، وفيه شاهدت أنت وزملاؤك عرْضًا لفلم *سرقة القطار العظمى* [1903] الذي كان أول فلمٍ روائيّ طويل. شعرتَ حينها أنك دخلتَ إلى قلبِ مُعتكَفِ العبقرية، إلى الحَرَم

(1) منلو پارك Menlo Park هو اسم مختبر إدسن، وهو اسم المنطقة التي يوجد فيها في انيوجرسي. [المترجم]

المقدس. وصحيح أن شرلوك هومز كان مُفكِّرَك المفضل آنذاك، ومثالًا أشْوَسَ على النزاهة الفكرية، وهو الذي كشف لك عن معجزة وقوة الاستنباط العقلي والنَّسَقِيّ، لكنه لم يكن سوى أمرٍ ملَفَّقٍ وكائنٍ ابتدعه الخيال فلم يوجد إلا في الكلمات، أما إدسن فكان رجلًا حقيقيًّا من لحم ودم، ولمّا كانت مخترعاته أُبْدِعَتْ في مكان قريب جدًّا من مكان عَيْشِك، بل في مكان يكاد يُجَاوِرُ بيتَك، شعرتَ بارتباط خاص به، وبسَوْرَةٍ فريدة من الإعجاب، هذا إن لم تكن عَبَدْتَهُ عبادةً صريحة تامَّة. ثم إنك قرأتَ في الأقل سيرَتَيْن ذاتيتين عن بطلك قبل بلوغك العاشرة (كانت الأولى كتابًا من دار لاندمارك، والأخرى من الكتب البرتقالية التي تحتوي على رسومٍ مظلَّلة)، وشاهَدتَ بَثَّيْنِ تلفزيونِيَّيْن للفِلمَين اللذين أُنتِجَا عنه، وهما *تومس إدسن اليافع* (مع مِكِي روني)، والآخر *الرجل إدسن* (مع اسبنسر تريسي)، وكنتَ توَهَّمْتَ ـ لسبب تجده الآن منافيًا للمعقول ـ وجود شيء مميز في حقيقة أن يوم ميلادك ويوم ميلاد إدسن كانا في بداية فبراير، وأهمّ من هذا أنك وُلِدت بعد إدسن بمئة سنة بالضبط (إلا أسبوع). غير أن أفضل وأهم ما رَسَّخ علاقتك به حتى أحالها قرابةً من أعمق ما يكون، كان اكتشاف أن الرجل الذي حلق لك شعرك كان يومًا ما الحلاق الخاص بإدسن، فكان اسمه روكو، وهو شاب قصير استخدم مقصّاته ومِشْطَه في متجر جاوَرَ جانب حَرَم جامعة سيتون هول التي لم تبعد عن بيتك إلا ببضعة مبانٍ. كانت هذه منتصف وأواخر الخمسينيات، وهي حقبة الشعر القصير وقَصَّة البَحَّارة،[1] وحقبة الكنادر البيض والجوارب البيض وحذاء السَّرج،[2] وحقبة الأحذية الرياضية المريحة من شركة كِدْز Keds، وبناطيل الجِنْزِ المتيبّسة والمشدودة جدًّا، ولمّا كنتَ تتبع تسريحةَ شعرٍ قصيرة على شاكلة كل فتًى آخر تقريبًا في ذلك الوقت، كنتَ تتردد إلى الحلاق نحو مرتين في الشهر، وهذا ما يعني أنك كنتَ في كل أسبوعين تقريبًا من طفولتك تقعد على كرسيّ الحلاق روكو ناظرًا إلى نسخة كبيرة من صورة شخصية لإدسن معلَّقة على الحائط إلى يسار المرآة، كُتِب على زاويتها اليمنى بخطّ اليد ما يُقرَأ كذا: *إلى صديقي روكو: تتكون العبقرية*

(1) هذه أسماء قصات شعر يصعب إيجاد بديل مناسب لها بالعربية، لكنها تتميز بالشعر القصير واشتهرت أيما اشتهار آنذاك، الأولى اسمها flattop والثانية crewcut. [المترجم]

(2) Saddle shoes.

من 1٪ من الإلهام، و99٪ من العَرَق ـ تومس إدسن. لقد كان روكو هذا الرابطة التي وصلتك مباشرة بإدسن، فهاتان اليدان اللتان في مرة من المرات لمَسَتا رأس المخترع، ها هما تلمسان الآن رأسك، ومن ذا الذي يقدر على القول إن الأفكار التي احتوى عليها رأس إدسن لم تسافر إلى أصابع روكو، فلمّا كانت أصابعه تلمسك الآن كان معقولًا الافتراض أن رأسك الآن يتشرّب تلكم الأفكار؟ إنك لم تصدق أيًّا من هذا بالطبع، لكنك أحببتَ ادعاء تصديقك إيّاه، وكنتَ كلما تقعد على كرسيّ روكو تستمتع بلعب لعبة تناقل الأفكار السحري، كما لو كنتَ الوريث الشرعي لعقل إدسن، أنتَ الذي كان مقدَّرًا لك أن لا تخترع شيئًا، وأنت الذي لن تُبْدِيَ أصغر مَيْلٍ إلى الميكانيكيّ من الأمور حتى بعد سنين. ثم كان ما أدهشك، إذ أعْلَمَكَ والدك يومًا ما أنه عمل في مختبر إدسن بعد التخرّج في الثانوية، وكانت هذه أول وظيفة له بدوام كامل في عام 1929، وهو واحد من الشباب الآخرين الكُثُر الذين كَدُّوا تحت إشراف السيد في مِنلو پارك. هذا كل شيء [أخبرك والدك عنه]، لعله كان يحاول إغناءك عن سَوْرَة المشاعر بإخفاء باقي القصة عنك، لكن حقيقة أن إدسن كان جزءًا من تاريخ عائلتك، وهو ما يعني كونه جزءًا من تاريخك أنت أيضًا ـ لقد فاقت هذه الحقيقة وحدها سريعًا أصابع روكو في كونها أهمّ ما يربطك بالرجل العظيم. لقد كنتَ فخورًا بوالدك أيّما افتخار، ولا شك أن هذه المعلومة التي أخبرك بها عن نفسه كانت الأكثر جوهريّةً على الإطلاق، ولم تَكِلّ قطّ من نقلها إلى أصدقائك. *لقد عمل والدي عند تومس إدسن*: وهذا ما يعني، كما تَخَالُ الآن، أن والدك الصَّمُوت والمنعزل عادَ لا يكون شِفْرَةً سرية تامة في نظرك، بل صار شخصًا ما فعلًا، إذ قد ساهم قبل كل شيء في العمل الأساسي لجعل العالم مكانًا أفضل. ثم مرّت السُّنون فصرتَ في الرابعة عشرة حتى أخبرك والدك بالنصف الآخر من القصة، وفحواها أن العمل مع إدسن لم يَدُم إلا أيامًا معدودة كما صرتَ تعلم الآن، ولم يكن هذا لأن والدك لم يُبْلِ جيدًا، بل لأن إدسن علم أنه كان يهوديًّا، ولمّا كان محرَّمًا على اليهود الدخول إلى ضواحي مِنْلو پارك، استدعى العجوز والدك إلى مكتبه فطرده فورًا. فثَبَتَ في النهاية أن محْبُوبَكَ كان متزمّتًا ومعاديًا لليهود مملوءًا بالكراهيّة، وهذه كانت حقيقة معروفة جيدًا لم تُضَمَّن في أيٍّ من الكتب التي قرأتها عنها.

مع هذا فإن الأبطال الأحياء قد بسطوا نفوذهم عليك أكثر من ما فعل الأموات

منهم، بل حتى من شخصيات مُنِيفة كإدسن وأبرَهام لِنْكِن وداود الراعي الشاب الذي قتل جالوت الجبار بحَجَرٍ واحد لا أكثر. وقد أرَدتَ مثل كل الصِّبْية أن يكون والدك بطلًا، لكن تعريفك للبطولة كان آنذاك ضيّقًا جدًّا فلم يسمح لوالدك بأن يشغل مكانًا بين كَوْكَبة الأبطال اللامعين، إذ ارتبطت البطولة في ذهنك بالبسالة في المعارك، وبالنحو الذي يتصرف عليه شخص ما في قلب الحرب، فكان والدك أصلًا مستثنًى من الاعتبار لأنه لم يقاتل في الحرب، وبها أعني الحرب العالمية الثانية التي لم تنتهِ إلا قبل ولادتك بثمانية عشر شهرًا، أما آباء أصدقائك فكان غالبهم جنديًّا خدم القضية بشكلٍ أو بآخر، ولمّا كانتِ العصابة الصغيرة التي انتَمَيتَ إليها تجتمع لتصوير معاركَ خياليةٍ في الحدائق الخلفية للضواحي التي سكنتم فيها، وكنتم تتظاهرون أنكم تقاتلون في أوربا (ضد النازيين) أو في جزيرة ما في المحيط الهادي (ضد اليابانيين)، كان أصدقاؤك يحضرون غالبًا ومعهم قطع مختلفة من المعدات العسكرية مَنَحهم إياها آباؤهم (كالخُوَذ، والمَزَاوِد،[1] والكؤوس المعدِنية، والأحزمة المجهّزة بمواضع للخراطيش، والمناظير) حتى تبدو اللُعب حقيقية أكثر، أما أنت فلم تحضُر مرةً إلا وكنتَ خالِيَ اليدين. ثم عَلِمتَ لاحقًا أن والدك كان أُعفِيَ من الخدمة العسكرية لأنه كان يعمل في البَرق (التلغراف)، وهو ما عَدَّته الحكومة أمرًا جوهريًّا لجهود الحرب، لكنك شعرتَ دائمًا بأن هذا عذر واهٍ، لكن الحقّ أن والدك كان أكبر سنًّا من سائر الآباء، فكان أصلًا في الثلاثين عندما دخلت أمريكا إلى الحرب، وهذا ما يعني أنه كان سيُمنَع من التجنيد أيًّا ما كانت الحال. لم تكن إلا في الخامسة والسادسة والسابعة عندما مثّلتَ دور الجندي وأنت تلعب مع أصدقائك، فكنتَ أصغر كثيرًا من أن تفهم موقف والدك في أثناء الحرب، لذا طفقتَ تسأله ما تفسير افتقاره إلى أي معدات يمكنه إقراضك إياها، ولعلك كنت تثقل عليه وتضايقه بسؤال كهذا، فلمّا عجز والدك عن إخبارك أنه لم يخدم في الجيش (أكان يشعر بالخزي، أم تراه شعر ببساطة أن هذا قد يخيّب آمالك؟)، لَفَّقَ أُحبولةً قاصدًا منها إرضاء أمانِيِّكَ، ولعله فعل هذا أيضًا كي يرفع من قيمة نفسه في ناظرك فيُرَى كالبطل، غير أن حِيلَتَهُ هذه ارتَدّت عليه بنتيجة عكسية فانتهت إلى حَمْلِك على الخيبة، تمامًا مثلما خاف والدك من تخييب أملك بإخبارك بالحقيقة. ثم جاءت

(1) الوعاء الجلدي الذي يوضع فيها الماء وغيره من السوائل، كالقِربة. [المترجم]

ليلةٌ فتَسَلَّل إلى غرفتك لمّا استلقيت على سريرك للنوم، فظَنّ أنك نائم ولكنك لم تكن كذلك فعلًا، إذ كانت عيناك مفتوحتين، فظَلَلْتَ صامتًا ترقُب والدك وهو يضع غرضين أو ثلاثة أغراض على مكتبك ثم يغادر غرفتك ماشيًا على أطراف أصابعه، فجاء النهار لتكتشف أن الأغراض كانت نماذِجَ لمعدات عسكرية، لا تقدر الآن إلا على تصوُّر واحد منها يقينًا: كان مِزْوَدًا معدِنيًّا عتيقًا مغلَّفًا بقماش أخضرَ ثخين. ثم أخبرك والدك في أثناء الفطور أنه نَبَّشَ عن بعض أغراضه القديمة من الحرب، لكن هذا لم ينطَلِ عليك فيخدعك، إذ علمتَ يقينًا أن هذه الأشياء لم تكن تخصّه أبدًا، وأنه ابتاعها في المساء السالف من متجر يبيع ما فاضَ من معدات الجيش، ومع أنك ظللتَ صامتًا مُدَّعِيًا السرور بهداياك، فإنك كرهتَ والدك لكذبه عليك هكذا، لكنك الآن وبعد مرور كل هذه السنين، لا تشعر إلا بالشفقة.

كان على النقيض يوجد مرشِدٌ في المخيَّم الذي حضرتَ فيه أيام الصيف عندما كنتَ في الخامسة، وهو شاب يُدعَى لِني لم يُجاوِزِ الثالثة أو الرابعة والعشرين، فكان الأولاد الذين أشرف عليهم جميعهم يحبّونه، وكان ذا بنية نحيلة، ومضحِكًا، وودودًا، ويعارض بكل حَزْمِ القسوة في الانضباط، ولم يَجِئ إلى مسكنه في انيوجرسي إلا مؤخَّرًا بعد أن خدم كجندي في كوريا. كنتَ تعلم بوجود حرب تُخاض في كوريا، لكنك جهلتَ التفاصيل تمامًا، وكل ما تتذكره أن لِني لم يتكلم عن تجاربه في القتال قطّ، بل كانت أمك مَنْ أخبرك عنها، ولم تكن إلا في سنّها السابعة والعشرين، فهي من أتراب لِني إذن. كان جاء مساءٌ مرَّةً قَدِمَتْ فيه لتأخذك من المخيّم، فبينما كنتَ تجمع أغراضك تداولت هي ولِني حديثًا، ثم لما طفقتما راجعين في السيارة إلى المنزل معًا رأيت مدى ما كان يلوح عليها من انزعاج، فكانت مهزوزةً أكثر من أي مرة أخرى تتذكرها (وهذا بالتأكيد ما يفسّر عدم نسيانك ألبتة هذا الحادث بعد كل هذه السنين)، بدأت تخبرك عن قضمة الصقيع، وعن البرد الذي لا يُحتَمَل في فصول الشتاء الكورية، وعن الجِزَم غير الملائمة التي كان يلبسها الجنود الأمريكيون، وكانت جِزَمًا سيئة التصميم لا تفعل شيئًا كي تحمي أقدام جنود المشاة، مسبّبةً لها قضمة الصقيع التي كانت تصيب أطراف أصابع القدم بالتسوُّد وتقود غالبًا إلى استئصالها. ثم قالت إن لِني، لِني المسكين، عانى من هذا كله، فلمّا كانت تشرح لك أمك هذا أدركْتَ أن يَدَيْ

لِني عانتا من البرد أيضًا، إذ كنتَ لاحظتَ أن شيئًا بدا على أعلى مفاصل أصابعه مخالفًا للمعتاد، فكانت أصلَبَ وأملأَ بالتجاعيد مقارنةً بأصابع البالغين العادية، وقد فهمتَ أن ما ظننته خللًا جينيًّا من نوع ما كان نتيجة الحرب. لقد أُعجِبْتَ بِلِني أيمّا إعجاب دائمًا، لكنه الآن عَلَا في تقديرك حتى صار بمرتبة إنسانٍ سامٍ.

إنْ لم يكن والدك بطلًا في ناظرك، وإن لم يكن له أن يكون بطلًا، لم يعنِ هذا أنك تخلَّيْتَ عن البحث عن أبطال. لقد مَثَّل لك الممثل والسباح الأولمبي بَسْتر اكْراب وغيره من رعاة البقر في الأفلام نماذِجَ مبكرة، فصاغوا لكَ معًا ناموسًا للشرف الرجولي تدرسه وتقتدي به، وصار مثالَكَ الرجلُ الذي، مع قلَّةِ كلامه، يردّ بكلّ جرأة وبراعة عندما يضايقه شيء ما، والذي يُسانِدُ العدالة وكلُّه رِفْعَةٌ تُنكر ذاتها حياءً، والذي كان مستعدًّا للمخاطرة بحياته في الصراع الدائر بين الخير والشر. ولا يعني هذا أن النساء لا يمكنهن أن يَكُنّ من الأبطال، إذ إنهن قد يُظهرن من الشجاعة في بعض الأوقات ما يفوق شجاعة الرجل، لكنهن لم يكنّ قطّ الأمثلة التي تحتذي بها، وما كان هذا إلا لأنك كنت صبيًّا ولست فتاة، وكان مصيرك أن تكبر فتصير رجلًا. ثم لمّا صرتَ في السابعة فسحَ رعاةُ البقر المجالَ للاعبين الرياضيين، وبخاصة لاعبو كرة القاعدة وكرة القدم الأمريكية، ومع أنه يحيّركَ الآن أنك لا بد كنتَ تظن آنذاك إمكان أن يعلّمك احتراف ألعاب الكرة أي شيء متعلق بِعَيْش حياتك العَيْش المطلوب، فإن واقع الحال كان كما ترى، فحتى أنت الآن صرتَ رياضيًّا فَتِيًّا شَغُوفًا، صَبيًّا حوّل كل هذه التسالي إلى ما يُعَدّ مركز وجوده، ولما رأيتَ كيف كان أداء العُظَماء وهم تحت ضغط اللحظات الحرجة في المدرّجات المزدحمة بخمسين أو ستين ألف إنسان، شعرتَ أنهم كانوا أبطال عالمك دون منازع، فمن الشجاعة في الأوقات الحرجة إلى المهارة فيها، والقدرة على تمرير رَمْية سريعة تخترق حائطًا دفاعيًّا منيعًا فتصل إلى اللاعب المُتَلَقِّي، أو تمرير رمية جانبية سريعة مزدوِجة تليها أخرى أمامية نحو خلف وسط الملعب ووَطِيس الجَولة في أحمى حالاته، وتفضيل الشجاعة الجسدية الآن على السموّ الأخلاقي، أو ربما الفضائل الجسدية التي يُعَبَّر عنها في السمو الأخلاقي ـ ولكن كذا كانت الحال مرة أخرى، فظَلَلْتَ تتعهَّد مواضع إعجابك هذه على طول سنين صِبَاك الوسيطة. وكنتَ قبل بلوغك الثامنة كتبتَ أول رسالة يكتبها المعجَبون فدعوتَ

فيها لاعب الظهير الخلفي أوتو اڠرام لفريق اكليڤلند ابراونز إلى حفلة يوم ميلادك القادمة في انيوجرسي، وهذا كان أفضل لاعبي كرة القدم الأمريكية المحترفين في زمانه، وقد فاجأك مفاجأة أبدية أن اڠرام أرسل إليك رسالة كَرَدٍّ مكتوب بالآلة الكاتبة على الأدوات الكتابية الرسمية لفريق اكليڤلند ابراونز، وغنيٌ عن البيان أن اڠرام رفض دعوتك مخْبرًا إياك عن التزاماته الأخرى في الصباح الذي ستكون فيه حفلة يوم ميلادك، لكن لُطْفَ ردِّه كَفَى كي يُخفف من حُرقة خيبة الأمل، إذ إن جزءًا منك ظلّ معتقدًا أن اڠرام قد يحضر فعلًا حتى لو كنتَ عارفًا أن هذا أمر قليل الإمكان، وقد مَثَّلَتَ مشهد حضوره مئات المرات في رأسك. ثم مرّ عددٌ من الشهور فكتبتَ إلى بوبي إس، وكان هذا قائد ولاعب الظهير الخلفي لفريق كرة القدم الأمريكية المحلّي للمرحلة الثانوية، فأخبرته عن رأيك به كلاعب رائع، ولمّا كنت صغيرًا جدًّا آنذاك، وأعني بهذا أن رسالتك لا بد كانت تكاد تكون سخيفة، ومملوءة بالأخطاء الإملائية والتحريفات السفيهة لبعض الألفاظ، كَلَّف بوبي نفسه عناء الكتابة ردًّا على رسالتك، وما من شك أنه تأثر لمّا علم بوجود معجَبٍ بهذا الصِّغَر، فلمّا كان موسم كرة القدم قد انتهى دعاكَ إلى مباراة كرة سلّة كي تكون ضَيْفَه (كان يلعب كرة القدم في الخريف، وكرة السلة في الشتاء، وكرة القاعدة في الربيع، فيا له من نجم لثلاث رياضات!)، وأرشدك أن تنزل إلى أرضيّة الصالة في أثناء تمرينات الإحماء كي تعرِّف بنفسك، ففعلتَ ما أخبرك، ومن ثَمّ وجد بوبي إس لكَ مكانًا على مقعد اللاعبين البُدَلاء حيث شاهدت المباراة مع الفريق. لم يكن بوبي إس حينها إلا شابًا في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، فهو مجرد مراهق، لكنه في نظرك كان رجلًا راشدًا تام الرُّشد، وعملاقًا، كسائر لاعبي الفريق. لقد شاهدتَ المباراة في غشاوةٍ من السعادة، قاعدًا في صالة المدرسة الثانوية القديمة تلك التي بُنِيَت في عشرينيات القرن، فكنتَ في الآن عينه مزعوجًا من ضجيج الجماهير من حولك ومُنَشَّطًا به، وكُلّك دهشة من جمال قائدات التشجيع اللواتي جِئنَ يتبخترن ويرقصن على الأرضية في أثناء فترات الاستراحة تشجيعًا لرجُلك بوبي إس، الذي لولاه ما كان كل هذا أُتِيح لك، لكنك في ما تعلّق بالمباراة نفسها لا تتذكر شيئًا، ولا حتى تسديدة واحدة أو ضربة مرتَدّة أو تمريرة مُختَطَفة ـ كل ما تتذكره وجودك في الصالة حَاسًّا بفرح عارمٍ لقعودك على

مقعد البدلاء مع فريق المدرسة الثانوي، وشاعرًا كما لو كنتَ قفزتَ إلى صفحات إحدى روايات اتْشِب هِلتن [الرياضية للمراهقين].

لقد كان رُوي بي، وهو صديق لعائلتك، لاعبَ قاعدة ثالثة[1] لنيوآرك بيرز، وكان هذا فريقًا أسطوريًّا من الدوري الثانوي شكّل في مرة من المرات جزءًا من تنظيم نيويورك يانكيز Yankees. لم ينجح رُوي قطّ في الالتحاق بالدوريات الأساسية، وكان يُلقَّب حينها باسم «وُوبس» لأنه دائمًا ما صاحَ بهذه الكلمة عندما ارتكب خطأً ما في الملعب، ومع هذا فإنه تَبارى مع عدد كبير من لاعبي دوري النجوم المستقبليين، ولمّا كان الجميع قد أَحَبَّ هذه الـ«ووبس» السريعة والمنفعلة، فقد ظلّ رُوي على اتصال بكثير من أصدقائه القدماء لاعبي كرة القاعدة، وكان رجلًا رياضيًّا قصيرًا ومُكتنِزًا امتلك متجر تخفيضات لملابس الرجال في شارع 22 [الرئيس المارّ من الغرب إلى الشرق عبر وسط انيوجرسي]. لقد كان له ولزوجته دُوْلِي ثلاثة أطفال كلهم بنات، ولم تملك واحدة منهن أي اهتمام بكرة القاعدة، ولمّا كان رُوي يعرف مدى اهتمامك بهذه اللعبة باعتبارك لاعبًا ومعجَبًا معًا، اعْتَنَى بك كابنٍ بديلٍ أو كابن أخ، وعلى أي حال كَفَتَّى يتشارك معه ماضيه الذي قضاه في كرة القاعدة، ثم رنّ الهاتف في ليلةِ يومٍ من أيام الأسبوع في ربيع عام 1956، قبل ذهابك إلى سريرك بقليل، ويا للعجب! إذ كان على الجانب الآخر من الخطّ فِلْ ريزوتّو، الاسكوتر[2] الوحيد بلا منازع، اللاعب الوحيد لليانكيز الذي شَغَل الموضع بين القاعدة الثانية والقاعدة الثالثة من ميدان الملعب ابتداءً من سنة 1941 وحتى تقاعده مبكّرًا في هذا الشهر من عام 1956، فسألَكَ إنْ كنتَ پول، أي صديق «وُوبس» الصبيّ، ثم قال متحدِّثًا بصوته المَرِح المشهور: لقد سمعتُ أنك لاعب استثنائي في داخل ميدان اللعِب، ولم أُرِدْ إلا أن أرحِّب بك وأخبرك بأن تحافظ على أدائك الجيّد. لقد فوجِئْتَ حينها فبالكاد عرفتَ ما تقول، إذ ذُهِلتَ وعُقِد لسانك فلم تستطع الإجابة عن أسئلته إلا بأجوبة من مقاطع صوتية واحدة، لكن هذه كانت محادثتك الأولى مع بطل شرعي، ومع أنها لم تَدُم أكثر من دقيقتين فإنك شُرِّفْتَ

(1) يحتوي ميدان ملعب البيسبول على ثلاث قواعد يجري مسارها عكس عقارب الساعة، وتشكّل مع موضع وقوف متَلَقِّف الكُرَة مربّعًا تامًّا. [المترجم]
(2) كذا لقبه: Scooter، وكذا اشتُهر. [المترجم]

بهذه المكالمة المفاجئة، وعُظِّمتَ بهذا الاتصال المقتضب مع رجل عظيم. ثم مرّ أسبوع أو أسبوعان فوصلت بطاقة بريدية عبر البريد، كان على صدرها صورة فتوغرافية ملوّنة تعرض ما كان داخل متجر «ووبس» للملابس، فكان مملوءًا برفوف تليها أخرى من بِذَلِ الرجال وهي تحت وَهج الأضواء الساطع، فكانت كأنها بِذَلٌ شبحيّة تخلو من الأجساد، وكأنها جيشٌ من المفقودين. أما على ظهر البطاقة فكانت توجد رسالة مكتوبة بخط اليد تقول: «عزيزي پول، أسْرِعْ واكْبَر، ففريق كردينالات القدّيس لويس[1] قد يحتاج إلى لاعب قاعدة ثالثة جيد. مع الإخلاص، استان اميوزْيَل (Stan Musial)». لقد كان فِلْ ريزوتو عظيمًا، ولاعبًا ممتازًا صارت مسيرته المهنية وراءه، أما امْيوزْيَل فكان واحدًا من الخالدين، وسجّل كضاربٍ على مدى الحياة (330.) من النقاط، وصُنِّف النّظيرَ الدوري الوطني لِلاعب تِدْ وِلْيَمز، إنه لاعب ما زال في ذِروته، الملقَّب بالرجل استان، الضارب القويّ الأعْسَر بوِقْفَته المنحنية ومضربه الذي يضارع بسرعته سرعة البرق، فتخيلته يتمشّى في أحد المساءات إلى متجر «ووبس» كي يسلِّم على صديقه القديم، ثم يطلب اليَقِظ «ووبس» من اميوزيل أن يكتب بضع كلمات لتَلميذه الصغير، *رسالةً للفتى*، وها هي الكلمات الآن بين يديك، فكان هذا شيئًا أشعرك كأن إلهًا تنزّل عليك فلَمَس جبهتك. ولكن لم يكن هذا كل شيء، إذ كان يوجد تصرُّف آخر في الأقل كلّه لُطفٌ من «ووبس» الطيّب، أعني عرضًا أخيرًا للسخاء الذي فاقَ كل الهدايا التي أغدقها عليك «ووبس»، فسَألَكَ يومًا: أستحبّ أن تقابل وايتي فورد؟ كان ما يزال هذا في سنة 1956، ولكن في منتصف تشرين الأول، أي بعد انتهاء نهائيّات كأس العالم بوقت قصير، فكانت إجابتك أنك بالطبع ستحب مقابلة وايتي فورد، نعم ستحب مقابلة وايتي فورد الذي كان الرامي الأساسي لفريق يانكيز الأبطال، والذي كان الرامي صاحب أعلى نسبة فوز في تاريخ اللعبة بأكملها، هذا القصير الأعسر الذي أنهى لتوّه أفضل المواسم التي لعبها، فأيّ عاقِلٍ سيرفض رؤية وايتي فورد؟ لذا رُتِّب الأمر كذا: سيتوقف «ووبس» ووايتي في مساء أحد أيام الأسبوع القادم قُبالة منزلك، في وقت ما بين الثالثة والنصف والرابعة، يعني في وقت متأخر كفايةً حتى تكون عودتك من المدرسة أكيدة، ولم تَدْرِ ما تتوقع، لكنك أَمَّلْتَ أن تكون الزيارة طويلة،

(1) ورد في النص باختصاره كذا: Cards، واسم الفريق St. Louis Cardinals. [المترجم]

وأن يقعد «ووبس» ووايتي معك في أرجاء الصالون لساعاتٍ عديدة تتحدثون فيها عن كرة القاعدة، وفي أثنائها سيُفصِح وايتي عن أدقّ وأسَرِّ أسرار فنّ الرَّمْي، وذلك أنه بالنظر إليك سينفُذ مباشرة إلى روحك ويفهم أنك كنتَ شخصًا أهلًا لأن تُحفَظ معك مثل هذه المعرفة المحرّمة حتى لو كنتَ صغير السن. ثم جاء اليوم المقرَّر فأسرعتَ إلى المنزل عائدًا من المدرسة، مع أنها كانت على مقربة من منزلك، ثم انتظرتَ وانتظرتَ لما يمكن أن يكون ساعة ونصف، لكنك شعرتَ أنها كانت أسبوعًا، فطفقتَ تجوب حانِقًا الطابق الأرضي وأنت وحيد تمامًا مع أفكارك، إذ كان والدك ووالدتك خارج المنزل في العمل، ويعلم اللّٰه أين كانت أختك ذات الأعوام الخمسة، لقد كنتَ وحيدًا في المنزل الصغير المكسوّ بالألواح الخشبية في إرڤنچ آڤنيو، فاستشرى بك القلق من المواجهة العظيمة، وطفقتَ تتساءل إن كان «ووبس» ووايتي سيحضُران فعلًا، خائفًا أنهما قد يكونان نَسِيَا الموعد، أو أنهما أُخِّرَا بظروف طارئة، أو قُتِلا بتصادم سيارة مع أخرى، ثم لمّا بدأتَ أخيرًا تيأس من أن وايتي فورد لن يطأ بقدمه منزلك أبدًا، رَنَّ جرس الباب، ففتحتَ الباب ووجدتَ على درجاته الأمامية «ووبس» البالغ طوله خمسة أقدام وستة إنشات، ورَامِي فريق اليانكيز البالغ خمسة أقدام وستة إنشات أيضًا، ولقيتَ على وجه «ووبس» ابتسامة عريضة تبعتها مصافحة وجيزة ولكنها ودودة من اللامع وايتي، فدعوتهما إلى الداخل لكن «ووبس» ووايتي (من المستحيل التذكر أي واحد منهما) قالا إن وقتهما كان ينفد وأنهما لم يمُرَّا إلا للتسليم عليك سريعًا، ففعلت أفضل ما لديك كي تخفي خيبة أملك متفهِّمًا أن وايتي لن يدخل إلى منزلك ولن يفصح لك عن المعرفة السرية في ذاك اليوم، وقف حينها ثلاثتكم لمدة لا تزيد على أربع دقائق، وهي بالأحرى مدة كانت كافية لإرضائك، وما من ريب أنها كانت لتكفِيك لولا أن بدأتَ تشكّ أن وايتي فورد الواقف على درجات منزلك الأمامية لم يكن وايتي فورد الحقيقي، نعم كان بالحجم المناسب، وكان لصوته لهجة حيّ اكوينز الصحيحة [في نيويورك]، ولكن بدا على وجهه شيء يختلف عن الصور التي رأيتها له، إذ كان أقل وسامةً بنحوٍ ما، وكانت خدوده النَّاهِدة أقل نهودًا من ما كان ينبغي لها، ومع أن شعره كان أشقَرَ كشعر وايتي، فإنه كان حليقًا حِلْقَةً قصيرة جدًّا، في حين أنك كنتَ ترى شعر وايتي في كل صوره أطولَ ومُمَشَّطًا تمشيطة پومپادور ولكن بصورة معدَّلة نوعًا ما.

ظلَلتَ تتساءل إن كان وايتي فورد الحقيقي قد تراجع عن الزيارة، فلمّا أراد «ووبس» تجنُّب خِذلانك أنتَجَ لك هذه الصورة المقبولة إلى حد ما عن وايتي كبَدِيل. ثم بدأتَ كي تخلع شكوكك عن نفسك تسأل وايتي أو لا ـ وايتي أسئلةً عن ما أحرز من نقاط في الموسم الماضي، فأجابك: تسع عشرة وستّ نقاط، وهو ما كان الجواب الصحيح، ونقطتان فاصلة أربعة سبعة، وهو ما كان الرقم الصحيح أيضًا، ولكنك مع ذلك عجزت عن التخلص من فكرة أن لا ـ وايتي فورد هذا قد يكون استعدّ في المنزل قبل مجيئه حتى لا يتعثّر بفتًى مُتَذاكٍ مثلك ما زال في التاسعة، ولمّا أبدى يُمناه كي يصافحك بقصد الوداع، لم تكن متأكِّدًا إنْ كنتَ تصافح يد وايتي فورد أو يد فلان آخر. ما زلت تجهل هذا. لقد كانت هذه المرة الأولى في حياتك التي تختبر فيها شيئًا يرمي بك في حيّزٍ مطلق من الالتباس. كان سؤالًا أُثِيرَ فظلّ بلا جواب.

ينبغي أن لا يُتَغاضى عن الملل باعتباره مصدرًا للتأمل وأحلام اليقظة، عن مئات الساعات هذه التي ألْفَيْتَ فيها نفسك وحيدًا وأنت في سنين صِبَاك المبكِّرة، عادِمًا الحماسة، ومهمومًا، وفاترَ الهِمّة ومُشَتَّت الفكر فلا تريد اللعب بشاحناتك وسياراتك الصغيرة، ولا مكابدة عناء ترتيب رعاة البقر والهنود الحمر المُصَغَّرين الخاصين بك ـ أعني هذه الأجسام البلاستيكية الخضر والحمر التي كنت تنثرها على أرض غرفتك حتى تبعث بها إلى حَملاتٍ ومَكَامِنَ خيالية ـ، ولا حتى البدء ببناء شيء باستخدام «جذوع شجر لِنكِن» أو «مجموعة الْبَانِي»[1] التي امتلكتها (وأنت لم تحبّها قطّ على أي حال، ولا شك أن منشأ هذا كان افتقادك المهارة في الأشياء الميكانيكية)، ولم تشعر بنُزُوع إلى الرسم (الذي كنتَ فيه أيضًا أخْرَقَ كثيرًا، ولم تجد فيه كثيرَ مُتعةٍ) أو البحث عن أقلام التلوين الشمعية الخاصة بك كي تملأ صفحة أخرى من كُتَيِّبات التلوين التافهة التي كانت لديك، ولمّا كانت تُمطِر خارجًا أو كان الجو أبْرَدَ من أن يسمح لك بمغادرة المنزل، كنتَ تضنَى وتذبل في بلادَةٍ حزينة ونَكِدَة، وأنت ما زلتَ صغيرًا جدًّا على القراءة، وأصغر من أن تتصل على أحد ما بالهاتف، متعطِّشًا إلى صديق أو

(1) يشير هنا إلى ألعاب أمريكية للأطفال اشتهرت آنذاك، فالأولى مثلاً كانت مكوّنة من مجموعة جذوع أشجار مصغَّرة تُرَكَّب بها الحصون والمباني وما إلى ذلك، اسمها Lincoln Logs، والأخرى Erector set. [المترجم]

زميل يلعب معك فيكون رفيقك، فكنتَ في غالب الأحيان تقعد إلى جانب النافذة وتشاهد المطر وهو ينزلق على الزجاج، متمنيًا لو أنك كنتَ تملك حصانًا، ويفضل لو كان من النوع بَلْمين (palomino) مع سَرْجٍ غربي مزخرف، ولو لم يكن حصانًا فدعه يَكُن كلبًا، كلبًا ذكيًا جدًّا يمكن تدريبه كي يفهم كل فرق طفيف نجده في الكلام البشري، ويهرول إلى جانبك وأنت تشرع في مهمّاتك الخطيرة لإنقاذ الصِّبْية الحَزانى، ولمّا كنتَ لا تحلم بشيء يتعلق بأمنيّتك لو أن حياتك كانت مختلفة، كنتَ تميل إلى الاستغراق في التفكير بالأسئلة الأزلية، وهي الأسئلة نفسها التي ما زلتَ تطرحها على نفسك إلى اليوم ولم تقدر ألبتة على الإجابة عنها، كسؤال: كيف وُجِد العالم؟ وما علة وجودنا؟ وكسؤال: أين يذهب الناس بعد موتهم؟ وحتى في سنّ صغيرة جدًّا كهذه كنت تسترسل في التخمين أن العالم كله ربما كان محجوزًا في وعاء زجاجي موضوع على رفّ إلى جانب العديد من الأوعية المحتوية على عوالم أخرى، وكلها في مخزنِ مُؤَنِ منزلِ عملاقٍ ما، وإن لم تفكّر في هذا فإنك كنتَ ـ وهذا مع أنه يستحيل تفنيده منطقيًّا فإنه أمر مدوِّخٌ أكثر من السابق ـ تخبر نفسك أنّه لمّا كان آدم وحواء أول البشر في العالم، إذن لا بد من وجود صلة قرابة تربط جميع الناس. ملل مَخُوف، وساعات طِوَال ووحيدة من التبلُّد والصمت، وصباحات ومساءات كاملة توقف فيها العالم عن الدوران من حولك، ومع ذلك ثَبتَ أن هذه الأرض الجرداء كانت أهمّ لك من غالب الحدائق التي لعبتَ فيها، ففي هذه الأرض علَّمتَ نفسك كيف تكون وحيدًا، وليس لذهن المرء أن يجري حرًّا طليقًا إلا عندما يكون وحيدًا.

ثم كان يحدث بين الفَيْنة والفَيْنة، بلا أي سبب ظاهر، أن تخفق في معرفة من تَكُون، فكان الأمر كما لو أن الكائن الذي كان يسكن في داخلك تحوَّل إلى شخص نَصَّاب، أو إلى لا أحد بالمرَّة كي أكون أدقَّ، ولمّا كنتَ تشعر بذاتيّتك تقطُر منك شيئًا فشيئًا، كنتَ تمشي متجوِّلًا في حال من التصدُّع الذهني المشدوه، غير واثق إن كنتَ في اليوم الفائت أو القادم، ولا واثقٍ إنْ كانَ العالم قُدَّامك حقيقيًّا أو من نسجِ خيالِ شخص آخر. لقد تكرَّر هذا كثيرًا بما يكفي في صِبَاك حتى منحتَ لحظات الشرود الذهنية هذه اسمًا. *ذُهول*، كذا قلتَ لنفسك: *أنا في حال ذُهول*، ومع أن هذه الفواصل الشبيهة بالحُلم كانت عابرة، ونادرًا ما دامت أكثر من ثلاث أو أربع دقائق، فإن غرابة الشعور بأنّك

تُجَوَّف هكذا من داخلك كانت تَعْلَق لساعات لاحقة، ولم يكن شعورًا جيدًا، لكنه لم يُخِفْكَ ولم يُزْعِجْك، وبقَدْر ما تعرف فلم يكن يوجد أي سبب يمكن تعرُّفه، لا الإجهاد مثلًا، ولا الإرهاق الجسدي، ولم تملك هذه الهُنَيْهات في غداتها ورواحها عليك أيّ نمط، إذ كانت تحدث سواء أكنت وحدك أم مع الناس. كان إحساسًا عجيبًا بأنك غطَتَّ في النوم وعيناك مفتوحتان، ولكن تظل عارفًا في الوقت نفسه أنك مستيقظ، واعيًا بمكانك، ولكنك بنحوٍ ما لستَ في المكان الذي تظنه ألبتة، كأنك تَعُومُ خارج نفسك، كأنك شبَحٌ بلا وزنٍ ولا مادّة، كأنك صَدَفَةٌ غير مسكونة من اللحم والعظم، كأنك لا أحد. استمرَّت حالات الذهول معك على طول مرحلة الصِّبَى، وحتى مرحلة بلوغك بقدرٍ جيد، فكانت تنتابُكَ مرةً كل شهرٍ أو شهرين، وأحيانًا قد تنتابك أكثر بقليل، وحتى الآن في سنِّك المتأخرة ما زال الشعور يُعَاوِدك مرةً كل أربع أو خمس سنوات، فيستمر لخمس عشرة أو عشرين دقيقة فقط، ما يعني أنك لم تشبَّ ألبتة تمامًا عن هذا الميل إلى التلاشي من وَعْيِك والاحتجاب عنه. لقد كان هذا جزءًا غامضًا ولا مبرِّرَ له، لكنه كان جزءًا أساسيًّا من الشخص الذي كنتَهُ، والذي ما زلتَهُ حتى الآن أحيانًا. لقد كانَ كما لو أنك كنتَ تنزلق إلى بُعْدٍ آخر، إلى تصور جديد للزمان والمكان، ناظرًا إلى حياتك بعينين مُرْسَلَتَيْن وسَادِرَتَيْن، أو كما لو أنك كنتَ تتدرّب على موتك، متعلِّمًا ما سيحدث لك عندما تَسْتَخْفي.

لا بدّ من إخراطِ عائلتك في هذا الأمر أيضًا: أمك، وأبيك، وأختك، مع تخصيص الانتباه لزواج والديك التعيس، إذ مع أن غايَتَكَ أن ترسم تخطيطًا لطرائق عمل ذهنك، وأن تنظر إلى نفسك معزولًا عن سائر الأشياء فتكتشف جغرافيَّةَ صِبَاك، فإن الحقيقةَ أنك لم تعش معزولًا، وكنتَ جزءًا من عائلة، عائلة غريبة، ولا شكّ أن لهذه الغرابة علاقة كبيرة بمَنْ كُنتَه وأنت صبيّ، ولعلها كانت الشيء الوحيد الذي كان وراء مَنْ كنتَهُ كصبيّ. لستَ تملك أي قصصٍ مرعبة كي تسردها، ولا حكايا مثيرة عن حوادث ضربٍ أو امتهان، ولكن لديك شعور دائمٌ وجُوَّانيّ بالحزن، ولقد كان حزنًا فعلتَ أفضل ما لديك لتتجنبه، بخاصة لمّا كنتَ صبيًّا ذا طَبْعٍ ليس بالتعيس صراحَةً، ولكنك لمّا كبِرْتَ كفايةً حتى تقارن وضعك بوضع سائر الأولاد الذين عرفتهم، عرفتَ أن عائلتك كانت عائلة محَطَّمة، وأن والدَيْكَ لم يكونا يعرفان ألبتة ما يفعلانه، وأن الحِصْنَ الذي يحاول

غالب الأزواج بناءه لأولادهم لم يكن أكثر من كوخٍ مُتَدَاعٍ، ولذا شعرتَ أنك كنتَ مكشوفًا للطقس العاصِف والممطر، غير حصينٍ وهَشٍّ، وهذا ما كان يعني أنك حتى تنجو كان لا غنًى عن أن تَخْشَوْشِنَ حتى تجد سبيلًا إلى القيام بشؤونك اعتمادًا على نفسك. أدركتَ أنه لم يكن يحقّ لوالديك أن يتزوَّجا، ولمّا بدأت أمُّك بالعمل وأنت في السادسة، نَدَر لوالديك أن يتلاقيا، ونَدَر أن يملكا أي شيء ليتحادثا فيه، فكانا يتعايشان في جَفَاءٍ من اللا مبالاة المتبادلة. لم تكن توجد أعاصيرُ أو تقاتل، ولم يتنافسا في الصراخ، ولم تكن توجد عداوة ظاهرة، فكلّ ما كان موجودًا هو ببساطة فِقْدانٌ للعاطفة عند كلا الطرفين، فكأنهما زَمِيلا زِنزانَةٍ صَدَفَ أن رُمِيَا معًا وهما يقضيان مدة حكمهما في صمتٍ مَقِيت. ولا شكّ أنك أحببتهما كليهما، وقد تمنَّيْتَ كلَّ التمنّي لو كانَتِ الأمور أفضل بينهما، لكنك كنتَ تفقد الأمل بتقادم السنين. كانا في غالب الوقت خارج المنزل، فعمل كلاهما حتى أوقات المساء، وكان المنزل يبدو خاليًا دائمًا، وكل هذا إلى جانب تجمّعات عشاءٍ عائلية قليلة، فلم تكن توجد إلا فرص قليلة كي تجتمعوا أَرْبَعَتُكُم معًا، وبعدما أصبحتما أنت وأختك الصغيرة في السابعة أو الثامنة، كانت تطعمكما غالبًا المربِّية، وهذه كانت امرأة سوداء تُدعى كاثرين، وكانت انضمّت إلى العائلة لمّا كنتَ في الخامسة، فظَلَّت جزءًا من حياتك سنينَ طويلة، واستمرَّت تعمل لوالدتك بعد أن تطلّق والداك وأعادت والدتك الزواج، وكنتَ ما تزال على تواصل معها حتى شيخوختها، فكان هذا لمّا تبادلتما الرسائل بعد موت والدك عام 1979، لكن كاثرين بالكاد كانت شخصًا يُظهِر صفات الأمومة، فكانت شخصيّة شاذة غريبة من مناطق ماريلَنْد (Maryland) النائية، وتزوَّجت عدة مرات كما تطلّقت عدة مرات، وكانت نَكِّيتَةً[1] مِهذَارة تشرب سِرًّا وتطفئ رماد سَجائرها من نوع كول (Kool) في راحَةِ يدها، فكانت أقرب إلى الرَّفِيقِ من أن تكون أمًّا بديلة، لذا غَلَب أن تكون أنت وأختك وحيدَيْن معًا. كانت أختك هذه قَلِقَة وواهِنة، فكانت تقعد إلى جانب النافذة تنتظر عودة أمك في ساعة محددة، فمتى ما تأخرت السيارة عن الاصطفاف في المدخل تمامًا في الدقيقة المتوقعة، كانت أختك تجهش في البكاء مقتنعةً أن أمك كانت ميتة، وبتصرُّم الدقائق كانت الدموع تؤول إلى نحيب شديد ونوبات هلع، وكان

(1) كثيرة قول النكات. [المترجم]

عليك أنت الذي لم تتجاوز الثامنة والتاسعة والعاشرة أن تفعل كل شيء تقدر عليه حتى تُطَمْئِنها وتُوَاسيها، ولكن نادرًا بلا جدوى، فأختك المسكينة التي كانت ضحية عائلتك الغريبة أكثر من ما كنتَهُ أنت قطّ، انهارت في النهاية عصبيًا وهي في بدايات عشرينياتها وقضت سنينَ تقترب من الجنون، وليست تزال اليوم متماسكة إلا بالأطباء وأدوية العلاج النفسي. إنك تعرف مدى ما كانت أمك عميقة التعاسة، لكنك تعرف أيضًا أن والدك أَحَبَّها بطريقته المتخبطة، أعني بقَدْر ما كان قادرًا على أن يحبّ أي أحد، لكنهما فشلا في الأمر، ولا شك أن كونك جزءًا من هذه الكارثة وأنت صبيّ جعلك تلجَأ إلى باطنك، فحوَّلك هذا إلى رجل قضى حِصَّةَ الأسد من حياته قاعدًا وحيدًا في غرفة.

لقد استغرقك الأمر بعض الوقت لتفهم أنه لم يكن الجميع يفكّر كما تفكر، ولتفهم وجود صِبْيَةٍ غاضبين وميّالين إلى التنافس كانوا يَنشطون في تمنّي الشرّ لك، ولتفهم أيضًا أنك حتى عندما كنتَ تقول الحقيقة، كان يوجد بعض الأشخاص الذين سيرفضون تصديقك، لا لشيء إلا لكونها مسألة مبدأ لديهم. ثم إنك كنتَ حسن الظن بالناس، وسليم النية، ودائمًا ما كانت بادِرَتُكَ معهم بظنّ الخير فيهم والأفضل منهم، وغالبًا ما كانوا يقابلونك بالمثل، وهذا ما قاد إلى كثير من علاقات الصداقة الحميمية عندما كنتَ صبيًا، ولذا صعب عليك بالذات أن تلتقي مصادفة بالفتى اللئيم النَّفْس العَارِض، أعني به الشخص الذي يرفض قواعد النزاهة التي عشتَ أنت وأصدقاؤك على وَفْقِها، والْتَذّ بالتنازع وذاتِ البَيْن التذاذًا بهما فقط لا لغاية أخرى. إنك تتحدث هنا على المَسْلَك الأخلاقي، لا عن الخِلَال المهذَّبة أو المنافع الاجتماعية للسلوك الكَيِّس، بل عن شيء أكثر أساسيةً من هذا، عن الأساس الأدبي الخُلقي الذي عليه يُؤَسَّس كل شيء، ودونه ينهار كل شيء. وفي رأيك لم يكن يوجد حَيْفٌ يفوق حَيْفَ أن يُشَكّ فيك عندما تقول الحقيقة، وأن تُدعى كَذَّابًا وأنت لا تكذب، إذ لم يكن يوجد أي ملاذٍ في هذه الحال، ولا أي طريقة للدفاع عن استقامَتِكَ في وجه مَنْ يَفْتري عليك، وكان ما تشعر به من إحباط بسبب مثل هذا الضَّيْم يتأجّج في داخلك، ويستمر بالتأجج حتى يستحيل نارًا لا تُطفأ أبدًا. حدث أول عِرَاكٍ خضته مع هذا النوع من الإحباط عندما كنتَ في الخامسة، في أثناء صيف الشاب البطولي لِنِي [الذي ذكرته سابقًا]،

وكان أصغر النزاعات الصغيرة مع فتًى في يوم التخييم الذي حضرته، بل كان من الصِّغَر بحيث يُعَدّ صغيرًا جدًّا بنحو باعث على السخرية، لكنك كنتَ فتًى صغيرًا حينها، وكان العالم الذي عشتَ فيه بتعريفه صغيرًا، وما الذي قد يحملك على تذكر هذا الحادث إنْ لم يكن لأنه بَدَا كبيرًا بالنسبة إليك آنذاك، وضخمًا بتأثيره، وبهذا لا تقصد أن تشير إلى النزاع نفسه، إذ كان تافهًا، إنما تقصد أن تشير إلى الغضب الشديد الذي شعرتَ به بعد ذلك، والشعور بالخيانة الذي استبدّ بك عندما قلتَ الحقيقة لكنك لم تُصَدَّق، لقد كانت الظروف، بِقَدْر ما تتذكرها، والحق أنك تتذكرها جيدًا، كما يلي: كان الصِّبْية في مجموعتك يُحَضِّرون لنوعٍ من المَوْكِب الهندي الذي سيُقَدَّم في آخر يوم من جلسة المخيم الصيفي، وكان من الأمور التي افترِض منكم تحضيرها أن تُنشِئوا خُشْخَيْشَة احتفالية للمناسَبة، وكانت تتألف من زخرفة علبة مسحوق التخمير من نوع كالْيُمِت (Calumet) بِدَهْنها بألوان مختلفة من الطلاء، ثم تُملَأ العلبة بحبات فول مجفَّفة أو بالحصى، وتُدخَل عصًا من خلال فتحة في أسفل العلبة حتى تعمل كأنها مِقْبَض، وكانت علبة الكاليمت حمراء كما تذكر، وعليها صورة جانبية بديعة لزَعِيم هندي تستغرق الواجهة، ثم إنك عملتَ بكل جِدّ في مشروعك هذا، نعم أنتَ الذي لم تُبْدِع قطّ في الفن، أما في هذه المرة فكانت النتيجة تفوق توقعاتك، فزخرفاتك المرسومة بالطلاء كانت مُتقَنة ودقيقة وجميلة، وشعرتَ بالفخر بما كنتَ أنجزته، وكانت الخُشْخَيْشة الاحتفالية التي عملتها من بين أفضل الخشخيشات التي أنجزها الصِّبْية في ذلك اليوم، هذا إن لم تكن أفضلها، لكن الوقت كان قد انتهى قبل أن يُضفي الجميع اللمسات الأخيرة على ما كان يعملونه، وهذا ما عَنَى أنه سيكون أول شيء يستأنفونه مجددًا في الصباح التالي. ولكن لقد فاتك اليوم التالي من المخيّم بسبب الزُّكام، ولعله فاتك اليوم الذي تلاه أيضًا، وعندما عدتَ أخيرًا كان اليوم الأخير، في صباح يوم الموكب الهندي، فطفقت تبحث شِبْرًا شِبْرًا عن تُحْفَتك الفنية، بيد أنك لم تجدها، فأدركتَ شيئًا فشيئًا وأنت تفتّش في كَومة الأغراض أن واحدًا من الصِّبْية سَرَقها في غيابك، فأخرج مُرشِدٌ (لم يكن لِنِي) خشخيشة من الصندوق وأخبرك أن تستخدمها كبديل، وغنيّ عن القول أنها خَيَّبَتْك، فهذه الخشخيشة البديلة سيِّئة ومهملة الصنع، ولا يمكن مقارنتها بالتي صنعتها، لكنك الآن عالق مع هذه القطعة المصنوعة

المُخرِجة التي سيفترض الجميع أنك زخرفتها بنفسك، ولمَّا تقدَّمتَ لتشارك في الموكب، وجدتَ نفسك تمشي إلى جانب صبيّ يُدعى مايكل كان أكبر منك بسنة، وكان على طول الصيف كلّه يستهزئ بك بكلّ مَكْرٍ، ويعاملك كأنك مغفَّلٌ جَهُول، وسفيه في سنِّه الخامسة، ولمّا رفعتَ الخشخيشة البشعة وأظهرتها لمايكل موضِّحًا له أنها لم تكن خشخيشتك، وأنك صنعتَ واحدة أخرى أفضل بكثير، كان أن ضحكَ عليك مايكل قائلًا: نعم بالطبع، هذه قصة معقولة! لكنك لمّا دافعتَ عن نفسك قائلًا: لا، لم تكن هذه الخشخيشة لي حقًّا، دعاكَ مايكل بأنك كذَّاب ثم أدار ظهره عنك. لعل هذه مسألة تافهة، ولكن ما كان أشدَّ ما تأجَّجتَ وغضبت حينها، وما كان أكبر إحباطك لمّا ظُلِمتَ بهذه الطريقة، وما كان هذا لأنك ظُلِمتَ فقط، إنما لأنك أدركتَ أنه لم يكن الظلم ليُصَحَّح أبدًا.

***

توجد حادثة أخرى من تلك السنين المبكِّرة تتعلق بشخص يُدعى دِنِس انتقل إلى بلدة أخرى عندما كنت في السابعة أو الثامنة فاختفى بذلك من حياتك إلى الأبد، وقد أثار اهتمامك أن هذه القصة أيضًا تدور حول مسألة متعلقة بالعدالة والإنصاف ومحاولة تصحيح خطأ أو تصويب مَظْلَمَة، مع أن الكثير والكثير من الحوادث الراجعة إلى ذلك الوقت مُحِيَت من ذاكرتك. تعتقد أنك كنتَ في السادسة، وكانَ دِنِس معك في الصفّ الأول، وما عَتَّمْتَ أنت وإياه أن صِرْتُما صديقين مقرَّبَيْن، هذا وإنك تتذكر زميلك هذا شخصًا هادئًا ورقيق الحاشية وسريعَ الضحك، بيد أنه كان بنحوٍ ما انطوائيًّا وكثير التفكير، كما لو كان يحمل معه عِبْئًا مسْتَخْفِيًا ما، ومع هذا فإنك أُعْجِبْتَ به لما كان يظهر عليه من رباطة جأشٍ وبما استوقفك من سِيمَاءٍ وَقُورٍ تبدو على شخص ما زال بهذا الصِّغَر. كان يتحدّر دِنِس من عائلة كاثوليكية كبيرة، وكان طفلًا من بين بضعة أطفال، ولعلهم كانوا أطفالًا كثيرين، ولمّا لم تكفِ أموال العائلة لكل فردٍ من أفرادها، ألْبسَه والداه ملابِسَ بالِيَة ومستخدمة تناقلتها أفراد عائلته واحدًا عن الآخر، وكانت قمصانًا وبناطيلَ سيئة المَقَاس ورثها عن إخوته الذين كان يكبرونه، هذا ولم تكن عائلته فقيرة بالضبط، ولكنها كانت مكافِحَة يعيش أفرادها في منزل ضخم بَدَا كما لو أنه كان يحتوي على عددٍ لا ينتهي من الغرف الشديدة الرطوبة والمؤثَّثة بلا ترتيب،

وكنتَ في كل مرة تذهب إلى منزلهم للغداء ترى الطعام مُحَضَّرًا على يد والد دِنِس، وكان هذا رجلًا لطيفًا وأنيسًا، لكنك جهلتَ ما كان عمله أو ما كانت صنْعَته، أما والدة دِنِس فنادرًا ما كانت تُرَى، إذ كانت تقضي أيامها وحيدةً في الطابق الأرضي، ودائمًا ما كانت ـ في المرات القليلة التي حَضَرَتْ فيها لمّا كنتَ موجودًا لزيارتهم ـ لابِسَةً بُرنُس الحمام مع الخُفَّيْن، وكان شعرها أشْعَثَ، وكانت تدخن سيجارة بعد أخرى، وسيئة الطَّبْع، والهالات السود تتزاحم تحت عينيها، وكان شعورك أنها شخصية مخيفة وأشبه بالمشعوذة، ولمّا كنتَ صغيرًا جدًّا فإنك لم تَدْرِ ما عِلَّتها، أكانت مدمنة كحول مثلًا، أم مريضة، أم تعاني من مشكلة عقلية أو عاطفية، لكنك ـ أيًّا كان ـ أشفقتَ على دِنِس ورَثَيْت حاله، إذ أحزَنَك أن صديقك مُثْقَلٌ عليه بمثل هذه المرأة أُمًّا له، ولكنّ دِنِس بالطبع لم يقل أي كلمة عن هذا الشأن، فالصِّبْية الصِّغار لا يشكون أبدًا من والديهم، بل يتقبلون ببساطة ما مُنِحوه ويستكملون حياتهم من هذه النقطة. ثم كان أحدُ أيام السبت، فدُعِيتَ أنت ودِنِس إلى حفل يوم ميلاد أحد الفِتْيَة في صفِّك، ما يعني أنك لربما كنتَ في السابعة آنذاك، أو كنتَ ستبلغ السابعة عمّا قريب، وباتباع المراسِم المعتادة في مثل هذه المناسبات زوَّدَتْكَ أُمُّكَ اليَقِظَة بهديّة من أجل يوم ميلاد الفتى، وكان طَرْدًا مُجَهَّزًا بنحو جميل بورق تغليفٍ زاهٍ وشَرَائطَ غنية بالألوان، فانصَرَفتَ أنت ودِنِس معًا إلى الحفل مشيًا على الأقدام، ولكن لم يكن كل شيء على ما يرام، فصديقك لم يكن يملك أي هدية خاصة به، إذ لم يهتمّ والداه بشراء واحدة له، ولمّا رأيتَ دِنِس يتفحص الطَّرْدَ الذي كان تحت ذراعك، استوعبْتَ ما كانَ مدى تعاسة شعوره، ومدى شعوره بالخجل من الذهاب إلى الحفل خالِيَ اليدين، ولا بد أنكما تحادثتما عن الموضوع، ولا بد أن دِنِس عبّر لك عن مشاعره، عن ذُلّه وإحراجه، ولكنك لا تذكر حتى كلمة واحدة من هذه المحادثة، وكلّ ما تذكره كان الشفقة والعطف اللذين شعرتَ بهما، وألَمَ التعاسة الذي انْبَجَسَ في داخلك عندما وُوجِهْتَ بتعاسة صديقك، ذلك أنك أحبَبْتَ هذا الفتى وأُعجِبتَ به، ولم تحتمل رؤيته يُعاني، ومن ثَم ـ من أجلك بقدر ما كان من أجل دِنِس ـ سَلَّمْته هديَّتك دون سابق تفكير مُخبِرًا إياه أنها هديته الآن، وأن عليه أن يعطيها للفتى صاحب حفل يوم الميلاد عندما يدخل إلى منزله، ولكن دِنِس قال: ماذا عنك؟ إذ بأخذي هذه فإنك أنتَ الذي ستصير خالِيَ اليدين بلا شيء لتقدمه

كهدية، ولكنك قلتَ له: لا تقلق، سأخبرهم أنني تركتُ هديتي في المنزل، أنني نسيتُ أخذَهَا معي.

كنتَ في الأعمّ الأغلب مُطِيعًا وحسَنَ السلوك، ولكنك عِلاوة على دَفْقة الإيثار العفوية التي أبْدَيْتها لصديقك، لم تكن فتًى قِدِّيسًا ألبتة، ولم تكن عادةً عندك أن تتبرع بممتلكاتك في فعلِ عَطْفٍ إيثاري، وسعَيْتَ إلى قول الحقيقة في كل الأوقات، ولكنك كنتَ تكذب أحيانًا حتى تغطّي على جُرْمِكَ، وإنْ لم تغشّ في بعض الألعاب أو تسرق من أصدقائك، فلم يكن هذا لأنك أجْهدتَ نفسك محاوِلًا أن تكون صالحًا، بقَدْر ما كان لأنك لم تجد نفسك قطّ مُسْتَمالًا إلى فعل هذه الأشياء، مع هذا فقد كان يستحوذ عليك بين الفَيْنة والأخرى، والحق أنك تذكر هذا بدقّة مرَّتين، باعِثٌ فاسد ودافع إلى التحطيم والتشويه، والتخريب وتهشيم الأشياء قِطَعًا قطعًا، وكنتَ تنقلبُ فتفعل شيئًا يتناقض مع طَبْعِك تمامًا، ويخالف الذاتَ التي اعترفتَ بها ذاتًا لك. حدث المثال الأول عندما كنت في نحو الخامسة، فكنتَ فكّكْتَ فيه بانتظام جهاز الراديو الخاص بالعائلة، وكان آلةً كبيرة من أربعينيات القرن العشرين مملوءة بالأنابيب الزجاجية وستة آلاف سلك كهربائي، ظانًّا في البداية أنك ستقدر على إعادة تركيبه، وخادعًا نفسك عن قصد بدعوة تمرينك هذا في التخريب المتعمّد *تجربة علمية*، لكنك إذ استمْرَرْتَ في استئصال الأجزاء المختلفة لأحشاء الآلة، توضّح لك سريعًا أن إعادة بنائها كان يتجاوز قدرتك كعالِم، ولكنك مع هذا واصلتَ ما كنتَ تفعل، مزيلًا بشكل جنونيّ كلَّ مسمار مُلَوْلَب وكل سلك كهربائي موجود داخل الصندوق، ولم تكن تفعل هذا كله إلا للسبب البسيط أنك كنتَ تعلم أنه ليس مفترَضًا منك فعله، وأن مثل هذا السلوك كان محظورًا تمامًا، فما الذي استحوذ عليك حتى تهاجم جهاز الفِلْكو Philco[1] هذا القديم، وتنزع أحشاءه مُصَيِّرًا إياه عديم النفع، وتمحقه هكذا؟ أكنتَ غاضبًا على والديك؟ أكنتَ هكذا تردّ عليهم بالمثل بسبب ظلم كنتَ تشعر أنهم افتعلوه تجاهك، أم تُراك كنتَ في واحدٍ من هذه الأمزجة الشَّكِسة والمتمردة التي تسيطر على الصِّبْية الصغار؟ ليس لديك أي فكرة، لكنك تتذكر أنك عُوقِبْتَ بشدّة على ما فعلت، حتى

(1) هذا اسم شركة كهربائيات أمريكية أُسِّسَت عام 1892، وكانت شهيرة بأجهزة الراديو والتلفزيون والبطاريات. [المترجم]

مع أنك واصلتَ توكيدَ براءتك، متشبِّثًا بقصة أن جُرْمَكَ ارتُكِبَ سعيًا إلى المعرفة العلمية. ثم إن ما يحيّرك أكثر حادثة الشجرة التي وقعت بعد سنة تقريبًا من حادثة الهيجان المتعلقة بالراديو، ما يعني أنك كنتَ في نحو السادسة آنذاك، وكنتَ حينها وحيدًا مرة أخرى، متمنيًا بتأفُّفٍ لو كان يوجد أحدٌ يمكنه اللعب معك، وكنتَ منحرف المزاج، ومتململًا، هائمًا على وجهك في الفِناء خلف منزلك، ثم خَطَر لك حينها ما كانَ أحسنها من فكرة أن تقطع شجرة الفاكهة الصغيرة التي كانت واقفة قرب مَرْقَدِ الأزهار، وكانت شجرة جديدة مسكينة، ما زالت شُجَيْرة مهزولة بِجِذع من النَّحالة بحيث يمكنك إحاطته بيَدَيْك، فلم تكن شجرة صغيرة كهذه لتطرح مشكلة كبيرة كما فكَّرْت، لذا ذهبتَ إلى المرأب باحثًا عن فأس والدك، فظهر أنها كانت عتيقة، ولا شك أنها كانت أقدم فأسٍ ناجية في نصف الكرة الغربيّ، وكان مقبضها طويلًا يكاد يكون بطولك، أما حَدُّها أو حديدتها فكانت كَلِيلةً وثخينة وصَدِئة جدًّا بحيث قد تواجه صعوبة حتى في بَعْجِ إصبعٍ من الزبدة، وفوق كل هذا كانت الفأس ثقيلةً، لربّما لم تكن من الثقل بحيث تعجز عن حملها إلى الحديقة الخلفية، ولكنك ما إنْ صرتَ بإزاء الشجرة بدَتِ الفأسُ أثقلَ بكثير من أن تقدر على التلويح بها بأي قوة ـ لم تكن مِضرب كرة القاعدة الذي تخيلتها ستكونه، بل كانت سبعة مضارب، بل عشرين مضربًا، لذا واجهتَ مشكلة في الحفاظ عليها متوازية مع الأرض، ولم تقدر على توجيهها بخطّ مستقيم إذ كان رُسْغَاك وذراعاك يترنّحان وأنت تدفع حدَّ الفأس الكليل نحو الشجرة، وبعد ست أو سبع ضربات أُجْهِدْتَ إجهادًا حَمَلَكَ على الاستسلام، وكنتَ استطعتَ خَرْقَ الجذع في عدد قليل من الأماكن، فظهرت أجزاء من الغشاء الرمادي مُلْتَفَّة إلى الأعلى ومُظْهِرةً الجزء الداخلي النَّضِرَ وأَثَرًا من الخشب الأشقر المكشوف أسفله، ولكن لم تظفر بأكثر من هذا، فباءت خطتك لقطع الشجرة بالفشل الذريع، وحتى الجروح التي أحدثتها في الشجرة ستُشفَى مع الوقت. ولكن السؤال كان نفسه مرة أخرى: لِمَ فعلتَ ما فعَلْتَ؟ إنك عاجز عن تذكُّر الدافع ـ بل تَذْكر ببساطة الرغبة في فعله، أو الحاجة إلى فعله ـ لكنك تشكّ أنه كان أمرًا ذا علاقة بقصة جورج واشنطن وشجرة الكرز، وهذه كانت الأسطورة الأمريكية الأساسية لطفولتك، وفحواها حكاية مدهشة عن جورج اليافع وهو يقطع شجرة بلا أي سبب، فاعلًا هذا لا لشيء إلا لأنه

أراد فعله، ولأن الفكرة استوقفته كفكرة جيدة، وهذا كان بالتحديد ما شعرتَ به عندما قرَّرتَ قطع شجرتك، كما لو أن كل صبيّ كان مقدَّرًا له في وقت معين من فترة صِباه أن يقطع شجرةً لا لشيء إلا للذة الخالصة التي يُشعَر بها عند قطع شجرة، ولكن جورج واشنطن كان بالطبع عندئذ أبًا دولته، دولتك، ولذا حافظ على شجاعته واعترف بذنبه لوالده ـ *لا يمكنني أن أكذب* ـ مثبتًا بهذا أنه صبي صادق، وأنه صبي يحوز فضيلة جديرة بالثناء وجدارة خُلقية، أما أنت فلستَ أبًا لأي دولة، ولذا كنتَ تكذب أحيانًا في صِبَاك، وكان كَذِبك لأنه على العكس من جورج واشنطن كان يمكنك أن تقول كِذبةً ما عندما يتطلّب الموقف منك هذا، حتى لو كنتَ تعلم أن الإله سيعاقبك في النهاية بسبب هذه الكذبة، ولكن اعتقادك كان أن عقاب الإله يظلّ أفضل من عقاب والديك.

كان جورج واشنطن نبيلًا وعظيمًا، وذا شرفٍ لا غبار عليه، وبجّله الأمريكيون كافة، وهو إلى هذا قاتل في عدد من المعارك المهمة على أرض انيوجرسي في أثناء الحرب الثورية [حرب الاستقلال الأمريكية]، وكان أولاد صفّك يحجّون في كل سنة إلى مركز قيادته في مورِسْتاون Morristown في انيوجرسي، وهذه كانت مَقَامًا يُعَدّ أقدَسَ من ذاك المخصص لإدِسِن في مِنْلو پارك، ولا شك أن المصباح الكهربائي والفُنُوچراف كانت أدواتٍ مدهشة، لكن هذا القصر الأبيض المستَعْمَرِيّ[1] كان قلب أمريكا نفسه، ومركز مَجْدِ كولومبيا، ثم إنك كنتَ عُلِّمْتَ في سنين صِبَاك هذه المبكّرة أن كل شيء يتعلق بأمريكا كان حَسَنًا، فكان يخبرك معلِّمُوكَ أنْ لا دولة أبدًا يمكنها أن تُقارَن بالفردوس التي كنتَ تعيش فيها، إذ كانت هذه أرض الحرية، وأرض الفُرَص، وفيها يمكن لكل صبيٍّ صغير أن يكبر ليصير الرئيس، ثم إن المهاجرين[2] الشجعان عبروا المحيط لِيُؤسِّسوا أُمَّةً من البرِّيَّةِ الفجَّة القاسية، ثم تَلَتْهم حشود المستعمرين

(1) هذه ترجمة لكلمة Colonial، نسبةً إلى المستعمرة لا إلى الاستعمار، والمقصود طراز بناء نيو ـ كلاسيكي أكثر ما ميَّز المستعمرات البريطانية في أمريكا قبل استقلالها. [المترجم]

(2) أو الحُجَّاج، مقابل Pilgrims، وقد يُدْعَوا الحجاج الآباء أو آباء الحجّ أو الهجرة Pilgrim Fathers، والمقصود بهم ببساطة المهاجرون الإنگليز الأُوَل الذين أنشؤوا أول مستعمرة في انيوإنچلند في شمال أمريكا عام 1620، وكانوا مجموعة عائلات عدد أفرادها نحو مئة واثنين، وكان الطاقم ثلاثين فردًا، وسفينتهم مشهورة باسم سفينة مايفلاور Mayflower، واستمرت رحلتهم في البحر عشرة أسابيع تقريبًا. [المترجم]

لتنشر جنة عدن الأمريكية على طول قارة بأكملها، من المحيط الأطلنطي إلى الهادي، ومن كندا إلى المكسيك، إذ إن الأمريكيين كانوا مثابرين وأذكياء، وهم أكثر الشعوب إبداعًا على الأرض، وكل صبيٍّ صغير فيهم يمكنه أن يحلم بأن يكبر ليصير رجلًا غنيًّا وناجحًا، وكان حقًّا أن العبودية كانت فكرة سيئة، لكنّ الرئيس لِنْكِن حرَّر العبيد، فصار الآن هذا الخطأ المؤسِف من أمر الماضي. لقد كانت أمريكا مثالية، وقد فازت في الحرب وها هي الآن مسؤولة عن العالم بأجمعه، وما خرجَ منها قطّ شخصٌ سيئ غير بنِدِكت آرنلد، هذا الخائن الخسيس الذي انقلب على دولته فلَعَنَ اسمَهُ كلُّ الوطنيين، أما سائر الأعلام التاريخية فكانت حكيمة وصالحة وعادلة. كان كل يوم يجلب مزيدًا من التقدم، ومع أن الماضي الأمريكي كان استثنائيًّا، فإن وَعْدَ المستقبل كان أكبر، فلا تنْسَ مدى ما كنتَ محظوظًا، فأن تكون أمريكيًّا يعني أن تكون جزءًا مشارِكًا في أعظم مشروع بشريّ منذ خلق الإنسان.

بالطبع لم تَرِدْكَ أي كلمة عن الأناس السود الفقراء في عمارات والدك، ولا عن الأحذية التي كان يرتديها الجنود في كوريا، ولكنك بعد انتهاء الصيف بمدة طويلة، طفقتَ تفكر في لِنِي، فالْتَعْتَ مرةً بعد مرة بصورة أصابع قدمين مبتورة ومُسَوَّدة، وبعشرات الآلاف من جذوع الأشجار المطروحة، وبِجَبل الأصابع المقطوعة من أقدام الجنود المرتعشة والتي قضمها الصقيع، وأعقاب سجائر متفحّمة تكتسح مِنفضة سجائر بطول وعرض منزل.

واختبرتَ في خريف تلك السنة، 1952، أول حملة انتخابية في حياتك، كانت بين آيزنهاور واستيڤنسن. كان والداك ديمقراطيين، ما عنى أنك ستدعم أيضًا الديمقراطي من إِلِنُوي (Illinois)، ولكن كونك مسانِدًا لاستيڤنسن وضعك على خلاف مع الفتاة القصيرة البدينة ذات الوجه المستدير التي كنتَ مفْتَتَنًا بها، وكان اسمها پاتي ف.، وكانت تصفّف شعرها بتَجْدِيله، فكان لديها جديلتان متماثلتان وفاتنتان متدلِّيَتان حتى منتصف ظهرها، ولكن الافتتان تحول فجأةً إلى استياء وتحرُّرٍ من الوهم، إذ في صباح أحد الأيام وأنت قاعد معها على الدرجات الأمامية للمدرسة، منتظرًا فَتْحَ الأبواب حتى يُدخِلَك أستاذ الروضة ويبدأ اليوم، ذُعِرْتَ لسماع پاتي تغنّي أغنيّة داعمة للجمهوريين، فكانت مَقْطوعَةً فيها سِبَابٌ صَدَمَكَ بشدَّته: *استيڤنسن أحمق، استيڤنسن*

أحمق، لآ يزنهاور سلطة أكبر، استيڤنسن أحمق. كيف أمكن لك ولمعشوقتك أن لا تتفقا بخصوص من ينبغي أن يكون الرئيس التالي؟ أدركتَ الآن أن السياسة تسلية بغيضة، وأنها مناقشة عامة مِلْؤُها النزاع المرير الذي لا يبلغ نهايةً، وقد آلَمَكَ أن شيئًا مجرَّدًا وبسيطًا ليس ذا أهمية كبيرة كالانتخابات الرياسية يمكنه أن يسبب صَدْعًا بينك وبين پاتي الصغيرة المُكْتَنِزة، التي تَبَيَّن أنها مُشَايِعةٌ شَرِسة للطرف الآخر. سألتَ نفسك: ماذا إذن عن أسطورة أمريكا المتحدة والمتناغمة؟ ماذا عن فكرة أن الجميع يتعاون من أجل الخير المشترك؟ كان أن تدعو أحدًا ما أحمَقَ اتهامًا جديًّا، فهذا ما دمَّرَ أواصر الكِيَاسة التي كان مفترَضًا أن تسود في أفضل الأصقاع هذه، ثم إنه لم يثبت فقط أن الأمريكيين كانوا منقسمين، بل أن كل فرقةٍ من هؤلاء كانت مُؤَجَّجة غالبًا بانفعالات قبيحة وشتائمَ تَشْهيريّة. كانت الحرب الباردة حينها في أوجها، وكان **الخوف الأحمر** [من الشيوعية] قد دخل أشدّ أطواره سُمِّيَّةً، لكنك كنت أصغر كثيرًا من أن تفهم أيًّا من هذا، وبينما كان صِبَاكَ يَتَهادَى عبر سنين الخمسينيات المبكرة، كان الضجيج الوحيد النابع من روح العصر المُدَوِّي كفايةً كي يُسمَع هو صوت الطبل الكبير الذي كان يدقّ ناقوس خطر أن الشيوعيين كانوا في كل مكان جاهزين لتدمير أمريكا. أخبرتَ نفسك: لا شك أن جميع الدول تملك أعداء، فلهذا كانت الحُروب تُخَاض في النهاية، ولكن الآن ما دامت أمريكا فازت في الحرب العالمية الثانية وأثبتت تفوّقها على سائر الدول على الأرض، فما الذي يحمل الشيوعيين على الشعور بأن أمريكا كانت سيئة، وأنها دولة من السوء بحيث تستحق التدمير؟ فتساءلتَ: أكانوا أغبياء، أم لعل عداءهم تجاه أمريكا أشار إلى أن الشعوب في مناحي العالم الأخرى كانت لديها أفكار مختلفة عن سُبُل العيش، *أفكارٌ غير أمريكية*، وإنْ كان الأمر كذلك، ألم يُشِر هذا بالتبعية إلى أن عَظَمة أمريكا، التي كانت بديهية بالنسبة إلى الأمريكيين كافة، كانت بعيدة عن أن تكون حتى جَلِيَّة لهذه الشعوب الأخرى؟ وإن عَجَزَتِ الشعوبُ عن رؤية ما نرى، فمن ذا الذي كان له أن يقول إن ما رأيناه كان فعلًا موجودًا؟

لا شيء عن الأحذية، وبالكاد أي شيء عن الهنود أيضًا. إنك تعلم أنهم أول مَنْ كانوا هنا، وأنهم كانوا يحتلون الأرض التي تُدعى اليوم أمريكا لألفَيْ سنة قبل بدْء الأوربيين البيض بالقدوم إلى هذه الشُّطآن، ولكن عندما تحدث أساتذتك عن أمريكا، كان يندُر

أن يكون الهنديون جزءًا من القصة. لقد كانوا السكان الأصليين، وأسلافنا البدائيين، الشعب المحلّي الذين حكموا في ما مضى هذا الجزء من العالم، وكانت سادت في ما يتعلق بهم في أمريكا منتصف القرن وِجْهَتا نظر متناقضتان على نحو كبير، تمثّل كل واحدة منهما النقيض المطلق للأخرى، ولكنهما مع هذا صَمَدتا متساويتَيْن، وكل واحدة منهما تدّعي امتلاك ادّعاءٍ صالحٍ بحيازة الحقيقة. فكان الأشخاص الحُمر في أفلام الغرب الأمريكي بالأسود والأبيض يُصَوَّرون بأنهم قَتَلة عُتَاة، وأعداء للحضارة، وشياطين نَهَّابون كانوا يهاجمون المزارعين البيض لا لشيء إلا لمتعةٍ سادية صِرفة. ثم كانت توجد من ناحية أخرى الصورة المَلَكية للزعيم الهندي على علبة مسحوق التخمير من نوع كالْيُمِت، وهي العلبة نفسها التي زيّنتها من أجل الخُشخيشة الاحتفالية عندما كنتَ في الخامسة، ولم يكن الموكب الهندي الذي شاركت فيه عن وحشية الهنود بل عن حكمتهم، وعن فهمهم الأعمق للطبيعة مقارنةً بفهم الرجل الأبيض، وعن وِصَالِهم مع قوى الكون الأبدية، ولقد أدهشك **الروح العظيم** الذي آمنوا به بوصفه معبودًا ودودًا وحَفِيًّا، على النقيض من الإله الحَقُود الذي مَلَأَ خيالك، فكان يحكم بنشر الرعب وإنزال العقوبات المُبْرِحة. ثم لمَّا مثَّلتَ دورَ حاكم [مستعمرة ابْلَيْمَوث] وِلْيَم ابردفورد في مسرحية نظّمها صفّك المدرسي الثاني أو الثالث، ترأَّستَ إعادة تمثيل أول عيد شكر مع الجَوَادَيْن الهنديين اسكوانتو (Squanto) ومَسَسُويت (Massasoit)،[1] عارفًا أن الهنود كانوا شعبًا خيِّرًا ورؤوفًا، وأنه لولا كَرَمهم وعَوْنهم المستمر، ولولا عطاياهم الفيّاضة من طعام وتوجيه خبيرٍ عن سَنَن الأرض وطرقها، لَمَا كان للمستعمرين المهاجرين الأوائل أن ينجوا في شتائهم الأول في **العالم الجديد**. فعلى هذه الشاكلة كان الدليل المتناقض: فهم في الآن عينه شياطين وملائكة، وبدائيون عنيفون وهمجيون نبلاء، فهاتان رؤيتان للواقع عينه لا سبيل إلى التوفيق بينهما، ومع هذا كان يوجد في مكان ما في هذا الاختلاط مصطلح ثالث، أو عبارة غَذَّت أكثر أجزاء

(1) كان الثاني قائد أو شيخ إحدى القبائل الهندية الرئيسة في أثناء وصول المهاجرين الأُوَل، وقد قابلهم وعقد معاهدة سلام معهم بعد عدة مفاوضات، إلخ، أما الأول فكان مترجمًا ومُرشِدًا للمهاجرين ومعلِّمًا لهم أساليب العيش والنجاة في العالم الجديد، وكان قبل هذا بِيعَ مع بعض العبيد الهنود ووصل إنكلترا. [المترجم]

عالمك الداخلي سِرِّيَّةً لأطول وقتٍ يمكنك تذكُّره: *الهنديّ البريّ/ الجامح*. كانت هاتان الكلمتان هما اللتان تستخدمهما أُمُّك متى ما أَسَأْتَ التصرف، ومتى ما استحالَ سلوكك الهادئ في العادة إلى سلوك صعب المِراس وفوضوي، فالحقيقة أنه كان فيك موضِعٌ يريد أن يكون جامِحًا، فعُبِّر عن هذا الدافع بتخيُّل نفسك هنديًّا، أو صبيًّا يمكنه أن يركض نصفَ عارٍ عبر غابات صنوبر عملاقة مع قوسه ونُشَّابِه، فيقضي أيّامًا بأكملها يَعْدو بحصانه الطَّلُوقة من نوع بَلْمين على طول السُّهوب، ويصطاد الجاموس الأمريكي مع سائر محارِبي قَبِيلته. لقد مثّل لك *الهندي الجامح* كل شيء حِسّيٍّ ومُحَرِّرٍ وطَلِيقٍ، لقد كان «الهو» (id) مطلقًا العنان لِرَغائِبه اللِبيدية (الشَّهَوِيّة) بمقابل الأنا الأعلى الذي كان يحوزه أبطال رعاة البقر بقبّعاتهم البيض، وبمقابل العالم الخَانِق للأحذية غير المريحة والساعات المنبِّهة والصفوف الفاسدة الهواء والحارّة. ثم إنك لم تقابل هنديًّا بالطبع ألبتة، ولم ترَ واحدًا إلا في الأفلام والصور، لكن كافكا لم يقع بعينيه على هندي أيضًا، غير أن هذا لم يمنعه من نَظْمِ قصة مكوّنة من فقرة واحدة عنوانها: «الرغبة في أن تكون هنديًّا أحمر»: «لو أن واحدنا كان هنديًّا، حَذِرًا أبدًا، معْتَلِيًا حصانًا عادِيًا، خارِقًا الرياح خَرْقًا...»، هي ذي جملة واحدة متتابعة تلتقط بالتمام الرغبة في التخلص من القيود، وإطلاق العنان، والفِرار من كل الأعراف السفيهة للثقافة الغربية. وبحلول صفّك الثالث أو الرابع كان هذا ما تشرّبته: أن البيض الذين جاؤوا هنا في عشرينيات القرن السابع عشر كانوا من قِلّة العدد بحيث لم يجدوا مناصًا من عقد الصُّلْح مع القبائل المحيطة، لكنهم بتزايد أعدادهم وببدْء نَمَاء اجتياح المهاجرين الإنكليز، وباستمراره في النمو، عُكِس الموقف، فطُرِدَ الهنود شيئًا فشيئًا، وسُلِبوا، وذُبحوا. كانت كلمة *الإبادة الجماعية* مجهولة لديك، ولكنك عندما رأيتَ الهنود والبيض في خصام دائم في أفلام الغرب الأمريكي القديمة على التلفاز، علمتَ أن القصة نفسها كانت أكبر من ما أخبرته القصص التلفزيونية. لقد كان تُنتو (Tonto)[1] الهندي الوحيد الذي عُومِل بأقلّ القليل من الاحترام، وكان الصديق الحميم الوفيّ للحارس الوحيد[2] الذي أدّى

(1) شخصية رجل هنديّ خيالية رفيقة للحارس الوحيد في أفلامه. [المترجم]

(2) هو Lone Ranger، شخصية خيالية مقنّعة حاربت الخارجين على القانون في الغرب الأمريكي، وكان أول ظهور لها في عام 1933. [المترجم]

دوره الممثل جَاي سِلفرهيلز، وأُعجِبْتَ به لشجاعته وذكائه ولحظات صمته الطويلة والتّأمليّة. ولمّا كنتَ في الصف الخامس، يعني لمّا كنتَ في العاشرة والحادية عشرة، صرتَ قارئًا مشبوب الحماسة لمجلة *ماد (Mad)*،[1] وفي المحاكاة الساخرة المشهورة اليوم للحارس *الوحيد* التي ظهرت في أحد أعداد مجلة *ماد*، يجد المنتَقِم من الأخطاء المقنَّع ورفيقه الوَفِيّ نفسيهما في مواجهة عصابة من المحاربين الهنود العدائيين، فيلتفت الحارس الوحيد إلى صديقه قائلًا: «حسنًا يا تُنتو، يبدو أننا محاصران»، فيردّ الهنديّ قائلًا: «ما الذي تعنيه بـ*أننا*؟». لا شك أنك تفهم النكتة هنا، وشعرتَ أنها كانت نكتة رهيبة ومضحكة كثيرًا، لا لشيء إلا للسبب المحدد أنها لم تكن نكتةً ألبتة في نهاية المطاف.

مفكِّرَة آن افرانك. تغدو الهند دولة مستقلة. يموت هنري فورد. يُبحِر ثور هَيِرْدَل (Heyerdahl) على رَمَثٍ[2] من بيرو إلى بولنيزيا في مئة يوم ويوم. *كلهم أولادي* لآرثر مِلِر. *عربة اسمها الرغبة* لتِنِسي وليمز. تُكتَشَف مخطوطات البحر الميت. تخترق طائرة نفّاثة حاجز الصوت فوق صحراء في غرب الولايات المتحدة. يعيّن ترومان [الرئيس الثالث والثلاثون] جورج مارشَل وزير خارجية الدولة، ويبدأ مشروع مارشل [لإعادة إعمار أوربا بعد الحرب]. منحوتة جاكوميتي *الإنسان المشير (Man Pointing)*. *الطاعون* لألبير كامو. تعلن الأمم المتحدة خطة لتقسيم فلسطين. يؤَسَّس استديو الممثلين في نيويورك. يفوز أندريه جِيد بجائزة نوبل. يتعهّد پابلو كَزَالس (Pablo Casals) أن لا يؤدي عرضًا عامًّا ما دام افرانكو في السلطة. يموت آل كابوني. ينتهي تقنين السكَّر في الولايات المتحدة بعد خمس سنوات. يصبح جاكي روبنسن أول لاعب كرة قاعدة أسود في الدوريات الرئيسة. يوقّع ترومان القرار التنفيذي رقم 9835، طالِبًا تعهُّد وَلاء من جميع موظَّفي الحكومة، ويصبح أول رئيس يخاطب الشعب الأمريكي على التلفاز. *أنا، المُحَكَّم* لِمِكِي اسبِيلان. دكتور *فاوستس* لتومَس مان. تفتح لجنة الأنشطة غير الأمريكية في مجلس النواب (HUAC) تحقيقًا في التأثير الشيوعي في صناعة الأفلام. *السيد ڤِردو* لتشارلي اتشابلن. يهزم اليانكيز فريق دوجرز في نهائيات كأس

(1) صدرت عام 1952، كانت في البداية سلسلة هزلية قبل أن تتحول إلى مجلة. [المترجم]
(2) الرَّمَث: هو الطَّوف الخشبي، أو خشب يُشَدّ بعضه إلى بعض ويُركَب في البحر. [المترجم]

العالم. الظهور الأول لماريا كالّس. يتساقط أكثر من ثمانية وعشرين إنشًا من الثلج على نيويورك، فكانت أكبر عاصفة ثلجية في تاريخ المدينة. من *الماضي* بإخراج جاك ترنر - إلى جانب *روح وجسد*، *والقوة الغاشمة*، *وتبادل إطلاق النيران*، *ومولودٌ للقتل*، *وتقدير الموقع*، *ويائس*، *ومُلَفَّق له*، *وقبلة الموت*، *وسيدة في البحيرة*، *وزقاق الكابوس*، *والمفتونة*، *ومُتَّهَم زورًا*، *والممر المظلم*، *ولن يصدقوني*.[1] كلها حوادث عشوائية لا رابط بينها غير أنها تتصل بحقيقة حدوثها كافة في سنة ميلادك، 1947.

***

إنك تتذكر الطيارات، والطيارات النفاثة التي تفوق سرعة الصوت وهي تزمجر عبر سماوات الصيف الزُّرق، خارقةً عنان السماء بسرعات عالية تجعلها بالكاد مرئيَّة، كأنها وَمْضَة تَتَلألأ باللون الفضي تحت الضوء، ثم لا تعتِّم أن تختفي في خلال الأفق فيتبعها دَوِيٌّ هَدَّار يتردّد لأميال في كل الاتجاهات، وهو التفجر العظيم للهواء المندفع الذي مثَّل كَسْرَ حاجزِ الصوت مجدّدًا. لقد شُدِهْتَ أنت وأصدقاؤك بقوة هذه الطيارات التي دائمًا ما كانت تصل دونما أي تحذير، فتعلن عن نفسها كصَخَبٍ غَضُوب من بُعد، وفي غضون ثوانٍ تكون فوق الرؤوس مباشرةً، ومهما كانت اللعبة التي كنتَ أنت وأصدقاؤك تلعبونها في تلكم اللحظة، فإنكم كلكم كنتم تتوقفون في نصف حركتكم لتنظروا أعلاكم وتَرْقُبوا وتنتظروا حتى تتجاوزكم هذه الآلات الهادِرة مسرِعةً. لقد كانت حقبة معجزات الطيران، حقبة الأسرع إلى الأسرع، والأعلى إلى الأعلى أبدًا، والطيارات بلا جذع، والطيارات التي بَدَت كأنها سمكة عجيبة بدلًا من أن تشبه الطيور، ولقد كانت هذه الآلات الطائرة ما بعد الحرب من علوّ الشأن في خيالات أطفال أمريكا حتى كانت البطاقات التداولية لهذه الطيارات الجديدة تُوَزَّع على نطاق واسع، فتشبه في هذا كثيرًا بطاقات كرة القاعدة أو كرة القدم الأمريكية، في حُزَمٍ في خمس أو ست بطاقات مع لوح من علكة الفقاعات الزهرية في الداخل، وكان على واجهة كل بطاقة صورة طائرة

---

(1) أسماء الأفلام بالأصل كما يلي بالترتيب: [المترجم]

Out of the Past, Body and Soul, Brute Force, Crossfire, Born to Kill, Dead Reckoning, Desperate, Framed, Kiss of Death, Lady in the Lake, Nightmare Alley, Possessed, Railroaded, Dark Passage, and They Won't Believe Me.

بدلًا من لاعب كرة قدم، مع معلومات عن الطائرة مطبوعة على ظهر البطاقة. كنتَ أنت وأصدقاؤك تجمعون هذه البطاقات، وكنتَ حينها في الخامسة والسادسة من العمر ومهووسًا بالطيارات، بل مبهورًا بها، وبإمكانك أن تتذكر الآن (صار كل شيء واضحًا لك فجأةً) قعودك أنت وزملاؤك على رواق المدرسة في أثناء تدريب عسكري على غارة جوية، ولم يكن هذا يشبه ألبتة التدريبات التي خضعت لها أيضًا من أجل الحريق، فكانت توجد تلك المخارج المُرتَجَلة التي تقود إما إلى الدفء وإما إلى البرد مع تخيُّل المدرسة وهي تحترق تمامًا بإزاء ناظرك، واختلاف تدريبات الغارة الجوية أنها كانت تُبْقِي على الأولاد داخل المبنى، ليس في الغرفة الصفية بل في الرواق، ومن المفترض أن هذا كان لحمايتهم من أي هجوم جوّي، ومن القذائف والصواريخ والقنابل التي تُسقطها الطائرات الشيوعية المحلِّقة عاليًا، وقد كنتَ رأيتَ بطاقات الطيارات في أثناء هذه التدريبات، قاعدًا على الأرض وظهرك مستند إلى الجدار، صامتًا بلا أي عَزْمٍ على كسر هذا الصمت، فالحديث لم يكن مسموحًا به في أثناء هذه التمارين المَهِيبة، وهذه التحضيرات العقيم ضد موت ودمار محتملين، ولكن أحد الأولاد كان يملك حزمة من أوراق الطيارات تلك في ذلك الصباح، وكان يُرِيها للأولاد الآخرين، ويُمَرِّرها خلسةً على طول خط الأجساد الصامتة والقاعدة، ولمّا كان حانَ دورك لإمساك إحدى هذه البطاقات في يديك، أدهَشَكَ تصميم الطائرة، وغرابتها وجمالها غير المتوقع، فكلها جناح، وكلها تحليق، وهي وحش معدِنيّ وُلِد في أعالي السماء، في مَلَكوت النار النقية الأبدية، ولم يحلُ لك ولو مرةً أن تعتبر أن تدريبات الغارة الجوية التي كنت تشارك فيها كان مفترَضًا منها تعليمك كيفية حماية نفسك من هجوم تُجريه طائرة كهذه تمامًا، أعني طائرة مشابهة للتي على البطاقة والتي أنشأها أعداء دولتك. ما من خوف. لم تقلق ألبتة من أن القنابل والصواريخ قد تسقط عليك، ولم يكن ترحيبك بالإنذار الذي يعلن بَدء تدريبات الغارة الجوية إلا لأنهم سمحوا لك بمغادرة الغرفة الصفية لبضع دقائق فتفرّ من الكَدْحِ في الدرس الذي كنتَ تُعَلَّمه آنذاك أيًا كان.

ثم في سنة 1952 لمّا صرتَ في الخامسة، وهي السنة التي تضمنت صيف لِني، وبدء تعليمك الرسمي، وحملة آيزنهاور واستيفنسن، انتشرت جائحة شلل أطفال في أرجاء أمريكا، مصيبةً 57,626 شخصًا كان معظمهم أطفال، وقاتلةً 3,300، ومسببة الشلل

لأعداد لا يُعلَم لها حد. هو ذا كان الخوف، فلم يكن القنابل ولا الهجوم النووي، بل شلل الأطفال. ولمّا كنتَ تتجول في شوارع حَيِّك في ذاك الصيف، كنتَ تمرّ أحيانًا بجُمُوعٍ من النسوة تُحَادثُ واحدتهن الأخرى بهَمَساتٍ مُغتَمَّة، ونسوة أخريات يدفعن عربات أطفال أو يتَمَشَّيْن مع كلابهن، وأخريات يملأ الارتياع أعينهنّ، والفزع يتجلّى في جَرْس صوتهن الخافت، وكان حديثهن دائمًا شللُ الأطفال، هذه البَلِيَّة المُحتَجِبة التي كانت تنتشر في كل مكان، ويمكنها اجتياح جسد أي رجل، أو امرأة، أو طفل في أي لحظة صباحًا أو مساءً. والأسوأ من هذا كان موت الشاب اليافع في البيت الذي كان موجودًا على طول الشارع الذي كان يسكنه صديقك المقرّب، وكان طالِبًا من هارڤرد اسمه الأول افرنكلن، وهو شخص ألمعيّ حسب ما أخبرتْ أمك، وشخص مقدَّر له أن يحقق عظائم الأشياء في هذه الحياة، لكن ها هو الآن يضْمر ويَضْنَى بالسرطان، مشلولًا ومنكوبًا، وفي كل مرة زرتَ فيها صديقك بِلِي، كانت أمّ بِلِي تأمركما بِخَفْضِ صوتيكما عند الخروج من البيت حتى لا تزعجا افرنكلن. كنتَ تنظر عبر الشارع إلى بيت افرنكلن الأبيض، فكان ستار نوافذه كافة مسحوبًا، وكان بيتًا صَمُوتًا بشكلٍ مخيف لم يبدُ أن أحدًا يعيش فيه بعدُ، وكنتَ تتخيل افرنكلن الطويل والوسيم الذي رأيته مراتٍ عِدة في الماضي، مُمَدّدًا على سرير أبيض في غرفة نومه في الطابق العلوي، منتظرًا موتَه البطيء والمؤلم. على الرغم من كل الخوف الذي سببته جائحة شلل الأطفال، لم تعرف ألبتة أحدًا التقط المرض، لكن افرنلكن مات في نهاية المطاف، تمامًا كما أخبرتك والدتك أنه سيفعل. رأيتَ السيارات السود مصطفَّة يوم جنازته قُبالة المنزل، ثم إنك بعد ستين سنة ما زلت قادرًا على رؤية السيارات السود والبيت الأبيض، فهنّ في ذهنك ما زِلْنَ رموز الأسى الجوهرية.

إنك لا تذكر اللحظة المحددة التي أدركتَ فيها أنك يهودي، ويلوح لك أنها حَلَّت في وقتٍ ما بعد أن صرتَ كبيرًا بما يكفي كي تعرِّف نفسك بأنك أمريكي، ولكن يُحتمَل أن تكون مخطئًا، فلعلها كانت جزءًا منك منذ البداية. لم يتحدّر والداك من عائلة متديّنة، فلم تكن توجد في البيت طُقوس تُمَارس، ولا وجبات السبت المقدس في ليالي يوم الجمعة، ولم تكن تُشعَل الشموع، ولم تكن توجد جولات إلى الكَنِيس في الأيام المقدسة العليا، ودعْ عنك مساء أيام الجمعة أو صباح أيام السبت من كل

سنة، ولم يُتَلَفَّظ بكلمة عبرية واحدة في حضورك. لا شيء أكثر من وَجْبَتَيْ عيد الفصح اليهودي (seders) عارضتين في رفقة الأقارب، وهدايا عيد الأنوار (حَنُكَّة) في كل كانون أول لتعويض غياب عيد الميلاد المجيد، ولم يكن يوجد إلا طقس واحد جدّيّ شاركت فيه وكان وقع وأنت من العمر ثمانية أيام، وكان هذا أبكر كثيرًا من أن تتذكر أي شيء عنه، أعني به مراسم الختان المعتادة، أو الـ*bris*، إذ تُبتَر قُلفة قضيبك بسكّين مشحوذة كثيرًا حتى تقطع العهد بين ذاتك المولودة حديثًا وإله أجدادك. ومع كل اللا مبالاة التي أظهرها والداك تجاه تفاصيل إيمانهم، فإنهما مع هذا اعتبرا نفسيهما يهوديين، ودَعَوَا نفسيهما يهوديين، وكانا مرتاحَيْن مع هذه الحقيقة ولم يسعيا ألبتة إلى إخفائها، على العكس من أعداد لا تُحَدّ من اليهوديين الآخرين عبر العصور الذين فعلوا كل ما في استطاعتهم حتى يختفوا في العالم المسيحي الذي أحاط بهم، مغيِّرين أسماءهم، ومتحوِّلين إلى الكاثوليكية أو إحدى الطوائف البرتستانتية، مدْبِرين عن أنفسهم وطامسين بكل هدوء ماضيهم. ولكن كلا! فوالداك اتخذا موقفًا حازمًا ولم يَشُكَّا قطّ في هُويتهما، ولكنهما لم يمتلكا شيئًا في سنين حياتك المبكرة كي يقدّماه لك في ما يخصّ دينك أو خلفيّتك، إذ إنهما كانا مجرد أمريكِيَّيْن صَدَف أن كانا يهودِيَّيْن، فكانا مُسْتَوْعَبَيْن تمامًا في الأمريكيين بعد نضالات والديهما المهاجِرَيْن، لذا كان مفهوم اليهودية في ذهنك مرتبطًا قبل كل شيء بالاغتراب، كما كان هذا مجسَّدًا في جدَّتِكَ مثلًا، وأعني بها أمّ والدك، فكانت حضورًا غريبًا ما زال يتكلّم ويقرأ في الغالب باليديشيّة، وكانت لغتها الإنكليزية تكاد تكون غير مفهومة لك لغلاظة لهجتها، ومن جهة أخرى وُجِدَ ذاك الرجل الذي كان يحضر أحيانًا في شقّة والِدَيْ أُمّك في نيويورك، وكان قَرِيبًا من نوع ما اسمه جوزِف استافْسكي، وهو شخصية أنيقة ارتدت بِذَلًا من ثلاث قِطَع مَخِيطة بإتقان، ودَخَّنَتْ بِحَامل سجائر أسود طويل، فكان كوزموبوليتانيًّا محنَّكًا فهمتَ تمامًا لغته الإنكليزية بلهجته البولَندية، وعندما صرتَ كبيرًا بما يكفي كي تفهم هذه الأشياء (لربما في السابعة، أو الثامنة، أو التاسعة)، أخبرتك أمّك أن القريب جوزِف جاء إلى أمريكا بعد الحرب بمساعدة والِدَيْها، وأنه كان في بولندة متزوِّجًا وأبًا لفتاتين توأمين، لكن زوجته وابنتيه قُتِلوا جميعهم في معسكر أوشفتس، ولم ينجُ أحدٌ غيره، وأنه كان محاميًا ناجحًا في وارسو، لكنه الآن بالكاد يسدّ رمقه

بالعمل بيّاعًا في نيويورك. كانت الحرب حينها قد انتهت منذ سنوات، لكنها لمّا تزل حاضرة، تطوف حولك وحول كلّ مَنْ عَرَفته، بَادِيَة ليس فقط في الألعاب الحربية التي لعبتها مع أصدقائك، بل وفي الكلمات المَقُولة في بيوت عائلتك. وإنْ كانت أول مصادفاتك للنازيين حدثت كجنديّ خاصّ خياليّ في مختلِف الحدائق الخلفية لبلدتك في انيوجرسي، فلم يمرّ وقت طويل حتى فهمتَ ما فعله النازيون باليهود، وبزوجة جوزِف استافسكي وبناته مثلًا، وبأعضاء عائلتك، لا لشيء إلا لأنهم كانوا يهودًا، فكفّ النازيون حينها عن أن يكونوا عدوّ الجيش الأمريكي وكفى، بل صاروا تجسيدًا لشَرٍّ وحشي، وقوةً من الدمار العالمي ضدّ الإنسان، ومع أن النازيين هُزِموا ومُحِقوا عن وجه الأرض، فإنهم داوموا أحياءً في خيالك، كامِنين داخلك كفَيْلَق موتٍ قَدِير، شيطانيّ وخبيث، لا يفتأ مداوِمًا على وضعية الهجوم، ومن تلك اللحظة فصاعدًا، أعني من اللحظة التي أدركتَ فيها أنك لم تكن أمريكيًّا فقط بل يهوديًّا، ازدحمت أحلامك بعصاباتٍ من النازيين المُشاة، ووجدتَ نفسك ليلةً بعد ليلة هاربًا منهم، هاربًا حفاظًا على حياتك وكلّك يأس، تلاحقك حشود من النازيين المُسَلَّحين عبر حقول مكشوفة وغابات مظلمة تشبه المتاهات، وكانوا جنودًا ألمانيين مجهولين عازمين على إطلاق النار عليك، وبَتْر يدَيْك ورِجلَيْك، وعلى حرقك على عصًا وتحويلك إلى كومة رماد.

وبحلول سنّك السابعة أو الثامنة، بدأتَ تُدرك وتفهم ما فاتك. كان اليهود مستَتِرين، فلم يكن لهم دور يؤدُّونه في الحياة الأمريكية، ولم يظهروا ألبتة كأبطال في الكتب أو الأفلام أو عُروض التلفزيون. وعلى الرغم من فِلم *اتفاقية الشرف*، الذي فاز بجائزة الأكاديمية لأفضل فلم في السنة التي وُلِدتَ فيها، فلم يُوجَد رُعاة بقر بأسماء كَبِرْنشتَيْن واشفارتس، ولا مُخْبرون يُدْعون اچرينبرچ أو كُوِن، ولا مرشّحون رِيَاسِيُّون كان والدونهم هاجروا من قرى بولندا وروسيا الصغيرة.[1] صحيح أنه وُجِد ملاكمون أبدعوا في الثلاثينيات والأربعينيات، وأنه وُجِد لاعب الظهير الربعي سِدْ لوكمَن والمبرّزون الثلاثة من أرض كرة القاعدة (هَنْك اچرينبرچ، وآل روزن، وساندي كوفَكس الذي

(1) الكلمة المستخدمة هنا للقرى الصغيرة هي shtetls، وتشير هذه بالضبط إلى القرى أو البلدات التي سكنها اليهود الأشكناز في أوربا الشرقية قبل الحرب أو «الهلوكوست»، أي قبل أن يُضطروا إلى الهجرة منها أو قبل أن يُهَجَّروا منها. [المترجم]

انضمّ إلى فريق دوجرز في عام 1955)، لكنهم كلهم كانوا استثناءات صارخة مقارنة بالمعتاد حتى عُدُّوا رمياتِ حظٍّ ديمغرافية، أو مجرد انحرافات إحصائية. وكان اليهود قادرين على عزف الكَمان والبيانو، وتمكّنوا أحيانًا من قيادة حفلات الأوركسترا السمفونية، لكن المغنين والموسيقيين المشهورين كافّة كانوا إما إيطاليين وإما سودًا وإما متخلِّفين (هيبليين) من جنوب أمريكا. وكان من اليهود ڤودڤليون، نعم، ومنهم الكوميديون (كالإخوة ماركس، وجورج بيرنز)، ولكن لم يكن منهم نجوم أفلام، وحتى عندما وُلِد الممثلون يهودًا في الأصل كان يغيّرون أسماءهم دائمًا، فجورج بيرنز كان نيثن بيرنباوم، وتحوّل إمانول چولندبرغ إلى إدورد جي روبنسن، وأصبح إِشُر دانيلوڤتش كِيرك دوچلس، ووُلِدَت هيدوِچ كيزلر مجدّدًا باسم هيدي لامار. ومع أن فلم *اتفاقية الشرف* قد يكون فاترًا، بحَبْكته المتكلِّفة ومواقفه المنافقة (يتظاهر صحفي غير يهودي بأنه يهودي حتى يكشف عن التحيزات ضد اليهود)، فمِنَ المُنَوِّر أن تنظر إلى الفلم بوصفه لمحةً عن وضع اليهود في المجتمع الأمريكي في عام 1947. هو ذا العالم الذي طَرَقته وأنت رضيع، ومع أنه من المنطقي الافتراض أن هزيمة الألمان عام 1945 كان متعيَّنًا عليها، أو بإمكانها، القضاء على ضد السامية إلى الأبد، فلم يتغير إلا القليل في داخل البلاد، فحصص القَبُول الجامعي لليهود كانت ما تزال سارية المفعول، وكانت النوادي والمنظمات ما زالت مقيَّدة، وكانت النكات اليهودية[1] ما زالت تثير ضَحِك الصِّبْية في لعبة البوكر الأسبوعية، أما شَيْلُك[2] فظلّ حاكمًا بوصفه الممثل الأساسي لشعبه. وحتى في البلدة التي ترعرعت فيها في انيوجرسي كانت توجد حواجزُ خفية وعوائق كنتَ أصغر كثيرًا من أن تفهمها أو تَلْحَظها، ولكن عندما رَحَل صديقك بِلِي مع عائلته في عام 1955، وعندما اختفى صديقك الآخر الطيّب پيتر في السنة التالية، وهذان كانا رَحِيلَيْن موجِعَيْن استعصيا عليك وأحزناك، شرحت لك أمّك أن كثيرًا من اليهود كانوا يرحلون عن نيوآرك متجهين إلى الضواحي، وأنهم هم

(1) الكلمة المستخدمة في الأصل هي kike، وهذه تعني يهوديًّا ولكنها ازدرائية في العامّية، وليس من سبيل إلى نقل معناها الازدرائي في الترجمة إلا ببيانه في الهامش هنا. [المترجم]

(2) الشخصية اليهودية المشهورة في مسرحية شكسبير *تاجر البندقية*، وصورته أنه مُرَابٍ جَشِع، وقصد أوستر أن شَيْلك هذا ظل يُصَوَّر كأنه يُلَخِّص في شخصيته الشعب اليهودي بأكمله. [المترجم]

أيضًا أرادوا امتلاك رقعة عشبية كسائر الناس، لذا فإن السكّان القدامى كانوا يرتحلون هاربين من هذا الفيض المفاجئ من مالكي المنازل غير المسيحيين. هل استخدمت أمك كلمة *ضد سامي*؟ لستَ تَذْكُر، لكن المقصود كان واضحًا: أن تكون يهوديًا يعني أن تكون مختلفًا عن الجميع، وأن تنأى بنفسك عنهم، وأن يُنظَر إليك بوصفك دخيلًا، فأدْركتَ حينها، أنت الذي عَدَدْتَ نفسك حتى تلكم اللحظة أمريكيًا قُحًّا، بل أمريكيًا كأي نَبِيلٍ كان على سفينة مايفلاور، أدركتَ حينها وجودَ أُناسٍ ظنّوا أنك لم تنتمِ إليهم، وأنك حتى في المكان الذي دَعَوْتَهُ وطنًا لم تكن في وطنك تمامًا.

أن تشكّل جزءًا من سائر الأشياء وأن لا تشكّل أي جزء، وأن يقبلك غالب الناس ومع ذلك أن يرمقك الآخرون بارتياب. بعد أن كنت تُسَلِّم بالرواية المُظَفَّرة عن الامتياز الأمريكي وأنت صبي صغير، بدأت تُقْصي نفسك عن القصة، وبدأت تفهم أنك انتمَيْتَ إلى عالم آخر إلى جانب العالم الذي عشت فيه، وأن ماضيك كان راسِيًا في مكان آخر في مستوطنات بعيدة في أوربا الشرقية، وأنه لولا امتلاك جدّك وجدتك من جهة والدك ووالِدَيْ جدك وجدتك من جهة أمك الحُنْكَة كي يغادروا هذا الجزء من العالم عندما فعلوا، فما كان تقريبًا لأحد منكم أن ينجو، ولَقُتِلَ كل واحد منكم في أثناء الحرب. لقد كانت الحياة محفوفة بالمخاطر، وكانت بإمكان الأرض أن تهبط من تحتك في أي لحظة، أمّا الآن وقد حَطَّت عائلتك في أمريكا، وأنقذتها أمريكا، فلم يَعْنِ هذا أنه كان لك توقّع أن أمريكا ستجعلك تشعر بأنك مرحَّبٌ بك. لقد تحوَّل تعاطفك نحو المنبوذين والمُحتَقَرِين والمُسَائي المعاملة، ونحو الهُنود الذين طُرِدوا من أرضهم وذُبِحوا، ونحو الأفارقة الذين شُحِنوا على متن السفن إلى هنا مُسَلْسَلِين، وحتى لو لم تتبرأ من صلة وَصْلك بأمريكا، ولم تفعل هذا لأنك عجزت عنه، فهي في النهاية تظل موطنك ودولتك، مع هذا فإنك بدأت العيش فيها مع حِسٍّ جديد من الاحتراز والقلق. لم تتوفر لك إلا فرص قليلة في عالمك الصغير كي تتخذ موقفًا حازمًا، ولكنك فعلتَ كل ما قدرت عليه متى ما سَنَحت لك المناسبة، إذ كنتَ تَرُدّ مُعارِكًا الصِّبْية الأكبر الشَّكِسِين في البلدة متى ما نادوك باسم الفتى اليهودي أو الحثالة اليهودية، ورَفَضتَ المشاركة في احتفالات عيد الميلاد المجيد في المدرسة، وأن تُنْشِدَ أناشيد عيد الميلاد في تجمّع العطلة السنوي، لذا سمح لك الأساتذة بالبقاء وحيدًا في الغرفة الصفية عندما كان سائر

الصفّ يمشون بضَجَّةٍ إلى الصالة حتى يتدرّبوا مع باقي صفوف مرحلتك الدراسية. ثم الصمت المفاجئ الذي يلتفّ بك وأنت قاعد على مكتبك، وتَكَّةُ عقرب الدقائق في الساعة الميكانيّة القديمة مع أرقامها الرومانية وأنت تقرأ قصص پو واستيڤنسن وكونان دويل، فكنتَ منبوذًا بشهادتك الخاصة، متمسِّكًا بموقفك بكلّ عِنادٍ، ولكنك فَخُور، ومع هذا فخور بِعِنَادِك، وبرفضك الادّعاء أنك شخص غير الذي كُنتَهُ حقًّا.

لم يكن الأمر في ذهنك متعلّقًا بالدين إلا قليلًا أو بالمَرَّة. كنتَ تضمُّ نفسك إلى قُوى العَجْز، متمنيًا إيجاد بعض المعنويّات أو المَنَعة العقلية بالاعتراف باختلافك عن الآخرين، لكن الكلمة يهوديّ دَلَّت على صِنف من الناس وليس على نظام لاهوتي، وعلى تاريخ من النضال والإقصاء بلغ أوجه في كوارث الحرب العالمية الثانية، ولم يُهِمَّك شيء إلا هذا التاريخ. مع هذا عندما كنتَ في التاسعة الْتَحَق والداك بواحدٍ من الكُنُس المحلية، وغنيّ عن القول أن الكنيسَ كان تجمُّعًا تابعًا لليهودية الإصلاحية، وهذه صِنفٌ مُبَسَّطٌ ومُخَفَّف من اليهودية أفضل ما خدمت أُناسًا كوَالِدَيْك، وأعني بهم اليهود الأمريكيين المتهاونين وغير المتديِّنين وغير الممارسين لدينهم، والذين سعوا إلى إعادة توكيد رِبَاطِهم بتقاليد أسلافهم. كي أقولها بخشونة، ولكن لا شك أن هذا صحيح: لقد كان هتلر هو المسؤول. لقد كان انتعاش الحياة اليهودية في أمريكا بعد الحرب نتيجة مباشرة لمعسكرات الموت، ولم يكن المحرِّك الذي دفع أناسًا مثل والديك كي يرتبطا معًا إلا محرِّك الذَّنْب، إذ كان خوفًا من أنه إن لم يُعَلِّم أولادهما أن يصبحوا يهودًا، فإن مفهوم اليهودية نفسه في أمريكا سيتلاشى حتى يغدو هباءً. لم يدرس والدك العبرية وهو صبيّ، ولم يعانِ مصاعِبَ التحضير للبار مِتزفاه،[1] أما أمّك التي كانت ابنة اشتراكيٍّ فإنها لم تحطّ بقدمها يومًا داخل كَنِيس، لكنهما تَوَاطآ معًا حتى يُجبراك على ممارسة ما لم يمارساه قطّ، لذا في شهر أيلول نفسه الذي دخلت فيه صفّك الرابع، كنتَ الْتحقْتَ أيضًا بالمدرسة العبرية، ما عَنَى أنك ستَحْضر دروسًا في كل ثلاثاء وخميس بعد الظهر من الرابعة إلى الخامسة والنصف، وفي كل سبتٍ صباحًا

(1) وهو الحفل الذي يُقام للصبيّ في سنّ الثالثة عشرة، فبلوغه إياها يعني دخوله سنّ المسؤولية وسنّ الواجب الديني، ففيها مثلًا تُقبَل أيمانه، ويُعاقَب على ذنوبه، ويكون على الصبي في الاحتفال إلقاء خطاب على الطاولة بإزاء الحضور المدعوّ، إلخ. [المترجم]

من التاسعة والنصف حتى الظُّهر. لقد كان يوجد ألف شيء آخر كنتَ لِتُفَضّل عَمَله، ولكنك لثلاث مراتٍ أسبوعيًّا وعلى طول أربع سنوات طِوَالٍ جَرَرْتَ نفسكَ كَرْهًا إلى سِجْنٍ من الملل، مُبغِضًا كل لحظة من احتجازك، ومتعلِّمًا ببطء مبادئ العِبْرية، ودارِسًا القصص الأساسية في العهد القديم، وغالبها أرْعَبَكَ حتى النخاع، وبخاصة قتل قابيل لهابيل (لِمَ رَفض اللّٰه قُربان قابيل؟)، ونوح والطوفان (لم قد يُريد اللّٰه تدمير العالم الذي خلقه هو بنفسه؟)، وتضحية إبراهيم الوشيكة بإسحق (ما نوع الإله هذا الذي قد يطلب من رجل قتل ابنه؟)، وسرقة يعقوب بُكُورِيّة أبيه من عيسو (لَمَ قد يبارك اللّٰه مخادعًا، ورجلًا بلا ضمير؟)، فكان هذا كله مؤكِّدًا لرأيك السلبي بالله، وهو الذي بدا لك بالتناوب سيكوباتيًّا غاضبًا ومُختَلَّ العقل، وطفلًا نَزِقًا، ومجرِمًا سَفَّاكًا وساخطًا ـ بل بدا شخصية خَطِيرة ومرعبة أكثر من إله خيالاتك الأولى. وما زاد الطِّين بِلَّةً أنك كنتَ عالقًا في صفٍّ مكوَّنٍ بأكمله من الأولاد، وغالبهم كان أقل اهتمامًا منك بأن يكونوا حيثما كانوا، وكانوا ينظرون إلى ساعات التعليم الإضافية الإجبارية هذه باعتبارها عقابًا ظالمًا على خطيئة أن يكون المرء حيًّا لا أكثر، وهم خمسة عشر أو عشرون وَلَدًا كثيرو الحركة ويملؤهم احتقارٌ متمرِّدٌ لأي كلمة ينطق بها الأستاذ، ولقد كان هذا الأستاذ حاخامًا مساعِدًا يحمل اسمًا غير ملائم وهو فِشْ Fish (سَمَكَة)، وهو رجل ضخم وقصير بوجه عريض وجَبْهةٍ شَمَّاء، قضى معظم وقته يتفادى الكرات الورقية الممضوغة [التي كانت تُرمى عليه]، صائحًا على الأولاد أن يخرسوا، وضارِبًا الطاولة بقبضته. الحاخام فِشْ المسكين! لقد رُمِيَ به في غرفةٍ مع زُمرةٍ من الهُنُود الجامحين، ولقد كانت تُسْلَخ فروة رأسه[1] ثلاث مراتٍ أسبوعيًّا.

غادرتَ والِدَيْك لأول مرة عندما كنتَ في الثامنة، وكانت هذه فكرتك، إذ توسَّلْتَ إليهم كي يسمحوا لك بالذهاب لرغبتك في أن تكون مع بِلِي مجدَّدًا، صديقك المُقَرَّب منذ كنتَ في سنِّ الخامسة، والآن ما دام انتقَلَ هو وعائلته إلى بلدة أخرى بعيدًا من المكان الذي أمْضَيْتُما فيه السنين الثلاث الماضية معًا، فإن فرصتك الوحيدة كي تراه لن تكون إلا بالذهاب إلى المخيَّم الصيفي الذي الْتَحَقَ به هو وأخوه الأكبر في

(1) إشارة إلى اعتقاد شُيُوع هذه الممارسة بين الهُنُود الحُمر. [المترجم]

انْيُوهَمْشَيْر (New Hampshire)، وهو مخيَّم صيفي تُمضَى الليالي فيه خارجًا ويستمرّ لثمانية أسابيع، من بداية تمُّوز إلى نهاية آب، وهذه مُدة طويلة لصبيٍّ صغير لم يغادِر المنزل يومًا ألبتة لأكثر من ليلة. تَرَدَّدَتْ أُمُّك خَشْيَةَ أن فِرَاقًا طويلًا كهذا قد يصعب عليكَ التعامل معه، لكنها وافقت في النهاية مع والدك حتى لا تُخَيِّب أملك (أو لعلها فعلت هذا لجَهْلها في أي شيء آخر كان لك أن تُمضِيَ الصيف). تُعرَف منطقة انْيُوهَمْشَيْر في الشمال المركزي بالجبال البِيض (White Mountains)، ولقد احتاجَتْ إلى رحلة طويلة بالسيارة من انيوجرسي في 1955، إذ لم تكن توجد طُرُقٌ سريعة بين الولايات آنذاك، أو في الأقل ليس في ذاك الجزء من الدولة، وإنك تتذكر هذه النزهة التي لا تنتهي بالسيارة مع والديك، قاعدًا في الكرسي الخلفي لعشر، وإحدى عشرة، بل ربما لاثنتي عشرة ساعة، وتتساءَل الآن إن كانت الرحلة لم تمتد على طول يومين، مع وَقفة قصيرة للنوم في نُزُل أو استراحة مسافرين (موتيل) في منتصف رحلتك الطويلة المتجهة شمالًا. يستحيل تذكُّر هذه الجزئية، إذ إنك لا تتذكر توديعَكَ والديك عندما تَرَكاك في المخيم وطفقا عائدَيْن بالسيارة، وهذا ما يعني أنه مهما كان الذي شعرتَ به أو فكرتَ فيه آنذاك فإنه صار عصيًّا على التذكر الآن ـ أكان حُزنًا أم فرحًا، أم ارتياعًا أم حماسةً، أم شكوكًا ورغبةً في التراجع أم إصرارًا أَنوفًا، لا تدري ألبتة. إن أوضح ما تتذكره من هذه الأسابيع الثمانية هي الروائح: عَبِيرَ الغابات الصنوبرية المحيطة بك، والأريج الجافّ لشَمْسِ الأصيل وهي تُسَخِّن الغُبَار على الطرق الترابية المطروقة كثيرًا بين مقصورتك وقاعة الطعام، ورائحة المِبْوَلة، وكانت هيكلًا خشبيًّا بدائيًّا مع قناة تَبَوُّل طويلة وصَفٍّ من الأكشاك التي كانت فيها المراحيض ولا أبواب لها، فكنتَ تشتمَّ نَتَن البول كلما دخلتَ المِبْوَلة، كأنه نَفْحَة من الأمونيا تحرق مِنْخَرَيْك من الداخل، حرِّيفٌ وشديد ولا يُنسى أبدًا. ليالٍ باردة تحت بطَّانيَّات خُضر من الصُّوف، وحفلات سَمَرٍ هندية مزيَّفة حول النار تُعَظِّم فيها روائع الطبيعة وإحسان **الروح العظيم**، وكل الأولاد يلبسون عصاباتٍ مع رِيشٍ رماديّ ناتِئ منها، وكرة القاعدة، وركوب الخيل، والرمي بالسهام، وإطلاق النار ببنادق من عيار 0.22 في ميدان الرِّمَاية، والسباحة في البحيرة عُرَاةً. لقد شعرتَ بنفسك نائيًا عن كل ما كان في المخيَّم، وأبعد كثيرًا من كل ما كان مألوفًا لديك في أي وقتٍ في حياتك، فكأنَّ الرحلة الطويلة بالسيارة أخذتك

إلى حافةِ العالم. لكن الغريب أنك لا تتذكر الكثير عن بِلِي أو الصِّبْية الآخرين، إذ يبدو أن الجِدَّة المستمرَّة التي أُغْدِقَت عليك كل يوم أبادَتْ كل التفاصيل تقريبًا، فلم يظلّ بادِيًا لك بوضوح إلا حَدَثان: كان الحدث الأول زيارة جدِّك إيَّاك، وهذه كانت غير متوقَّعة ومُفَاجِئة تمامًا، وجدُّك هذا هو والد أمِّك، إذ وقف في طريقه إلى ولاية مَيْن (Maine) وهو ذاهب إلى عطلته السنوية التي تمتدّ أسبوعًا مع أصحابه الذكور، وكان نشاطهم الصباحي الرئيس هو «صيد الروبيان»، وهو ما يبدو غلطًا في التسمية، ما دام المرء لا «يصيد» الروبيان كما يصيد السمك،[1] بل كان يُصَادُ بإسقاط أقفاص خشبية في الماء على أمل أن يتسلل الروبيان داخلها، وفي أثناء هذا يكون المرء جالسًا في زورق تجديف، ونشاطٌ كهذا بدا لك تَسْرِيَةً مُمِلَّة، لكن «صيد الروبيان» ربَّما عَنَى أيضًا الشُّرب والتدخين ولعب البوكر وإلقاء نِكَاتٍ بذيئة، ودَعْ عنك المداعبات الجنسية الفَظَّة، إذ كان جدُّك بَدِيعًا في النِّكَات وفي مداعبة النساء اللواتي لم يكنّ زوجاته، بل كان رُوحَ الحفلة لِمَا فيه من حيوية وَوُدّ، فأحببته كثيرًا. وَصَل في يوم زيارته عندما كنتَ في منتصف فترة استراحة ما بعد الغداء، وكانت فترة فراغ تمتد لساعة وتجيء قبل بداية نشاطات ما بعد الظهر، وفي هذا اليوم بالذات غَطَتَّ في النوم بدلًا من أن تقرأ أو تكتب الرسائل كما فعلتَ عادةً، ولمّا كنتَ كصبيٍّ تنام كما لو كنت في غيبوبة، فتفقد وعيَكَ تمامًا حتى يُعْجَز أو لا يمكن إلا لقليل من الأشياء أن توقظك من نومك، لا البَرْد ولا الرعد، ولا البعوض المُنْثَال عليك ولا أصْخَب فرقة زاحفة، لذا فإنك في يوم زيارة جدِّك، عندما استطاع أخيرًا واحدٌ من مرشديك أن يوقِظَك، نَهَضْتَ من غَفْوَتِك ورأسك مُشَوَّش، فما زلتَ نِصْفَ نائمٍ، وبالكاد مُدرِكًا مَنْ كُنت، بل حتى إن كنتَ موجودًا حقًّا، فتَعَثَّرْتَ طريقك خارجًا للعثور على جَدِّك الذي كان ينتظرك في المكتب قُرب مدخل المُخَيَّم الرئيس. لا شك أنك كنتَ سعيدًا لرؤيته، ولكن لأنك لم تعد إلى رشدك تمامًا بعدُ وما زلت تناضل حتى تُكَفْكِفَ عن نفسك ما كان فيك من غِشَاوة وتشوُّش، صعبَ عليك التحدث والإجابة عن أسئلته بِجُمَلٍ أطول من كلمة أو كلمتين، وكنتَ محتارًا

(1) الكلمة المستخدمة في الإنكليزية مقابل «صيد» هي Fishing، ومعناها الحرفي «صيدُ السمك»، لذا فالقصد أن المرء لا يصيد الروبيان بالطريقة التي يصيد بها السمك. كان يمكن أن نترجم الكلمة بالمقابل «تَسْمِيك»، فنقول «تسميك الروبيان»، لكن ما من داعٍ مُلِحّ مع غرابة مقابل كهذا. [المترجم]

طَوالَ حديثك الوجيز معه إنْ كنتَ ما تزال نائمًا وإنْ كان يُهيَّأ لك فقط أن جدك موجود هناك، إذ كانت هذه المرة الأولى التي تراه فيها دون بِذلته وربطة عنقه وقميصه الأبيض، فلم يبدُ جدُّك الأصلع والبدين مألوفًا ألبتة بهذا القميص الزاهي والقصير الكُمَّيْن مع قَبَّة مفتوحة، وقبل أن تأخذ راحتك في أحد أحاديثك المُنْسابة عن كرة القاعدة، وهي رياضة تابعها جدك بحرارةٍ تماثل حرارة متابعتك إياها، ضربَ جدُّكَ رُكبَتَيْه ثم نَهَض قائلًا إن عليه أن يمضي قُدُمًا. كان حاضرًا للحظة ـ ثم اختفَى، كأنه شَبَح شِرِّير. شعرتَ بالقرف من نفسك لأنك لم تتصرف بنحو أفضل، ولأنك سَلَكْتَ كما تسلكُ كُتلَةٌ غبية من اللحم، لكن قرفك من نفسك زاد بعد أيام أو أسابيع عندما استيقظتَ في صباحٍ ما لتكتشف أنك بَلَّلْتَ سريرك. لقد عَذَّبَتْك هذه المشكلة طوال صِبَاك، فلقد كانت اللعنة التي حملتها أطوال بكثير من ما كان لائقًا لصبيٍّ بسِنِّك، بعد الخامسة، وبعد السادسة، ثم سنةً بعد سنة وظلّ يُرافقك ذُلُّ الغِطَاء المطاطي الذي كان يُمَدُّ تحتك لحماية المَرْتَبة، ولم يكن هذا لعِلَّة سيكولوجية أو ضعف في مثانتك كما قالت والدتك (من يَعْلَم إن كانت صادقة أم خاطئة؟)، بل الأمر لا يخرج عن أنك كنتَ تستغرق في النوم، إذ لم تكن ذِرَاعا [إله النوم والأحلام] مُرفِيُوس تُطَوِّقانِك في حِضنه فقط، بل كانتا تسحقانك وتخنقانك، وما أكثر ما كانت أُمُّك في تلك الأيام المبكرة تمشي برفقٍ داخلةً غرفتك في هَدأة الليل لإيقاظك والذهاب بك إلى الحمَّام، وما أكثر ما كافَحَتْ لسَحْبِكَ من أرض الأحلام فَفَشِلَت! ببلوغك السادسة أو السابعة تغلَّبتَ إلا قليلًا على هذا القصور، فعادَ خِزْيُ سَلَسِ البول الذي كنتَ تعاني منه في الليل لا يكون عذابًا متواصلًا لك، ولكنك كنتَ أحيانًا ترتدُّ إلى عادتك القديمة، إذ تحصل مجدَّدًا مرةً في كل شهر أو شهرين، وكان الاستيقاظ للشعور الكريه بالأغطية الباردة والرَّطبة في هذه المرحلة من حياتك أمرًا محبطًا كثيرًا وصبيانيًّا بنحو لا يحتمل، ما حَمَلَك أحيانًا على الشكّ في أنك ستكبر أبدًا. وهأنتَ الآن في سن الثامنة فعلتها مجدَّدًا، ولم يكن هذا في الحَرَم الآمن الذي هو منزل العائلة، حيث كان الجميع عالمًا بحالتك فلم ينبسوا بأي كلمة تتعلق بالأمر، بل في الفضاء العام لمقصورة المخيَّم الصيفي المسكونة بسبعة صِبْية آخرين ومرشِدٍ في بدايات عشرينيَّاته. حدَثَ هذا لحُسْن الحظ في يوم أَحَدٍ، وكان هذا اليوم الوحيد الذي يرنُّ فيه المُنبِّه في وقت متأخر قليلًا عن المعتاد، فيُمَدُّ وقت الفطور لساعة

ونصف بدلًا من ثلاثين أو خمسٍ وأربعين دقيقة، لذا انتظرتَ حتى غادر سائر الصِّبية المقصورة إلى قاعة الطعام، فتسلَّقتَ خارجًا من السرير، وخلَعتَ بِجَامتك المبتلَّة ووضعتها في حقيبة الغسيل الخاصة بك، ولمَّا انضممتَ إلى الآخرين على طاولة الفطور، قعدتَ معهم وفزَعٌ متصاعدٌ أبدًا يلفُّ بك، متسائلًا عمّا عليك فعله تاليًا، فالتبوُّل في سريرك كان سيئًا بما فيه الكفاية، وكان سُبَّةً في وجه إِبَائِكَ وكرامتك الصبيانية، ولكن ما جاوزه في السوء كان الخوف من أن تُكشَف ويستَهزَأ بك من قِبَل الأولاد الآخرين فتُوسَمَ طوال عمرك بأنك طفل، وأحمق، وشخص أدنى من أن يُبغَض. كان الوقت ينقضي، ففي غضون خمس عشرة أو عشرين دقيقة أخرى سيرجع الأولاد إلى المقصورة، ولجهلك إلى من تلجأ، قرَّرتَ المخاطرة للحديث مع مُرشِدِك، وكان شابًّا اسمه جورج، وهو شخص هادئ وجِدِّيّ لم يعاملك حتى ذلك الوقت إلا بلطف، ولكن ما يُدرِيك إن لم يكن ليضحك عليك عندما تُدلي باعترافك؟ ومع هذا مَن غير جورج لديه الصلاحية لإطلاقك من قاعة الطعام والسماح لك بالإسراع عائدًا إلى المقصورة؟ لم تملك أي خِيار، فكان عليك التحدث معه آملًا الأفضل، لذا وقفتَ ومشَيْتَ نحو جورج الذي كان قاعدًا على صَدْرِ الطاولة، فهمستَ في أذنه أنك وقعتَ في حادث ورَجَوْته أن يسمح لك بالذهاب الآن ليُمكنك غسْلُ غطاء سريرك وتعليقه حتى يجفّ على حبل الغسيل خلف المقصورة، فنكَّسَ جورج برأسه موافقًا وأخبرك بالذهاب. كذا كان الأمر لا أكثر ـ فكأنها معجزةٌ غير متوقَّعة من العَطْفِ والتفهُّم، ولكن هذا لم يكن غريبًا في نهاية المطاف، إذ أَسَرَّ لك في وقت لاحق من اليوم نفسه أنه عانى من زَلَّاتٍ مشابهة عندما كان في سِنِّك. لقد كان رفيقًا في الأخويّة السرية الجامِعة لِمُبَلِّلِي السرير المَكْرُوبين والمذنبين! فانطلقتَ حينهَا عَدْوًا إلى المقصورة، مُجَرِّدًا الغطاء الأدنى من سريرك، الغطاء الأبيض مع بقعته الصفراء الفاضحة للجريمة، وكانت تبدو كأنها خريطة فرنسا، ثم ركضتَ إلى المِبْوَلة، إلى بيت البَوْل الكريه الرائحة مع ما احتوى عليه من صُنَانٍ فاسِدٍ يغمر كل شيء، فنظَّفتَ الغطاء من البقعة في أحد الأحواض، ولم يمسك بك أحدٌ قطّ. لقد حَمَتْكَ رحمةُ جورج من الإهانة المطلقة، والخِزْيِ المُذِلّ الذي كنتَ لتقع فيه لو كُشِفْتَ، لكنها كانت نجاةً بأعجوبة، ومسألة دقائق أو حتى ثوانٍ، ولقد كان قلبك الخَفَّاقُ دليلًا على مقدار ما كنتَ خائفًا.

لمَ العَوْدة بالذكرى إلى هذه القصة الآن؟ هذا الاحتكاك القديم بالخوف الذي انتهى بالأحرى ليكون في صالحك في نهاية المطاف، وكان كذلك حقًّا حتى إنك تمَلَّصْتَ منه دون معاناة أي عواقب توقَّعتها بفزعٍ طاغٍ. أعود بالذكرى إليها لأنه وُجِدَت عواقب أخيرًا، حتى لو لم تكن تلك التي جعلت قلبك يخفق بشدَّة عندما كنتَ خائفًا. كان فيكَ عيبٌ من الضروري إخفاؤه عن العالم، ولمّا كان مجرد التفكير في أنك قد تُكشَف مَلَأَك ببؤسٍ يقصر الخيال عن تصوُّره، كان عليك أن تُنَافِقَ وتظهر للعالم وجهًا ليس هو بوجهك الحقيقي. في ذاك اليوم نفسه، عندما أَسَرَّ لك جورج باعترافه كاشفًا لك عن أنه عاشَ أيضًا سابقًا السِّرَ نفسه، خَطَرَ في بالك أن لغالب الناس أسرار تخصُّهم، بل لعل الناس أجمع لديهم أسرار، فيكون لدينا كونٌ كامل من الناس الماشين على الأرض بقُرُونٍ من الإثم والخزي تطعن قلوبهم، وكلّ واحد منهم مُجبَر على أن يُنافِق ويُظهر للعالم وجهًا ليس هو بوجهه الحقيقي. ما الذي عناه هذا عن العالم؟ أن كل مَن يعيش فيه مستُورٌ بعض الشيء، ولمّا كنّا جميعًا حقيقةً غيرَ من نَبْدُو أننا إياه، فيكاد يكون مستحيلًا أن نعرف حقيقة أيٍّ كان.

سيكون من المبالغة القول إنك اشتقتَ إلى البيت في ذاك الصيف، فلم تَصْبُ إلى والديك، ولم تكتب رسائلَ تشكو فيها وَضْعَكَ كما لم تشعر بأي رغبة في أن يُنقِذك أحدٌ ما، كلّا، بل كنتَ راضيًا إلى حد معقول في أثناء إقامتك الطويلة كلها في غابات الصنوبر في انيوهمشير، ولكنك لم تكن في حالة مقبولة كثيرًا، وشعرتَ بنفسك مُنْهَكًا ووحيدًا، ولمّا حَلَّت السنة التالية وسألت أُمك إن أَرَدْتَ العودة إلى المخيم، جاوبت بالرفض، إذ فَضَّلت البقاء في البيت وقضاء الوقت في لعب كرة القاعدة مع أصدقائك. لكن هذا القرار لم يكن أحكم القرارات كما ظهر لاحقًا، إذ مع أنك لعبتَ كرة القاعدة يوميًّا لثلاث أو أربع ساعات، ظلَّت توجد ساعاتٌ أخرى لا تلعب فيها وعليك أن تملأها بشيء ما، هذا دون قول أي شيء عن الأيام التي يكون فيه الصباح مُخْضَلًّا بالمطر فتعجز عن اللعب تمامًا، كل هذا عنى توفُّر الكثير من الوقت بين يديك، لذا كنتَ عاطِلًا لِمُدَدٍ طويلة جاهلًا ما تفعل مع نفسك، وحتى لو كانت هذه الفترات مُغْنِيَةً لكَ حقًّا في نهاية المطاف، فإنك بالأحرى شعرتَ بالضياع في صيف عام 1956. مع هذا حصلتَ حينها على أول دراجة هوائية امتَلَكْتها، وكانت برتقالية بِعَجَلَيْن مع مكابح

تضغط عليها بالقَدَم، ومع إطار عجلات ثخين اشتراه والداك لك عندما كنتَ في السادسة (وفي السنة التالية ارتقيتَ إلى دراجة أكبر لتُنَاسِبَ جِسمك النَّامي، فكانت مصقولة وسوداء، مع مكابح تعمل باليد وإطارَيْن نحيفين)، وكنتَ في كل صباح تركب هذه الدراجة الهوائية الصغيرة جدًّا وتقود بها إلى بيت صديقك بيتر جي الذي كان يبعد عنك نحو ربع ميل. كان ملعب كرة القاعدة في حديقة بيتر الخلفية، ولم يكن ملعبًا نظاميًّا بالطبع، ولكنه كان مِسَاحة مفتوحة يملؤها عشب تالف ووحل بَدَت وافِرَة في نظرك آنذاك، أو في الأقل كافية لأشواط يلعبها صِبْيَة في سن التاسعة، وكانت قواعد الملعب عبارة عن أحجار، وعلى الأرض الجرداء (الخالية من العشب) ثُبِّتَ مُثلث ليعمل عمل قاعدة اللعب [التي يقف ضارب الكرة إلى جانبها]، وفي الصباح المعتاد يجتمع منكم ثمانية أو عشرة في هذه الحديقة مع قُفّازاتكم ومضاربكم وكراتكم، فتقسمون أنفسكم إلى فريقين، فيتموضع أعضاء كلا الفريقين متناوبين على مواضع مختلفة [لإمساك أو إيقاف الكرة] لأن الجميع أراد امتلاك فرصة ليرميَ الكرة جولةً في كل لعبة، وقد لعبتم كثيرًا،[1] مباراتَيْن كل يوم، وأحيانا ثلاث مباريات، وقد كنتم جميعكم جادِّين في لعبكم، فاجتهدتم فيه وتابع كل واحد منكم عدد الضربات التي ضربها فأصابت الهدف[2] (والضربة هذه كرة طائرة تقع في الشجيرات[3] بعد رقعة الملعب اليُسْرَى)، ولذا أمضيتَ أمتع ساعات هذا الصيف تلعب في ملعب مؤقت في حديقة صديقك الخلفية، ضاربًا خمسين ضربة هدف، بل مئة، بل خمسمئة نحو الشجيرات.

لقد أُعجِبْتَ ببيتر أكثر من أي ولد آخر في صفِّك، فقد حلَّ محلَّ بِلِي ـ الذي صار غائبًا الآن ـ كأقرب صديق إليك، ولكنه لن تمر سنة إلا وسيغادر هو أيضًا، مرتحلًا

(1) المباراة الواحدة تسعة أشواط في الأصل، وفي العادة تكون سبعة أشواط في المدارس الثانوية. [المترجم]

(2) إصابة الهدف هنا مجازية، إذ لا هدف على الحقيقة في كرة القاعدة بمعنى الهدف في كرة القدم مثلًا، إنما هي محاولة لترجمة المصطلح to hit home run، وهذا في كرة القاعدة يعني أن تضرب الكرة بالمضرب ضربةً تخرج من رقعة اللعب الداخلية (أي خارج مجال الضَّارِب) فيملك الضارب الوقت ليدور على القواعد الثلاثة ثم يصل قاعدة اللعب (الـ home plate) ويسجِّل نقطة. [المترجم]

(3) الموجودة في حديقة المنزل. [المترجم]

إلى بلدة أخرى ومختفِيًا من حياتك إلى الأبد. إنك تجهل سبب رحيل عائلته، لذا لن تنسب الأمر إلى حقيقة أن كثيرًا من اليهود كانوا يستقرُّون في الحَيِّ، فهذه هي الطريقة التي مالت أُمُّك إليها لتفسير كل أمثلة الارتحال هذه، ولكن لا شكّ أن عائلة صديقك نظرت إليك باعتبارك شخصًا من عالم مختلف، وبخاصة جدّه السويدي، وكان مُسِنًّا بشعر أبيض ولهجة إنگليزية ثقيلة، وهو نفسه الذي طردك من المنزل يومًا بعد الظهر في إحدى فَوْرَات غضبه عليك، فحرَّم عليك أن تخطو مجددًا إلى المنزل. كان هذا بالتأكيد بعد صيف لعب كرة القاعدة في الحديقة الخلفية بقليل، لعله في بداية أيلول، قبل أن تقابل وَيْتي فورد الحقيقي أو غير الحقيقي بنحو شهر، ففي يوم من الأيام بعد انتهاء الدوام المدرسي عدتَ أنت وبيتر إلى منزله، ولمّا كانت تمطر في مساء ذاك اليوم ظللتَ أنت وإياه في الداخل، ثم نزلتما أخيرًا إلى الطابق السفلي لاستكشاف القبو، ومن بين صناديق التعبئة وشِبَاك العنكبوت وقطع الأثاث المهملة، وجدتما مجموعة قديمة من مضارب الچولف صعقتكما بوصفها استكشافًا مهمًّا، إذ لم يمسك أحدكما في يديه من قبل ألبتة مضرب چولف، لذا في البُرهة التالية تداورتما على التلويح بمضرب چولف حديدي في الجو الرطب لتلك الغرفة تحت الأرضية، وقد تناوبتما بالدور لأن القبو كان مكتَظًّا بالأغراض ولم تكن توجد مِساحة كافية لِيُلَوِّحَ كِلاكما معًا في الوقت نفسه. ثم في لحظة ما، ودون علمك، إذ كنتَ على وشك بدء جولة تلويح تدريبية أخرى، تسلَّل بيتر من خلفك حتى يلقي نظرة أمْعَن، ولقد تَسَلَّل قريبًا منك كثيرًا فدخل المساحة التي شملت القوس الذي تصنعه تلويحتك إلى الخلف، ولمّا لم تستطع سماعه ولا رؤيته، دفعتَ بذراعيك الممدوتَيْن تمامًا إلى الخلف والمضرب بين يديك، غير متوقِّعٍ أن تقابل أي مقاومة، وواثقًا بأن تلويحتك الخلفية ستُحَلِّق دون أن يصدَّها شيء عبر الهواء الخالي، ولكن لأن بيتر تجاوز العَتَبة غير المرئية لما كان ينبغي أن يكون هواءً بأكمله ولا شيء آخر، فإن تلويحة مضربك الخلفية اعترِضَت في منتصف تحليقها عندما ضربت شيئًا صلدًا، وبعد أن وُقِفَت تلويحتك الخلفية بلحظة سمعتَ صرخةً، صرخة مفاجئة وشعواء تُدَوِّي في مواجهة جدران القبو، لقد ضرب طرفُ المضرب جبين بيتر مباشرة، فاخترق الجلد، وكان الدم يتدفق من الجرح، وكان صديقك يزعق أَلَمًا، أما أنت فذُعِرْتَ وخِفْتَ كثيرًا، فلم تكن مذنِبًا ولكنك مُلِئت

بالشعور بالذنب، وقبل تمكُّنِكَ من فعل أي شيء لمساعدة بيتر كان جدُّه ينزل الدرج مُهرَعًا إلى القبو، فدفع بك جانبًا وأمركَ بمغادرة المنزل. فهمتَ حتى في ذلك الوقت لِمَ كان بالغ الغضب، إذ بدا طبيعيًّا تمامًا له أن يخرج عن طوره في تلك اللحظة، إذ كان حفيده يَعُول وينزف قُبالة ناظره بعد أن شَقَّ جبهته مضرب چولف، وحتى لو لم يكن خطؤكَ تمامًا، فإنك كنتَ مسؤولًا عن جرح ولده المحبوب، لذا صاحَ في وجهك. لكن حتى لو كان غضبه مفهومًا بالنسبة إليك، فينبغي القول إنك نادرًا ما شهدت غضبًا بهذه الدرجة، ولعلك لم تشهد غضبًا مثله قطّ، فقد كان غضبًا جسِيمًا، ثورةً من الحَنَق جديرة بإله العهد القديم، أعني يَهْوَه الحَقُود والسَّفَّاك الذي رافق أَظْلَمَ أحلامك، وإذ كنتَ تستمع إلى الرجل المُسِنّ يصيح عليك، اتضح لك سريعًا أنه لم يكن فقط يصرفك إلى منزلك، بل كان يحرمك من دخول منزله إلى الأبد، قائلًا لك إنك لم تكن صالحًا، بل كنتَ ولدًا خبيثًا، *وإنه لا يحترم نوعك*. لقد ترنَّحت خارجًا من هناك شاعرًا بالإهانة ومهزوزًا وتَعِسًا لما فعلتَ ببيتر، ولكن ما جاوز هذا سوءًا كانت كلمات الرجل المسنّ وهي ترنُّ في ذهنك، فما الذي عناه *بنوعك*؟ كذا كان تساؤلك. ألعله يعني نوع الأولاد الذي يضرب أصحابه بمضارب چولف ويجعلهم ينزفون، أم تراه يعني شيئًا أشْأم، لطخة على نَفْسِك لا يمكن محوها أبدًا؟ أكانت *نوعك* ببساطة طريقة أخرى ليدعوك باليهودي القذر؟ ربما، وربما لا، ولكنك لمّا أخبرتَ في ذلك المساء أُمَّك عن المضرب الحديدي، وعن الدم، وعن جدِّ صديقك، فإن كلمة *ربما* لم تمرّ من شفتيها ولا مرة واحدة.

ذهبتَ في الصيف التالي مجدّدًا إلى المخيَّم في انيوهمشير. لم تنجح تجربة الوقت غير المنظَّم إلا قليلًا، وهو ما أعني به أنها فشلت في جزء كبير منها، لذا طلبتَ مجدَّدًا الذهاب شمالًا في تمُّوز وآب، فوافق والداك اللذان لم يكونا غنيَّيْن ولا فقيرين، بل كانا ميْسورَيِ الحال كفايةً ليدفعا مئاتٍ عديدة من الدولارات ثمن إرسالك إلى المخيم. صار تبليل السرير الآن من الماضي، ولكن إلى جانب هذا الإنجاز المشكوك في قيمته مع أنه ضروري، كان كل شيء متعلِّق بك مختلفًا أيضًا. لقد كانت الفجوة بين الثامنة والعاشرة أكثر من مجرد مسافة بين سنتين، بل مثَّلَتْ هُوَّةً من العقود، ووثبةً هائلة من فترة من حياتك إلى فترة أخرى، بمسافة تساوي تلك التي ستقطعها مع الوقت مثلًا من

العشرين إلى الأربعين، والآن بحلول عام 1957 صرتَ شخصًا أضخم وأقوى وأذكى من ما كنته في عام 1955، وأقدَر بأشواط على التغلب على جميع جوانب حياتك، وصبيًّا أكثر استقلالية حتى اقْتَدَرَ على الزحف بعيدًا عن والديه دون أدنى وَخْزَةٍ من القلق أو الندم. عشتَ في الشهرين التاليين في مدينة كرة القاعدة، فكانت اللحظة التي كوَّنتَ فيها أعظم وأشَدّ ارتباط عاطفي بالرياضة، ولعبتها يوميًّا، ليس فقط في أوقات الأنشطة النظامية في الصباح والمساء، بل حتى في الوقت الحر في ساعات ما بعد العشاء، عاملًا بعناية على أن تصير لاعبًا أفضل بين القاعدتين الثانية والثالثة، وضاربًا أحْزَم، ولكن حماستك للعبة كانت من الشدة بحيث كنتَ تتطوع لتقف فيها كَمَاسِك، مُلْتَذًّا بالتحدي الذي يفرضه هذا الموضع غير المألوف، وشيئًا فشيئًا بدأ المرشدون الذين توَلَّوْا تدريبات كرة القاعدة بملاحظة سرعة تحسُّنِك، والخطوات السريعة التي خطوتها في غضون أسابيع قليلة، وبحلول منتصف الصيف رُفِّعْتَ إلى فريق الصِّبْيَة الكِبَار في الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة الذين سافروا حول الولاية ليُبَاروا فِرَقًا من مخيَّمات أخرى، ومع أنك كافحتَ في البداية للتكيُّف مع الحجم الجديد لرُقعة اللعب الداخلية (صارت المسافة تسعين قدمًا بين القواعد بدلًا من ستين، وستين قدمًا وستة إنشات من منطقة الهضبة إلى قاعدة اللعب بدلًا من خمسة وأربعين قدمًا، فهذه المقاييس المعيارية لجميع ملاعب كرة القاعدة)، لقد وثق المدربون بك، فكنتَ اللاعب ما بين القاعدة الثانية والثالثة والضارب الافتتاحي، وأصغر لاعب في الفريق، لكنك اقتدرتَ على مجاراة الجميع، وكنتَ مصَمِّمًا على أن تُبْلِيَ حَسَنًا حتى إنك صَرَفت من ذهنك جميع أفكار الفشل، وعاقبت نفسك على كل خطأ ارتكبته في الرَّمْي وعلى كل مرة طُرِدْتَ فيها، ومع أنك لم تتفوق على الصِّبية الأكبر فإنك لم تُسَبِّب الخزي لنفسك. ثم جاءت المائدة النهائية، وهي الوليمة الاحتفالية الضخمة التي تشير إلى نهاية الصيف، وعَشَاء الجوائز الذي تُسَلَّم فيه كؤوسٌ متباينة إلى الأولاد الذين انتُقُوا بوصفهم أفضل السباحين، وأفضل الخَيَّالة، وأفضل المواطنين، وأفضل مُخَيِّم متعدد المواهب، إلخ، ومن ثَم سمعتَ اسمك فجأةً يَستدعيه رئيس المرشدين معلِنًا أنك فزتَ بكأس كرة القاعدة، ولم تكن متأكِّدًا إنْ كنتَ سمعتَه على نحو صائب، إذ لم يكن ممكنًا أن تفوز، فقد كنتَ صغيرًا جدًّا، وعلمتَ تمام العِلم أنك لم تكن أفضل

لاعب كرة قاعدة في المخيَّم ـ قد تكون الأفضل لِسِنِّك، لكن هذا يختلف كثيرًا عن أن تكون الأفضل من بين الجميع. مع هذا فإن المرشد استدعاك إلى المِنَصَّة، إذ أرادوا منحك الكأس، ولمّا كان أول جائزة تتَسَلَّمها، شعرتَ بالفخر لكونك على المنصة تُصافح رئيس المرشدين، حتى لو كنتَ مُحرَجًا قليلًا. مرت دقائق قليلة فتنَصَّلتَ من قاعة الطعام للذهاب إلى المِبْوَلة، هذا المكان المُنتِن والآسن الذي لن يُمحَى من ذاكرتك، فوجدتَ هناك أربعة أو خمسة من زملاء الفريق الأكبر منك، واقفين متكاسلين يتحادثون في ما بينهم، فكانوا يرمقونك بعدَاء ونُفُور، ولمّا فرَّغتَ مثانتك في قناة البول أخبروك أنك لم تستحقَّ الفوز بالكأس، وأنه كان ينبغي أن يكون من نصيب واحد منهم، ولأنك لم تكن إلا غِرًّا ذا أعوامٍ عشرة، لعله كان عليهم أن يوسعوك ضربًا ليُذَكِّروك بموضعك، أو أن يحطّموا كأسك كبديل، ولعل الأفضل من هذا كله كان أن يحطموا كأسك ثم يحطموك. كنتَ بدأتَ حينها بالشعور بالخوف من تهديداتهم، لكن الرد الوحيد الذي خرجتَ به كان الحقيقة: قلتَ لهم إنك لم تطلب الجائزة، ولم تتوقع الفوز، وحتى لو وافقتهم في أنه لم يُفترَض أن تفوز، فما كان يمكنك فعله بإزاء هذا الآن؟ عندها مشيتَ خارجًا من المِبْوَلة ورجعتَ إلى العشاء. لم يوسعك أحدٌ ضربًا ولا أحد حطَّم كأسك في ما كان بين تلك الليلة ووقت رحيلك عن المخيَّم بعد يومين.

كنتَ تتقدم ببطء نحو نهاية مرحلة صِبَاك. لقد أقحَمَتْكَ السنتان بين العاشرة والثانية عشرة في رحلة لا تقلُّ هَوْلًا عن تلك التي كانت بين الثامنة والعاشرة، لكن لم تشعر قطّ يومًا بعد يوم بأنك كنتَ تمضي مُسرِعًا، مندفعًا قُدُمًا نحو حافَةِ بُلُوغِك، فالسنين كانت تتصرَّم ببطء آنذاك، على عكس الوضع الآن، إذ ليس عليك إلا أن ترمش بعينيك لتكتشف أن غدًا عيد ميلادك مجدَّدًا. وبحلول سِنِّك الحادية عشرة كنتَ تتحول إلى مخلوقٍ ينتمي إلى الدَّهماء، مكافِحًا في تلك الفترة الشنيعة من حال التَّفَكُّك التي تكون في مُقتبَل البلوغ، عندما يُقذَف بالجميع في العالم الأصغر للمجتمع المغلق، وعندما تبدأ العصابات والشِّلَل بالتشكُّل، وعندما يكون بعض الناس من ضمن المجموعة وبعضهم خارجها، وعندما تصير كلمة *ذائع* مرادفة لكلمة *رغبة*، وعندما تنتهي حروب الصِّبَا بين البنات والأولاد ويبدأ الافتتان بالجنس الآخر، وهي فترة قوامها وعيٌ شديدٌ بالذات، وعندما تنظر إلى مظهرك الخارجي باستمرار، قلقًا ومتسائلًا كيف يراك الناس

ـ كل هذا يجعل هذه المرحلة وقتًا مملوءًا باللَجَبِ والسخافة، عندما يكون الصدع بين ذات المرء الداخلية والذات التي يُظهِرها للعالم أوسَعَ من أي وقتٍ آخر، وعندما يكون الجسد والنفس على خلاف في أَشُدِّه. وقد أَلْفَيْتَ نفسكَ في حالتك تغدو مشغولًا بالمظهر الذي بدَوْتَ عليه، فيُهِمُّك سؤال إن كنتَ تملك قصة الشعر المناسبة، أو الحذاء الملائم، أو البنطلون الأنسب، أو القمصان والكَنْزَات المُثْلَى، ولم يسبق لك في حياتك قطّ أن اهتممت بملابسك بقدر ما فعلت وأنت في الحادية عشرة والثانية عشرة، فشاركتَ في لعبة إما أن تكون من ضمن المجموعة ومنتميًا لها وإما من خارجها، وكان يحدوك توقٌ مستميت على أن تكون منتميًا إليها، وكنتَ في حفلات ليلتي الجمعة والسبت للأولاد والبنات التي بدأت في وقت ما في الصف الخامس تفعل كل ما في وسعك حتى تبدو بأبهى هيئة للفتيات، وهنّ الفتيات أنفسهنّ اللواتي كنّ يُعانِين ثوراناتٍ وتبريحات خاصة بهنّ، وهنّ يلبسن صدريَّاتٍ تدريبية (بلا ربطات مطاطية) مشدودة على صدورٍ مسطّحة وحلماتٍ ليست ناتئة إلا قليلًا، ومتزيِّناتٍ بفساتين الحفلة بقماشهنّ القطني (القرينولي) القاسي والقمصان الحريرية التحتية التي تصدر صوتَ صفيرٍ عند المشي، ويرتدين مِشَدَّات جوارب وجوارب طويلة لأول مرة، ثم إنك الآن تتذكر بعد مرور سنين كثيرة الشفقة التي شعرتَ بها عند رؤية هذه الجوارب وهي تتدلَّى مُرْخَاةً على أرجلهن الهَزْلَى والمساء يمضي ببطء، مع أنك قادر على تذكُّر استنشاق عبير عطورهنّ وأنت تمسك بهن بين يديك وترقص معهنّ. ثم صار الروك آند رول فجأةً مثيرًا لك وشائقًا، فكان اتْشَك بِري وبَدِي هولي والأخوان إِڤِرْلي أكثر الموسيقيين الذين أُعْجِبْتَ بهم، وبدأتَ بجَمْعِ أسطواناتهم الفونوچرافية لتستمع إليهم وَحْدَكَ وأنت في غرفتك في الطابق العلوي، مُلْصِقًا الأسطوانات الصغيرة التي تدور خمسًا وأربعين دورة في الدقيقة على عمود الدوران الثخين تاركًا الصوت يُدَوِّي عندما لم يكن أحدٌ بالقرب منك، وفي الأيام التي لم يكن وراءك شيء تفعله بعد المدرسة كنتَ تسرع ذاهبًا إلى البيت فتشغل التلفزيون لمشاهدة *المسرح الأمريكي* (American Bandstand)،[1] وهو العرض المذهل لعالَم الروك آند رول الجديد الذي ضُخَّ يوميًّا في غُرَف معيشة المدينة، لكن لم تكن الموسيقا وحدها ما جذبك إلى العرض، بل كان

(1) برنامج عروض رقص وموسيقا أمريكي عُرِض بين 1952 ـ 1989. [المترجم]

ما دفعك إلى الاستمرار بالمشاهدة مشهد غرفة مملوءة بالمراهقين وهم يرقصون على أنغام الموسيقا، إذ هذا أشدّ ما طمحت إلبه الآن، أن تصبح مراهقًا، فدرستَ هؤلاء الصِّبية الذين ظهروا على الشاشة لتتعلم شيئًا عن الخطوة التالية الوشيكة من حياتك. كنتَ تتابع في السنة الماضية المهرجين الثلاثة (Three Stooges)، والآن صرتَ تتابع دِك اكلارك وعصابته المكونة من راقصي وموسيقيي الرُّوك الشباب. ها قد بدأت حقبة البُثُور وتقاويم الأسنان، ومن الرحمة أن تلك الأيام لا تجيء إلا مرة واحدة.

مع ذلك واصلتَ قراءة كتبك وكتابة قصصك وقصائدك البسيطة، ولم تشتبه قطّ أن الأمر سينتهي بك إلى ممارسة هذه الأشياء طوال ما بقي من حياتك، وممارِسًا إيَّاها في هذه السِّنّ المبكرة لا لشيء إلا لأنك استمتعت بهذا. وفي الحادية عشرة من عمرك اشتريتَ ثاني أهم كتاب من دار نشر المكتبة الحديثة، فكان القصص المختارة لوليم سدني بورتر (O. Henry)، وقد استمتعت تمام الاستمتاع لوقت من الزمان في قراءة هذه الحَكَايا الحادّة والمبتكرة وفي ما تحتوي عليه من نهايات مفاجئة وتبدُّلات مباغتة في السرد (يشبه هذا كثيرًا إعجابك بالحلقات الأولى من مسلسل *مِنْطَقَة الغسق* (The Twilight Zone) في السنة التالية، إذ لم يكن خيال رُود سيرلنج إلا نسخة منتصف القرن من خيال وليم بورتر)، ولكنك علمتَ في أعماقك أن هذه القصص كانت مبتذلة بنحوٍ ما، وأن فيها شيئًا كان أدنى بكثير من ما عَدَدْتَهُ أدَبًا من المرتبة الأولى. عندما فاز بورِس باسترناك في سنة 1958 بجائزة نوبل أُعِدَّت تقارير كثيرة عن وضعه في الأخبار، فتتابعت المقالات التي نقلت ما فعلته الشرطة السوڤييتية من منع الكاتب العبقري من الذهاب إلى استوكولم لقَبُول جائزته، ولمّا تُرجِمَت رواية *دكتور جيڤاچو* Doctor Zhivago [لِبَاسترناك] إلى الإنكليزية ذهبتَ فابتعتَ نسخة لنفسك (فكانت هي شَرْوَتُكَ المهمة التالية)، لحرصك على قراءة عمل الرجل العظيم، واثقًا كل الثقة بأنه أدَبٌ من المرتبة الأولى بلا ريب، ولكن أنَّى لفتًى في الحادية عشرة أن يتشرَّب تعقيدات رواية روسية تتبع المدرسة الرمزية، بل كيف لفتًى لم يؤسَّسْ تأسيسًا أدبيًّا حقيقيًّا أن يقرأ عملًا طويلًا ورهيفًا كهذا؟ لذا عَجَزْت. حاولتَ بأفضل إرادة في العالم، وقرأت بعض الفقرات بإصرار ثلاث وأربع وخمس مرات، لكن الكتاب كان يتجاوز قدرتك على فهم حتى عُشْرِ ما كان فيه، ثم بعد ساعات لا تُعَدّ من الكفاح والإحباط المتصاعد

قبلتَ الهزيمة متردِّدًا ووضعت الكتاب جانبًا. لم تصبح جاهزًا لمواجهة الأساطين إلا عندما صرتَ في الرابعة عشرة، ولكن عندما كنتَ في الحادية عشرة والثانية عشرة كانت الكتب التي تستطيع التعامل معها أقل تحدِّيًا بكثير، مثل رواية *القلعة* لآرشيبَلد جوزف اكرونِنْ التي جعلتك تريد مؤقتًا أن تصير طبيبًا، ورواية *القصور الخُضر* لوِلْيَم هنري هَدْسِن التي أثارت أحاسيسك[1] بِحِسِّيَّتها العجيبة والمملوءة بالأدغال ـ كان هذان اثنين من مُفَضَّليك آنذاك، وهما مَنْ تتذكرهما بأوضح صورة. أما بخصوص جهودك الصبيانية في الخربشة، فإنك كنتَ ما تزال تحت تأثير استيفنسن، وقد بدأت غالب قصصك بجُمَلٍ خالدة كهذه: «في سنة رَبِّنا 1751، وجدتُ نفسي أترنَّحُ عشوائيًّا وبِلَا هَادٍ في عاصفة ثلجية شعواء، محاوِلًا شقَّ طريقي راجِعًا إلى موطن أسلافي». ما أَشَدّ ما أحببت هذا الهراء السامي عندما كنتَ في الحادية عشرة، ولكن صَدَف في الثانية عشرة أن قرأْتَ روايتين بوليسيَّتَيْن (وقد نسيتَ ما كانتا) ففهمتَ أن ما سينفعك أكثر استخدام نَثْرٍ أبسط وأقل بهرجة، وفي أول محاولة لك لإنتاج شيء بهذا الأسلوب الجديد قعدتَ وكتبتَ روايتك البوليسية، ولم تكن أكثر من عشرين أو ثلاثين صفحة مكتوبة بخط اليد، ولكنها بدَتْ طويلة كثيرًا لك، بل أطول بكثير من أي شيء كتبته في الماضي، لذا دَعَوْتَها روايةً. إنك عاجز عن تذكر عنوانها أو تذكر الكثير عن القصة (لعله في ظنِّك كان شيئًا يتعلق بأربعة أزواج من التوائم المتطابقة، وعِقْدٍ من اللؤلؤ مسروق ومخبَّأ في أسطوانة آلة كاتبة)، ولكنك تتذكر أنك عرضتها على أستاذك في الصف السادس، وكان أول أستاذ من الذكور يُدَرِّسك، وعندما عبَّر عن إعجابه بها مُلِئتَ بالعزم لتشجيعه إيَّاك، وكان هذا ليكفيك لولا أن الأمر وصل به إلى الاقتراح عليك أن تقرأ كتابك الصغير على الصفّ المدرسي مقسِّمًا إياه أقسامًا، لخمس أو عشر دقائق في نهاية كل يوم، حتى يرن الجرس الأخير في الثالثة، فكذا صارت الحال بك، إذ أُقحِمْتَ فجأةً في دور *الكاتب*، واقفًا قبالة زملاء صفِّك وقارئًا كلماتك بصوتٍ عالٍ على مسامعهم. لقد كان النقَّادُ لُطَفاء، فالجميع بدا مستمتعًا بما كتبت ـ حتى لو كان هذا هربًا من رَتَابة الروتين المعتاد ـ لكن هكذا كان الأمر برُمَّته لا أكثر، وستمضي بعد

---

(1) إنْ أَرَدنا ترجمة التعبير الذي يستخدمه أوستر ترجمة حرفية لقلنا كذا: أثارت خِصْيَتَيْك teased your gonads. [المترجم]

ذلك سنين عديدة قبل محاولتك كتابة أي شيء بهذا الطول مجددًا. مع هذا حتى لو لم يبدُ ذاك الجهد الفَتِيّ مهمًّا آنذاك عندما تنظر إليه الآن، فأنَّى لك أن لا تعُدّه بدايةً أو خطوة أولى؟

وفي حَزِيران من عام 1959، أي بعد عيد ميلادك الثاني عشر بأربع أشهر، تخرَّجتَ أنت وزملاؤك من الصف السادس في مدرسة النحو الصغيرة التي كنتَ تحضرها منذ الروضة. ثم بدأتَ بعد الصيف المدرسة الإعدادية، وكانت تمتد لثلاث سنوات مع ثلاثين ألف طالب، وهؤلاء يضارعون في تعدادهم كل السكان الأطفال الذين التحقوا بمدارس النحو المجاورة لك والمترامية على طول بلدتك. كان كل شيء مختلفًا في المدرسة الجديدة: فعُدْتَ لا تقعد طول اليوم في الغرفة الصفية نفسها، ولم يكن يوجد معلم واحد بل كُثُر، فلكل مادة تدرسها معلِّم، وعندما كان الجرس يرنّ بعد انتهاء كل فترة من ستٍّ وأربعين دقيقة كنتَ تغادر الغرفة وتمشي في الأروقة ذاهبًا إلى غرفة مختلفة لصفِّك التالي. ثم صارت الواجبات المنزلية واقعًا حياتيًّا، فكانت الواجبات الكتابية في كل المواد الأكاديمية (الإنكليزية، والرياضيات، والعلوم، والتاريخ، والفرنسية)، ولكن كانت توجد أيضًا حصة رياضة مع غرفة خزائن الملابس المزعجة وأربطة الوقاية الإلزامية والدشّ الجماعي، ثم إلى هذا كانت توجد حصة حِرَف يدوية يُدَرِّسها سيد مُسِنّ عتيق الطراز برأس شبه أصلع ومملوء بالقِشرة اسمه بِدِلكُومْ، كأنه كان شخصية خرجت من إحدى روايات دكنسن لا في الاسم فقط بل في هيئته أيضًا، فكان يدعو من يُشْرِف عليهم أغبياء وأخِسَّاء، ويعاقب المتمرِّد بحَبْسه في خزانة التخزين. وأفضل شيء في المدرسة كان أسوأ شيء فيها أيضًا: نظام تقسيم متشدد حسب القدرات معمول به، وهذا ما يعني أن كل طالب عضوٌ في مجموعة معيَّنة، فيُحدَّد له حرف عشوائي من حروف الأبجدية، للتسترُّ على حقيقة وجود نظام هَرَمِيّ مُدْغَم في هذه التقسيمات إلى مجموعات، لكن الأعمى والأطرش فقط جَهِلَ ما عَنَته هذه الحروف: عالي المستوى، متوسط المستوى، متدنِّي المستوى. كانت لهذا النظام منافعُ لا شك فيها من ناحيةٍ تربوية، فتقدُّم الطلّاب اللامعين لم يُعِقْه حضور طلاب بُلْهٍ أو بطيئي الفهم في الصفّ، وبطيئو العَدْوِ لم يُرَوَّعوا بالعَدَّائين، بل لكل طالب إمكان التقدم بالسرعة التي يقدر عليها، ولكنه كان من ناحية اجتماعية أقرب إلى الكارثة، خالِقًا مجتمعًا من الفائزين

والخاسرين المُعَيَّنين سَلَفًا: هؤلاء المُقَدَّر لهم النجاح وأولئك المقَدَّر لهم الفشل، ولمّا كان ما عَنَته هذه المجاميع مفهومًا للجميع، كان في دخيلة السريعين عنصرٌ من الاختيال والاحتقار تجاه البطيئين، وعنصر من الحقد والعَدَاء بين البطيئين تُجاه السريعين، فكان هذا شكلًا خبيثًا من حرب طبقية ثارت أحيانًا لتصير تنازعًا حقيقيًّا، ولولا وجود الدوائر الحيادية كحصة الرياضة والحِرَف اليدوية والاقتصاد المنزلي، حيث كان يُرمَى بالطلاب معًا من جميع المجموعات، لَمَثَّلتِ المدرسة برلين المُجَزَّأة بعد الحرب: المنطقة البطيئة، والمنطقة المتوسطة، والمنطقة السريعة. كذا كانت المؤسسة التي دخلتها في الشهور الأخيرة من خمسينيات القرن، وكانت بناءً مبنيًّا حديثًا من آجُرٍّ زهري ومزوَّدًا بآخر المرافق التعليمية والمعدات، فهي فَخْرُ بلدتك، ولقد كنتَ من الحماسة للذهاب إليها والتقدم في العالم بحيث وضعت ساعة المنبه على السابعة صباحًا بالضبط في الليلة قبل بدء اليوم الأول في المدرسة، ولمّا فتحت عينيك صباحًا ـ قبل أن يرنّ المنبه ـ رأيتَ أن الساعة كانت السابعة بالضبط، وأن عقرب الثواني كان يمرّ من التاسعة متقدِّمًا إلى الثانية عشرة، ما عَنَى أنك استيقظتَ قبل عشر ثوانٍ من الوقت الذي كان عليك الاستيقاظ فيه: لقد استيقظتَ في جوٍّ من الهدوء، أنتَ الذي نمتَ دائمًا عميقًا ولم تستيقظ ألبتة على جرس المنبه المُدَوِّي، استيقظتَ كما لو كنتَ تَعُدّ الثواني في أحلامك.

وُجِدَت العديد من الوجوه الجديدة، مئات من الوجوه الجديدة، لكن أكثر وجهٍ شَدَّ انتباهك كان وجه فتاة تُدعى كَارِن، وكانت عضوًا زميلًا في فرقة التقدم السريع خاصتك.[1] كان وجهها بلا ريب حَسَنًا، بل لعله كان جميلاً، لكن كارِن امتلكت ذهنًا ثاقبًا أيضًا، وكانت مملوءة بالثقة بالنفس والمَرَح، ومُشرِقة بالحيوية وزاخرة بالحياة في وجه العالم، ولم تعتّم إلا وفُتِنتَ بها في غضون أيام. ثم بعد مرور أسبوع أو أسبوعين على المدرسة عُقِدَت حفلة رقص لطلاب الصف السابع في مساء يوم جُمعة في الصالة الرياضية، وقد حضرتها كما فعل الجميع تقريبًا، فكنتم إجمالًا ثلاثمئة أو أربعمئة، فصار شغلك الشاغل الرقص مع كارِن بقدر ما تستطيع من المرات. ثم أعلن المدير

(1) يقصد مجموعة الطلاب ذوي المستوى العالي. [المترجم]

والأمسيّة تقترب من نهايتها أنه ستُعقَد منافسة أو مسابقة رقص، وأن على الأزواج الراغبين في المشاركة التوجه نحو منتصف القاعة. أرادت كارِن خوض التجربة، ولمّا كان يُبهجك أن تفعل كل ما أرادته صِرْتَ شريكها. كانت هذه أول مسابقة رقص تخوضها في حياتك، ومسابقة الرقص الوحيدة في حياتك، وحتى لو لم تكن راقصًا بارعًا فإنك لم تكن غير مؤهل تمامًا، ولَمَّا كانت كارِن جيدة، بل جيدة جدًّا حقيقةً، بأطراف أصابع سريعة وحِسٍّ فطري للموسيقا، فهمتَ أن عليك فعل كل ما في وسعك من أجلها، وأن تُخرج لها كل ما لديك. كان رقص الروك آند رول ما يزال رقصًا يتضمن الكثير من التلامس الجسدي،[1] فكان ما يزال لظهور رقصة اتْوِسْت (The Twist) سنة أو سنتان مستقبلًا، ولم يكن حينها قد اشتهر بعدُ الرقص المنفصل للشريكين، فلم يختلف راقصو عام 1959 عن راقصي الجتريج (jitterbuggers) في أربعينيات القرن، مع أن اسم هذه الرقصة كان تغيَّر حينها إلى رقصة لِنْدي (Lindy)، يمسك الشريكان بعضهما ببعض، وكان في الرقصة الكثير من الدوران والالتفاف، وكانت القدمين أهم كثيرًا من الوِرْكيْن، فكانت حركة القدمين السريعة تعني كل شيء. قرَّرت أنت وكارن عندما ذهبتما إلى وسط الأرضية أن ترقصا بأسرع ما لديكما، أسرع بمرتين أو ثلاث مرات من المعتاد، آمِلَيْن أن تُطِيلا الرقص بهذه السرعة كي تثيرا إعجاب الحكام. كانت كارِن فتاةً كلّها حيوية حقًّا، وشخصًا مستعدًّا لأي تحَدٍّ، لذا شَرَع كلاكما في روتينكما المجنون، طائرَيْن على الأرضية كزَوْجَيْن من القرود في فلم صامِتٍ مُسَرَّع، وكلاكما يضحك في سِرِّه على الغُلُوّ وعلى المرح في أدائكما، دون أن تتعبا بجسديكما ذَوَيِ السنين الاثنتي عشرة، وما تتذكره بوضوح تَشَبُّثُها بيدكَ دون أن تُفلت قبضتها ألبتة وأنت ترمي بها بعيدًا عنك ثم تسحبها مجدَّدًا نحوك في التفافة جنونية تليها أخرى، ولمّا لم يستطع أي زوجين آخرين مجاراتكما ـ أو حتى الرغبة في مجاراتكما ـ ولأنكما كنتما كلاكما نِصْف خارجين عن طورَيكما، فإنكما فزتما في المسابقة. إن هذه ومضة سخيفة من حياتك في سنينها المبكرة، لكنها ومضة تستحق التذكر. مَنَحكُما المدير كأسًا، وعندما انتهت حفلة الرقص أمسكتَ بيد كارِن ومشيتما إلى متجر الآيس كريم

(1) يُسَمَّى حرفيًّا الرقص اللمسي لاتصال الراقصَيْن جسديًّا طوال فترة رقصهما تقريبًا، على العكس من رقصات ظهرت في أمريكا لاحقًا وصار التواصل الجسدي فيها قليلًا. [المترجم]

في مركز البلدة، فالمجد المجد! يا للنشوة التي شعرت بها وأنت ممسك بيد كارِن في ليلة حفلة الرقص عندما كنتما في الثانية عشرة، ثم حدَثَ بعد مربَّعٍ أو مربعين سَكَنيَّيْن من متجر الآيس كريم أن انزلق كأس كارِن من يدها الأخرى فتهشَّم قِطَعًا على الرصيف، أمكنك أن ترى مدى انزعاجها، إذ كان ما حدث لَوْعة طفيفة لأنها مفاجِئة، وللصوت المفاجئ والتحطم غير المتوقع للكأس عندما ضرب بالرصيف وتناثر قطعًا، ولمّا كان مستحيل الترميم ولم يكن الفوز بكأس رقصٍ شيئًا مهمًّا بالنسبة إليك (أما كرة القاعدة فموضوع آخر) - لمَّا كان كل هذا، سَلَّمتها كأسَكَ وأخبرتها بالاحتفاظ به. بقدوم السنة التالية لم تَرَ كارِن كثيرًا، فقد تَرَحَّلتما في دوائر مختلفة، وعدتما لا تكونان في الصفوف نفسها معًا، وكانت الآن تكاد أن تكون امرأة أما أنت فكنتَ ما تزال صبيًّا، ومن ذاك الوقت حتى تخرَّجتُما كلاكما في المدرسة الثانوية عام 1965، فإنكما بالكاد تحادثتما، ولكنك عندما حَضَرت اجتماع الشمل العشرين في المدرسة الثانوية، أي بعد ليلة الكأس المتناثر بست وعشرين سنة كاملة، كانت كارِن موجودة، أرملة شابة تبلغ من العمر ثمانٍ وثلاثين سنة، فرقصتَ معها مجددًا، ولكن هذه المرة كانت رقصة هادئة، فأخبرتك أنها تذكَّرت كل شيء عن تلك الليلة عندما كنتما في الثانية عشرة، لقد قالت إنها تذكَّرتها كما لو كانت أمسِ.مكتبة سُر مَن قرأ

لقد أراد معلِّم اللغة الإنگليزية في الصف السابع، السيد إس، أن يشجع الطلاب على قراءة عدد كثير من الكتب ما أمكن. لقد كانت هذه غاية نبيلة، لكن النَّهْجَ الذي أعَدَّه لتحقيق مرمًى كهذا لم يكن يخلو من عُيُوب، بخاصة لمّا كان مهتمًّا بالكمية لا بالنوعية، فكان كتاب عادي من مئة صفحة بالنسبة إليه بنفس قيمة كتاب من ثلاثمئة صفحة، وما زاد الطين بِلَّة أنه صاغَ هذا المشروع في شكل منافسة، مُجَهِّزًا لوحًا ضخمًا بفُتَح على الحائط الخلفي لغرفة الصف ومعيِّنًا لكل طالب عمودًا أو مسارًا عموديًّا على هذه الثقوب الدائرية التي تشكِّل شبكة، وأُعطِيَ كل طالب وَتَدًا أُمِرَ أن يُشَكِّله على صورة تشبه شيئًا يمثِّل مركبة صاروخية (كانت هذه السنين المبكرة لسباق الفضاء بين أمريكا والاتحاد السوڤيتي، ومن ثَم أخبر السيد إس الصِّبْيَة أن يُلصِقوا الأوتاد في الفُتَح السُّفلى من أعمدتهم، فكان مفترَضًا منك في كل مرة تقرأ كتابًا أن تحرِّك وَتَدَكَ ثقبًا واحدًا إلى الأعلى. أراد السيد إس للعبة أن تستمر شهرين، وبعدها سيفحص النتائج

ويرى أين وتد كل طالب. علمتَ أن هذه كانت فكرة سيئة، لكن هذه كانت بداية الفصل الأول في مدرستك الجديدة، فأردتَ أن تُبلِيَ حسنًا وأن تتفوق على الجميع بنحوٍ ما، لذا سايَرْتَ اللعبة، إذ لم يشكّل هذا مشكلةً ما دمتَ أصلًا قارئ كتب ملتزمًا، ثم إنك لم تكن معارضًا لمبدأ المنافسة، فالسنوات التي قضيتها تلعب كرة القاعدة وكرة القدم الأمريكية ورياضات أخرى مختلفة صيَّرَتكَ صبيًّا مملوءًا بحِسّ التنافس، لذا ما كنتَ ستُبْلي حسنًا فقط، بل كان قرارك الفوز. مرّ الشهران، وكنتَ فيهما كل يومين أو ثلاثة تتقدَّم بوتدك ثقبًا آخر، وسرعان ما تقدَّمْتَ الجميع، وبمرور مزيد من الوقت تقدَّمْتهم كثيرًا هارِبًا من حقل اللعبة بأكمله، وعندما حلَّ الصباح الذي سيفحص فيه السيد إس النتائج، شُدِهَ بسبب المسافة العظيمة التي فصلتك عن سائر الصِّبْية، فرجع من مكان اللوح ذي الفُتَح إلى مقدَّمة الصف ونظر إليك في عينيك (كنت قريبًا منه كثيرًا، قاعدًا في الصف الثاني من الطاولات)، فاتهمك بالغِشّ وتعبير عدائي وشَرِس على وجهه، قال إنه من المستحيل لأي شخص قراءة كل هذه الكتب، فهذا يناقض كل منطق وكل عقل، وإنك أحمق إنِ اعتقدتَ إمكان تنصُّلك بحِيلَة كهذه. لقد كان الأمر سُبَّة لفَهمِه، وسُبَّة لِكَدْح الطلاب الآخرين، وفي كل سنين تدريسه كنتَ أكثر الكذّابين تَطَاوُلًا يحطّ بقدمه في صفّ المعلِّم. شعرتَ بكلماته كالرصاص، كأنه كأن يُطلق عليك برَشَّاش حتى الموت في حضور جميع الصِّبية الآخرين، متَّهِمًا إياك عَلَنًا بأنك مخادع ومجرم، فلم يحدث أن هاجمك أحدٌ من قبل بهذه الشراسة، أنتَ الذي كنتَ حريصًا وتوَّاقًا كل الحرص والتوق لإثبات أنك كنتَ طالبًا جيدًا، وحتى عندما حاولتَ الإجابة عن اتهاماته لتخبره بخطئه، وبأنك قرأتَ الكتب، وقرأت كل صفحة من كل كتاب، كان حجم غضبه أكبر من أن تحتمله، لذا بدأت بالبكاء فجأة، ثمّ رنّ الجرس وأعفاك من مزيدِ ذلٍّ، ولكن مع بدء خروج الطلاب الآخرين من الغرفة الصفية، أخبرك السيد إس بأن تبقى لأنه أراد الحديث معك، ثم في غضون لحظة وقفتَ وجهًا لوجه معه إلى جانب مكتبه، شاهقًا بطوفانٍ من الدموع، ومُصِرًّا عبر أنفاس متقطعة ومخنوقة على أنك كنتَ تقول الحقيقة، وأنك لم تكن غشاشًا ولا كذابًا، وأنه إن أراد رؤية قائمة بالكتب التي قرأتها فإنك ستعطيه إياها في الصباح التالي، فتثبت براءتك، لذا بدأ السيد إس بالتراجع شيئًا فشيئًا، فاهمًا احتمال خطئه، أخرج منديله من جيبه وسَلَّمه إياك، فلمّا جذبته إلى

وجهك لتُمَخِّط أنفك وتمسح دموعك، تَنَشَّقتَ رائحة هذا المنديل المغسول حديثًا، ومع أن النسيج كان نظيفًا فقد كان في رائحته شيء لاذع ومقزز، رائحة الفشل، رائحة شيء استُخدِمَ كثيرًا، والآن كل مرة تفكر فيها بما حصل لك في ذاك الصباح قبل أكثر من نصف قرن، تمسك هذا المنديل مرة أخرى وتشدّه على وجهك، كنتَ حينها في الثانية عشرة، فكانت هذه آخر مرة تنهار فيها باكيًا في حضور شخص راشد.

ضربـتان على الرأس

•

1

1957. أنت الآن في العاشرة، فلستَ فتًى صغيرًا بعد الآن، لكنك مع هذا لست فتًى كبيرًا بعدُ، بل كنتَ شخصًا أفضل ما يوصَف به أنه فتًى متوسط، فتًى في ذروة الفترة الأخيرة من منتصف صِباه، وما زلتَ مفصولًا عن العالم في سنة *اسبوتنك* 1 و2،(1) ولكنك أقل انفصالاً عنه مقارنةً بالسنة الماضية، مع ما امتلكته من فهم مشوَّش عن انتهاء أزمة السويس (العدوان الثلاثي)، وعن إرسال آيزنهاور قوّاتٍ فدرالية إلى لِتِل روك (Little Rock) في ولاية آركنسو لوَقْف أعمال الشغب والمساعدة في إزالة التفرقة العنصرية في المدارس، وعن قتل العاصفة أودري (Audrey) أكثر من خمسمئة شخص في ولايتي تكساس ولويزيانا، وعن نشر كتاب عن نهاية العالم يحمل العنوان *على الشاطئ* (On the Beach)، لكنك لا تعرف شيئًا عن نشر *نهاية اللعبة* (Endgame) لصموئيل بِكِت، أو *على الطريق* (On the Road) لجوزف مكارثي، وطرد اتحاد سائقي الشاحنات التابع لجِمِي هوفا من الاتحاد الأمريكي للعمل ومجلس المنظمات الصناعية (AFL ـ CIO). كان اليوم يوم سبتٍ مساءً من شهر أيّار، فقاد أحد والديك بكَ وبصديقك مارك إف، وهذا كان رفيقًا جديدًا وعضوًا معك في فريق دوري البيسبول للصغار، إلى السينما فأنزلكما عندها لتشاهدا الفلم الرئيسي المعروض وحدكما، كان عنوان الفلم الذي شاهدتماه في ذلك المساء *الرجل المتقلص المذهل* (The Incredible Shrinking Man)، وبنفس الطريقة التي أثَّر بها فلم *حرب العوالم* فيك قبل أربع سنوات، فإن هذا الفلم هزَّك وغيَّر كثيرًا الطريقة التي تفكّر بها في الكون. إن أفضل ما توصف به الصدمة التي عُرِّضْتَ لها في سنك السادسة أنها صدمة لاهوتية، إذ أدركتَ فجأةً حدود قدرة الله، مع ما تضمّنه هذا من أُحجِيَّة مروِّعة، إذ أنَّى لقدرة

---

(1) رقم 1 هو أول قمر صناعي سوفييتي يُطلق في الفضاء عام 1957، وكان رقم 2 ثاني قمر يُطلق إلى مدار الأرض في شهر نوفمبر من السنة نفسها مع الكلبة الشهيرة لايكا. [المترجم]

كُلِّيِّ القدرة أن تكون محدودة؟ لكن صدمة فلم *الرجل المتقلِّص* كانت فلسفية، بل ميتافيزيقية، فكان هذا الفلم الكئيب الصغير بالأبيض والأسود من القوة بحيث تركك في حالٍ من الانتشاء اللاهث، شاعرًا كأنك أُعطِيتَ دماغًا جديدًا.(1)

إذ منذ بدأت الموسيقا المشؤومة تُعزَف في أثناء عرض فقرة الشكر والتقدير الافتتاحية، فهمتَ أنك على وشك أن تؤخَذ في جولة مظلمة ومهَدِّدة، ولكن ما إن بدأ الفِلم حتى سُكِّنَت مخاوفك قليلًا بحضور صوتِ راوٍ مرافق، وهو الرجل المتقلِّص نفسه الذي يخاطب الجمهور بصيغة المخاطَب، ما يعني أنه مهما كان هَول المغامرات التي قد تنتظره فإنه سيتمكن من اجتيازها حيًّا، فأنّى لرجل أن يروي قصته إن كان مَيْتًا؟ *لقد بدأت قصة روبرت اسْكُت كاري الغريبة وصعبة التصديق في يوم صيف عادي. إنني أعرف هذه القصة أفضل من أي شخص آخر، لأنني روبرت اسكت كاري.*

يتشمَّس كاري وزوجته لويز، وهما مستلقيان جنبًا إلى جنب في ثوبي السباحة، على سطح يَخت. يمخر المَرْكَبُ على مَهل مياه المحيط الهادي، والسماء صافية، وكل شيء على ما يرام. كلا كاري ولويز يافِعٌ وجذّاب، وهما واقعان في الحب، وفي الأوقات التي لا يتبادلان القُبَل فيها فإنهما يتحادثان مازِحَيْن مُزَاحًا كله لَعِب ومداعبة ولا يُظهره إلا الأشقّاء بالروح مدى الحياة. تنزل لويز إلى أسفل سطح المركب لتحضر بعد الجعة

(1) *الرجل المتقلص المذهل*: أصدرته شركة يونيفرسل بِكتشرز في نَيْسان من عام 1957. 81 دقيقة. المخرج: جاك آرنلد. الكاتب: رتشرد ماثِسِن (اعتمادًا على روايته). المنتج: ألبرت زچسمث. الطاقم: اجرَنْت وليمز (اسْكُت كاري)، وراندي استيورت (لويز كاري)، وآبرِل كِنت (كلارس)، وپول لينتن (اتشارلي كاري)، وريمند بيلي (دكتور تومس سلفر)، ووليم شالرت (دكتور آرثر ابرامسن)، وافرانك اسكانل (باركر)، وهِلِينة (ممرضة)، وديانا دارن (ممرضة)، وبلي كورتس (قزم)، وجون هيستند (مذيع أخبار في التلفزيون)، وجولا باربا (رجل الحليب جو)، وأورنجي (القطة بَتْش)، ولوس باتر (ڤيُولِت). الموسيقا: إرڤنچ چيرتز، وإيرل إي. لورنس، وهنز سالتر، وهيرمن اشتاين. مصور سينمائي: إلّس و. كارتر. محرر: آل جوزف. مخرجون فنيون: رسل أ. چاوسمن، وروبي ر. لِفت. مصممو الأزياء: جاي أ. مورلي الصغير، ومارثا بنش، ورَيْدو لوشَاك. المكياج: بَدْ وستمور. الشَّعَر: جُوَان سانت أوچر، إكسسوارات: افلويد فارنچتن، وإد كيز، ووَيْتي مِكْمان، وروي نيل. الصوت: لِزلي كاري، وروبرت ابرتشرد. تأثيرات صوتية: اكلِيُو إي. بيكر، وافرِد ناث. تأثيرات بصرية: إيڤرِت هـ. ابروسّارد، ورازوِل أ. هوفمن. تصوير خاص: اكلفرد استاين. [هامش المؤلِّف]

لهما، وفي هذه اللحظة يحدث ما يحدث، إذ تظهر سحابة أو يظهر ضباب كثيف في الأفق ويبدأ بالتقدم مسرعًا نحو المركب، وكان ضبابًا ضخمًا يطوي في داخله كل شيء مندفعًا على سطح المحيط مع صوت صفيرٍ صاخبٍ وغريب، وكان من العلوّ بحيث ينهض كاري جالسًا، بعد أن كان النعاس يأخذه على سطح المركب، ويقف لمشاهدة السحابة وهي مسرِعة نحوه لتجرف المركب. يرفع كاري يديه بحركة غريزية دفاعية، فاعلًا ما يقدر عليه لحماية نفسه من هجوم البُخَار عليه، وليس هو بشيء يؤبه له، وبعد هذا تتجاوزه السحابة المسرعة فتعود السماء صافيةً في غضون ثوانٍ. ولمّا صَعِدت لويز من حُجْرة المركب رأَتِ السحابة تطوف بعيدًا في الأفق، فتسأل: ما كان هذا؟ فيرد كاري: لستُ أدري، لعله نوع من... الضباب. تلتفت لويز إليه وتلاحظ أن جِذعه مغطّى ببُقَعٍ من حبات الغبار اللامعة، كأنها جزيئات شبه معدنية تُومِض في الضوء، لا هي بطبيعية، ومزعجة، ولا هي بِبَيِّنة، ولكن البَرِيق يبدأ بالتَّبَدُّد، فينتهي المشهد وكاري ولويز يمسحان البُقَع بالمِنشَفة.

تمضي ستة شهور. إذ تُجَهِّز لويز السُّفرة للفطور في صباح أحد الأيام، ينادي عليها كاري من غرفة نومهما في الطابق العلوي، يسألها إن كانتْ أُرسِلَت السراويل الصحيحة من المغسلة. بالقرب من السرير: يقف كاري قبالة مرآة طويلة وهو يشدّ وسط بِنطاله بعيدًا عن جسده، فيظهر أنه فضفاضٌ بمقدار إنشين أو ثلاثة إنشات، ما يعني أن البنطال كبير كثيرًا عليه، ثم بعد هذا بقليل وهو يلبس قميصه الأبيض المخصَّص لعمله والموقَّع عليه بحروف اسمه، يظهر أن القميص كبير عليه أيضًا. لقد بدأ تحوُّل كاري، ولكنه ما يزال في أيامه المبكرة آنذاك، فلا كاري ولا لويز لديهما أدنى فكرة عمّا ينتظرهما في المستقبل. فالحق أن لويز في ذلك الصباح، ببهجتها الدائمة وبلباقتها، اقترحت أن كاري كان يخسر بعض الوزن لا أكثر، وأنها تجد هذا *جذّابًا كثيرًا*.

لكن كاري قَلِق، فيذهب إلى طبيب دون أن يخبر زوجته ليخضع لفحص فيعلَم في مكتب الدكتور ابرامسن أن طوله الآن خمس أقدام وأحد عشر إنشًا، ووزنه مئة وأربعة وسبعون باوندًا، إنه فوق المعدل في كلا القياسين، ولكن كاري يشرح للدكتور أن طوله كان دائمًا ست أقدام وإنشًا، وأنه فقد بنحو غامض عشرة باوندات تقريبًا. يتجاهل الدكتور هذه الأرقام بهدوء، ويخبر كاري أنه لربما خسر وزنًا بسبب التوتر والإجهاد

في العمل، أما بخصوص فِقدان إنشين فإن الدكتور يشكُّ بأنهما فُقِدَا فعلًا. ثم يسأل كاري كم مرة قِيسَ طولُه، فيظهر أنها مرات ثلاث فقط: مرة في مجلس الإدارة للتجنيد العسكري الإجباري، ومرة في البحرية، ومرة من أجل التأمين الجسدي على الحياة، فيقول ابرامسن: قد تكون وقعت أخطاء في القياس في كل هذه المرات، فالأخطاء تقع كثيرًا، وقد تختلف النتائج اعتمادًا على الوقت الذي يُجرى الفحص فيه (فيشير إلى أن الناس أطول في الصباح، ثم يتقلَّصون قليلًا على طول اليوم بسبب ضغط الجاذبية على فقرات العمود الفِقري، ومفاصل العظام، وما إلى هذا)، وفوق ذلك ينبغي أن لا تُغفل مسألة الوقوف بانتصاب شديد، فقد يجعل هذا الشخص يبدو أطول من ما هو عليه حقًّا، لذا عندما يؤخذ كل هذا في الاعتبار، لا يُعَدّ فرقُ إنْشَيْن شيئًا يدعو إلى القلق. ثم قال ابرامسن: لعلك فقدتَ وزنًا لِعَوَزٍ في حميتك الغذائية، ولكن الناس لا يقصرون يا سيد كاري (قال هذا مع ضحكة معبِّرة عن الإنكار)، إنهم لا يقصرون هكذا.

يمرُّ أسبوع آخر. وكاري واقف على ميزان الحمام في أحد المساءات، يكتشف أنه فقد أربعة باوندات أخرى، وما يُقلِق أكثر أنه عندما يتعانق ولويز بعد لحظات قليلة، فإنها تقف قبالته على مستوى بصره، وهذه علامة دامغة على انكماشه البطيء، إذ دائمًا ما وقفت في الماضي على أطراف أصابعها عندما يقبِّل بعضهما بعضًا، فتمدّ نفسها حتى تصل بشفتيها إلى مواجهة شفتيه، يقول: إنني أتقلص يا لُو،[1] أتقلص في كل يوم، إنها تعرف هذا الآن، بل تتقبله الآن، لكنها في الوقت نفسه لا تصدِّق، كأيّ واحد غيرها، بل مثلك أنت القاعد في دار السينما المظلمة وتشاهد الفلم، فالأمر الذي يحدث لِاسْكُتْ كاري لا يمكن أن يحصل، لذا تبدأ عُقدة من الفزع بالتشكل في بطنك، إذ كنتَ بالفعل تشعر باتجاه القصة، وكان هذا تقريبًا أكثر من ما يمكنك تحمُّله، لذا دعوتَ لحصول معجزة وأملت أن تكون مخطئًا، وأن علَّامةً علميًّا قد يتدخل فيكتشف طريقةً لوقف تقلُّص الرجل المتقلِّص، فالآن اسْكُت كاري عادَ لا يكون فقط شخصيّةً في فلم، بل إنه أنتَ.

يرجع إلى مكتب الدكتور ابرامسن، ويرجع إليه عدة مرات على طول الأسبوع

(1) اختصار اسم لويز، Lou. [المترجم]

التالي، وها هو الآن ابرامسن، الذي عادَ غير مبتسم وغير واثق، وعاد لا يكون شَكَّاكًا مُطَمْئنًا، والذي تهكَّم على كاري بعد أول فحص ـ ها هو الآن يدرس صورَتَيْ أشعة إكس، واحدة التُقطت في بداية الأسبوع وأخرى في نهايته، وهما لقطتان متطابقتان لمنطقة الصدر عند كاري تُظهِران بالتفصيل هيكل العمود الفقري والأضلاع، وإذ يضع ابرامسن اللوح الأول فوق اللوح الثاني يبدو أن الصورتين متطابقتان، لكن مع هذا يتبيَّن وجود نظام هيكلي أصغر من الآخر، لذا هذا دليل طبي، وهو آخر فحص يُبَدِّد أي شكوك عن طبيعة حال كاري، ويظهر ابرامسن مشدوهًا ومصدومًا معًا، كأنه وقع فجأة في موقف يصعب التعامل معه، لذا بدا عابسًا، بل كاد يكون غاضبًا وهو يمشي إلى كاري ولويز ويخبرهما بما اكتشفه، فيقول: إن هذا شيء غير مسبوق ألبتة، فلا يوجد أي طريقة يفسَّر بها، لكن حجم كاري يصغر فعلًا.

لذا اعتمادًا على نصيحة ابرامسن، يذهب كاري إلى معهد كاليفورنيا للبحث الطبي، وهو مكان يقع على الساحل الغربي مشابهٌ لِمَايو اكلينِك (Mayo Clinic) في روتشستر، حيث يُمضي الأسابيع الثلاثة التالية تحت أيدي مختصِّين مختلفين، ويُجرَى عليه وابِلٌ مكثَّف من الاختبارات، تُعرَض هذه المعاينات والفحوص في مشهدٍ قصير، وبعد تتابع عدد من الصور يرجع صوت كاري ليشرح ما يحدث: شربتُ محلولًا من الباريوم ووقفتُ وراء شاشة افلوروسكوب، أعطوني يودًا مُشِعًّا... وأجروا لي فحصًا بعدَّاد چايچر، وثُبِّتَت أقطاب كهربائية برأسي، وأجريتُ فحصًا مُنِعتُ فيه من شرب الماء، وفحص رابطة البروتين، وفحصًا للعينين، وفحصَ زراعة الدم، وفحوص أشعة إكس، ثم المزيد منها، ثم فحوصًا أخرى، فحوصًا لا تنتهي، ومن ثم الفحص الأخير: فحص كروماتوغرافيا الطبقة الرقيقة...

يخبر الدكتور سلڤر، وهو المشرف على الحالة، كاري ولويز أنه إلى جانب فِقدان النيتروجين، والكالسيوم، والفسفور، فإن فحص الكروماتوغرافيا كشَفَ عن إعادة تنظيم للتركيب الجزيئي لخلايا جسد كاري، فيسأله كاري إن كان يقصد السرطان، لكن سلڤر ينفي هذا ويقول: إنه بالأحرى شيء ضد سرطاني، إنها عملية كيميائية تُسَبِّب تقلُّص كل أعضاء كاري بنحو متناسب، يسأل سلڤر بعدها سؤالين حاسمين، فكان الأول: هل عُرِّضَ كاري لأي رَذاذٍ من الجراثيم، وبخاصة أي مبيد حشري،

بكمية كبيرة؟ ينقِّب كاري في ذاكرته ثم يتذكر أخيرًا، مجيبًا بنعم، أنه في صباح أحد الأيام قبل شهور عديدة، وهو في طريقه إلى العمل، أخذ طريقًا مختصرًا خلف أحد الممرات، وبينما هو يمشي انعطفت إحدى الشاحنات لِرَشّ الأشجار. يهزّ سلڤر رأسه قائلًا: لقد كانوا واثقين بهذا إلى حد كبير، لكن هذا لن يكفي، بل كان مجرد البداية، فلا بد أن شيئًا حصل لهذا المبيد الحشري بعد أن دخل النظام الحيوي لكاري، شيئًا حوَّل المبيد الجُرثومي القليل السُّمِّيَّة إلى *قوة قاتلة*. ثم يجيء السؤال الثاني: هل عُرِّض كاري لأي نوع من النشاط الإشعاعي في الشهور الستة الأخيرة؟ فيقول كاري: بالطبع لا، إذ إنه لا يتصل بأي شيء من هذا النوع، فهو يعمل في... ثم قبل أن يتمكن من إنهاء جملته، تقاطعه لويز فتقول: اسْكُت، اسْكُت، ذاك اليوم الذي كنا فيه على المركب، ذلك الضباب...

اتضح كل شيء الآن، لقد اكتُشف سبب هذا الرعب، ووُثِّق التأثير الذي يجري في كاري بكلّ دقة، وبينما يركب وزوجته في سيّارتهما ليقودا عائدين إلى البيت، تصدّ لويز تعليقات زوجها العابسة والحزينة بتفاؤل راسخ ويكاد يكون مبتهجًا، قائلةً له إنها واثقة بأن الأطباء سيجدون طريقة ما لمساعدته، وأنه لن يمضي الكثير قبل أن يكتشف الدكتور سلڤر مضادًّا سُمِّيًّا ليعكس العملية التي تجري فيه. فقال كاري: يمكنهم أن ينظروا، لكن هذا لا يعني أنهم سيجدون شيئًا، ثم إنني لا يمكن أن أستمر هكذا بِفِقدان الوزن والتقلُّص... فهذا ينتهي بنا إلى السؤال: كم من الوقت لدي؟ تردّ لويز بصوت ثابت وعَطُوف: لا تقل هذا يا اسْكُت، لا تقله مجدّدًا أبدًا. يُشيح بنظره عنها ويواصل نقاشه: أريدك أن تبدئي بالتفكير بنا، بزواجنا، فقد يحدث عدد من الأشياء الفظيعة، ويوجد حدٌّ لما يُشكِّل واجبك.

مصدومةً بسبب كلماته حتى تكاد تبكي، تطوِّق لويز زوجها بذراعيها وتُقبِّله على فمه قائلة: إنني أحبّك، ألا تعلم هذا؟ سأظلّ معك دائمًا ما دام خاتم الزواج هذا حول إصبعك.

ثم ينتقل الفلم إلى لقطة قريبة للخاتم على بنصر يد كاري اليُسرى، وبعد لحظة ينزلق الخاتم من إصبعه ويسقط على الأرض.

شاهدتَ الفلم حتى الآن بكلّ انتباه، وكنتَ قررتَ بالفعل أنه أفضل فلم تشاهده، ولعله أفضل فلم ستشاهده أبدًا، وحتى لو كنتَ لا تفهم اللغة العلمية أو العلمية الزائفة التي يتكلم بها الدكتور سلڤر، كنتَ تشعر أن كلمات مثل *كروماتوغرافيا* *وفسفور* *ويود مُشِعّ* *وتركيب جزيئي* منحت حالة كاري التعيسة مسحةً من المعقولية. وبقدر ما كنتَ منغمسًا في الفلم حتى الآن، وبقدر ما أعجبك التّتْر أو مَشاهد البداية، فإنك مع هذا لم تكن جاهزًا للصدمة التي سيسببها ما قد يلي، فالآن فقط، بِبَدْء الجزء الثاني من الفلم مع تأثيراته البصرية المبتكرة مع بساطتها، تسمو قصة الرجل المتقلِّص المذهل إلى مستوًى جديد من السَّنَاء فتحرق نفسها في قلبك إلى الأبد.

ينتقل مجرى الفلم إلى غرفة معيشة كاري وزوجته، إلى منزلهما المدينيّ الحديث بأثاثه القليل، والخالي من أي أغراض شخصية ولَمَسات حميمية بحيث يوصَف بأنه منزل معتاد، مكان بلا أي شخصية أو راحة، صندوق سكني أمريكي قياسي من خمسينيات القرن، بلا طعم وفارغ، وبارد حتى مع أن أشعة شمس كاليفورنيا تنهمر عبر الشبابيك. لا يوجد دلالة على مقدار الوقت الذي مرّ منذ سقوط الخاتم من إصبع كاري، ولكن المشهد التالي يبدأ بشخصية جديدة تقف في منتصف الصورة، وهذه الشخصية هي اتشارلي، وهو الأخ الأكبر لاسْكُت وسيد عمله، وبينما تقعد لويز على الأريكة مستمعةً إليه، يُخاطِب اتشارلي شخصًا قاعدًا على أريكة بِمِرفقين، ولكن لأن خلفية الكرسي موضوعة باتجاه الكاميرا، ولأن رأس القاعد على الكرسي غير مرئي، كان من المستحيل معرفة هذا الشخص. يتكلم اتشارلي عن حساب مفقود، وعن مشكلات العمل ومشكلات متعلقة بالمال، ثم يقول: لا يمكنني بعد الآن أن أرسل إليك راتبك (وهو يقصد التحدث مع الشخص القاعد على الكرسي). يتضح سريعًا أن الشخص غير المرئي هو اسكُت، ولكن الكاميرا ما زالت معيَّنة على اتشارلي، وهو ينقل إليهم أن الصحفيين بدؤوا يحضرون إلى المصنع ويسألون أسئلة، ولا شك أن هذا حدث بسبب شخص في المركز الطبي سَرَّب كلامًا عن الحالة، ثم يقول اتشارلي: على وفق رجل يعمل في نقابة الصحافة الأمريكية، توجد فرصة جيدة أنه سيُدفَع لِاسْكُت إنْ كَتَب قصَّته، ولمّا كان محتَّمًا على القصة أن تُذَاع مهما حَدَث، لذا فلمَ لا يُدفَع لِاسْكُت لتقديمه القصة بنفسه إلى الجمهور؟ اشمَأَزَّت لويز من فظاظة الاقتراح، ولكن اتشارلي

رجل عملي، لذا يخبر اسْكُت بأن يفكر في الموضوع. هنا تلتفت الكاميرا أخيرًا لتُظْهِر كاري، ولكنها لا تُظهر إلا وجهه من قرب شديد، فيبدو مُنهَكًا ومُغتَمًّا، وتوجد هالات سود تحت عينيه، ولكنه الوجه نفسه، وما زال الشخص نفسه الذي كَانَه سابقًا. مع هذا تتحرك الكاميرا إلى الخلف ببطء، وعندها يهزُّك ما تراه من أعلى رأسك إلى أخمص قدميك في جَوْرَبَيْك، كأنها موجة من تيارٍ كهربائي بجُهدٍ عالٍ تتخلل جسدك بسرعة وقوة شديدتين تُشعِرَانك كأنما صُعِقْتَ بالكهرباء. يظهر كاري قاعدًا على الكرسي، كاري نفسه الذي صار فجأةً وبنحو مرعب لا يكبرك حجمًا، كأنه بحجم صبيٍّ متوسط، وطوله بالكاد خمس أقدام، لابسًا ملابس فتًى في سنّ العاشرة، وحذاءً رياضيًّا في قدميه: اسْكُت كاري مُصَغَّر قاعد في ما يلوح أكبر أريكة بذراعين في العالم. يقول لأخيه: حسنًا، سأُفكِّر في الأمر.

كنتَ كبيرًا بما يكفي لتفهم أن اجرانت وليمز، الممثل الذي يمثل دور الرجل المتقلِّص، لم يَصِر أصغر حجمًا، وأن التأثير البصري أنتجه مُخرِج إنتاج ذكيّ فبَنَى كرسيًّا ضخمًا، كرسيًّا يمكنه أن يتسع بسهولة لعملاق طوله اثنتي عشرة قدمًا، ولكن الانطباع الذي شعرتَ به كان مع هذا رائعًا وغير مألوف، لم يكن في الأمر شيء معقد، فالمسألة مسألة بسيطة تتعلق بالتلاعب بالمقياس، مع ذلك فإن حسَّ المفاجأة والتفكك كان يتملَّكُكَ تمامًا ويَرُوعك ويُزعجك، كما لو أن كل ما افترضته عن العالم المادي صار مشكوكًا فيه.

ثم يستمر الفِلم شيئًا فشيئًا، في حين كنتَ تتكيف مع حجم كاري المتقلِّص، شاعرًا بالتدريج أن غرابته تتحول إلى شيء مألوف. لقد ذَاعَتِ القصة فعلًا، وتحوَّل كاري بين عشية وضحاها إلى عَلَمٍ وطني، وموضوعَ مقالات المجلات وتقارير أخبار التلفزيون، ومنزله مَحُوطٌ بالصحفيين والمحدِّقين البُلْه وفِرَق التصوير، فتحوَّل شخصٌ كان طبيعيًّا إلى مَسْخ، وإلى ظاهرة، وكان مُلاحَقًا بكلّ إصرار حتى صار عاجزًا عن الخروج من المنزل. نشاطه الوحيد هو الكتابة، كتابة كتابٍ عن تجاربه، مذكِّرة يَخُطّ فيها تقدُّم حالته، وهَأَنْتَ مدهوش لرؤيته بجسده الصغير الذي هو جسد فتًى يكتب بقلمٍ عملاق، ومدهوش من ضخامة سمَّاعة التلفون التي يمسك بها في يده، فكلّ حيلة بصرية تواصل مفاجأتك والتأثير فيك، ولكن ما أثَّر فيك أكثر كان صورة حالة كاري العقلية، التصوير

الحازم والمتجرِّد من العاطفة الذي قُدِّمَ به رجلٌ على شفا انهيار عاطفي، فَكَاري عاجز عن تفهُّم وعن التصالح مع ما يجري له، فهو لن يقبله، وتارةً بعد تارةً يرضخ لحَنَقه، فيبدو مجنونًا يصيح وكله مرارة، صارِخًا باحتقاره في وجه العالم، بل أحيانًا يهاجم حتى لويز، لويز الثابتة الجأش والمحافظة على صبرها وحبِّها كما فعلت دائمًا، التي ما زالت تعيش آملةً أن الأطباء سينقذونه، وفي أثناء كل هذا، يواصل كاري التقلُّص، وفي السابع عشر من شهر تشرين الأول يغدو طوله ستة وثلاثين إنشًا ونصف، ووزنه اثنتين وخمسين باوندًا. إن اليأس يلفّه، ولكن تحوُّلًا مفاجئًا ومعجِزًا يحدث، إذ يتصل المركز الطبي ويخبرهما أن المضاد السُمِّيّ جاهز.

تمرُّ أيامٌ حَرِجة ومتذبذبة إذ يحقن الطبيب سلڤر كاري بعلاج محتمل، محذِّرًا أن فرصة النجاح الموجودة ليست إلا خمسين بالمئة، ولكن بعد أسبوع من المعاناة والانتظار، تظل مقاييس كاري ثابتة على ستة وثلاثين إنشًا ونصف الإنش طولًا واثنين وخمسين باوندًا وزنًا. تقول لويز المغتبطة: لقد انتهى الأمر يا اسْكُت، ستكون على ما يرام... ولكن كاري عندما يسأل سلڤر كم سيأخذ من الوقت حتى يعود إلى حاله الطبيعية، يتجهَّم الطبيب ويتردد ثم يقول له إن إيقاف العملية الانحلالية لمرضه أمر يختلف تمامًا عن عكس العملية بأكملها، وبعدها يقول إن قدرة كاري على النمو محدودة كقدرة أي شخص بالغ، ولمساعدته أكثر سيكون علينا التغلب على مجموعة أخرى جديدة تمامًا من المسائل العلمية، ما يعني أن كاري سيستمر بِطُول ثلاثة أقدام طوال ما بقي من حياته، فيقول الطبيب إنهم سيواصلون جهودهم وسيدفعون بمعرفتهم بأقصى ما يقدرون عليه، وربما، ولربما لا أكثر سيجيء اليوم الذي سيحوزون فيه الجواب، أما الآن فما من شيء أكيد.

إن الأخبار إذن مُبَشِّرة وغير مبشرة معًا، ومع أنك كنتَ خائب الأمل لأنه ما من شيء آخر يمكن أن يُعمل من أجل كاري، وحزينًا أنه سيكون عليه العيش في هذه الحال المتقلِّصة، فإن جزءًا آخر منك كان مرتاحًا كثيرًا، إذ إن تقلُّص جسده قد أُوقِف، ولن يكون عليك مواجهة رعب مشاهدته يواصل التلاشي حتى يصير عدمًا. لا أحد يريد أن يكون قزمًا بالتأكيد، لكن هذا كما أخبرتَ نفسك يظل أفضل من التلاشي تمامًا.

يظل كاري مستغرقاً في التفكيربعد العودة إلى المنزل. قد يكون الأسوأ انتهى، لكنه ما زال يكافح ليتقبل حالته، فما زال غاضباً وعاجزاً عن إيجاد الشجاعة للتصرف كزوج مع لويز، ولأنه انطوى عنها بسبب شعوره بالخزي، فإنه يعلم بتسبيبه المعاناة لها، وهذا ما يزيد معاناته، يقول: إن لويز قوية وشجاعة كثيراً، فما الذي كنتُ أفعله بها؟ لقد أبغضتُ نفسي بنحو لم أبغض فيها أحداً من قبل. لذا عاجزاً عن احتمال الأمر بعد الآن، يغادر المنزل مسرعاً في إحدى الليالي، الرجل البالغ بجسد الفتى، وما زال يلبس حذاءه الرياضي السخيف الذي يجعله كالطفل، ويبدو بشكله المحزن ماشياً عبر الشوارع المظلمة في حَيِّه، دون أن يقصد الذهاب إلى أي مكان معين، إنما يتجول من أجل التجول نفسه. ثم مع الوقت يُصادف مهرجاناً، ضجيجَ وجلبة مهرجان تسلية حقير القيمة، يجلب الضجيج انتباهه، وما إن يدخل أرض المهرجان حتى يتوقف قبالة عرض المسوخ. يصيح المنادي على المنصة: *نعم أيها السيد، نعم أيها القوم، إنه العرض الجانبي الكبير! انظروا إلى السيدة الملتحية، وإلى المرأة الأفعى، وإلى الفتى التمساح! انظروا إلى كل مُسوخ الطبيعة!* يَنفر كاري متقززاً، ومتعرقاً وتعساً، عاجزاً عن متابعة المشاهدة، لذا يَنسلّ إلى مقهى قريب، فيتجه نحو طاولة البيع ويطلب كوباً من القهوة، تلاحظ كم يبدو صغيراً وهو في هذا المحيط، وتُدرك حجم الكوب والصحن الكبير بنحو يثير العجب وهو يحملهما إلى احدى الطاولات، وترى عُزلته بين الجميع، والألم الذي لا ينقطع من جَرّاء كونه من هو عليه، ولكن بعد قعود كاري بلحظات، يتقدم أحد من الطاولة، امرأة شابة جميلة، والحق أنها جميلة جداً، وصَدَف أنها تحمل كوباً من القهوة أيضاً — ثم إنها صغيرة أيضاً، قزمة أيضاً، فتسأل إن كان يمكنها الانضمام إلى كاري.

ابتهج قلبك عندما لم يصرفها كاري. بَدَا واقعاً في حيرة،كأنه لم يخطر في باله قط أن في العالم أشخاصاً صغاراً غيره، ومع هذا فحتى أنه بدا خجلاً وأخرق في تعامله معها بدايةً، شعرتَ أيضاً أنها أثارت اهتمامه، لا لأنها جميلة للنظر، ولكن لأنه وجد شبيهةً، شقيقةً.اسمها اكْلارِس، لطيفة وودودة، ثم تنجح شيئاً فشيئاً في إضعاف تَمَنُّع كاري بما تُظهره من أسلوب دمث، فيشرعان في ما يُبشر بأن يكون محادثة مؤنسة، ولكنه يخبرها عندها باسمه فتُصعق. بالطبع لم يكن مجبراً على فعل هذا، فقد كان

بمكنه أن يخبرها باسمه الأول فقط، أو أن يبتدع اسماً زائفاً، ولكنه يفعل هذا عامداً ليُخبرها أنه الرجل المتقلِّص المشهور، فقد اتضح له بالفعل أنها كانت الشخص الذي يمكن أن يُسِرَّ له شيئاً كهذا، حتى لو لم يكن واعياً بهذا بعدُ. لعجزها عن فهم قصده تسأله بلباقة إن كان يريد البقاء وحيداً، فيجيب كاري: كلا، كلا، ليس هذا ما أقصده، إنه يريد الحديث معها، ثم ترتاح اكلارس فجأةً مدركةً أنها أخطأت الحكم عليه. تستمر المحادثة، وشيئاً فشيئاً تحاول أن تقوده إلى طريق مختلف للتفكير بنفسه، شارحةً أن كون المرء صغيراً ليس أسوأ مأساة في العالم، وأنهما حتى لو كانا يعيشان بين عمالقة، فإن العالم يمكن أن يكون مكاناً جيداً، وأن السماء زرقاء بالنسبة إليهما كما هي بالنسبة إلى الجميع، والأصدقاء بالحميمية نفسها، والحب هو بروعته نفسها. يُنصِت كاري إليها، ما زال مرتاباً لكنه في الوقت نفسه يريد تصديقها، ومن ثم يظهر أنه يتعين عليها الذهاب، إذ لا يمكنها التأخر على الأداء الذي عليها تقديمه، وإذ يقف ليُودعها يسألها إن كان بمقدوره رؤيتها مجدَّداً، فتقول له: نعم، إنْ أَحببتَ، ومن ثم تردف قائلة وهي تنظر إلى عينيه: أتعرف، إنك أطول مني يا اسْكُت.

ثم ينتقل المشهد إلى غرفة المعيشة في المنزل، منهمكاً في كتابة كتابه، يقول: لقد تَمَلَّكْتُ حياتي مجدداً، لقد كنتُ أُخبر العالم عن تجربتي، وبسردها تغدو تجربتي أسهل.

بدأتَ تتشجع، فلأول مرة يحدث منذ الدقائق الافتتاحية للفلم شيء إيجابي، وقوى التحلل الحتمية أُعيد توجيهها نحو التقبُّل والأمل، وبينما كنتَ تشاهد كاري مستغرقاً في كتابة مذكراته جهزت نفسك لما يمكن أن يكون خاتمة متفائلة للقصة، أو نهاية سعيدة الممكنة. سيقع كاري في حب اكلارس الصغيرة ويعيش ما بقي من أيامه كقزمٍ راضٍ، سيكون عليه بالطبع الانفصال هو ولويز، ولكن زوجته الصالحة والشريفة ستتفهم أن الزواج بينهما ليس ميسوراً بعد الآن، وسيفترقان وهما أفضل صديقين، فعلى كاري الآن العيش مع الناس الذين ينتمون إلى نوعه، كذا كانت النقطة المهمة، فلن يكون كاري وحيداً بعد الآن، ولن يشعر أنه نُبذَ خارج المجتمع، بل سيشعر بالانتماء، وسيجد الرضا في هذا الانتماء.

إنك تتشبث بهذه النظرة في ما يتعلق بمصير كاري بسبب التعليق الصوتي الذي يسرد القصة، ولأن بطل القصة ما زال يروي قصَّته لجمهور المستمعين، وما دام الآن يكتب كتابه، فإنك تفترض أن الكلمات التي يقولها مطابقة للكلمات التي كتبها، وظَنَنْتَ في ذهنك أن الكتاب نُشِر فعلًا (فما الذي قد يدفعه غير هذا إلى استخدام صيغة الماضي؟)، ما يعني فقط أن قد نجا من هذه البلوى المروِّعة وهو الآن يعيش حياةً طبيعية.

ببدء المشهد التالي يظهر أن توقُّعَكَ يكاد يتحقق، فها هو كاري قاعد على مقعد متنزَّه مع اكلارس، وهو يشاهدها تقرأ مخطوطة كتابه، وإن كانَ الكتاب قد انتهى الآن وما من كلمات أخرى لتُكتَب، ألن يلوح أن هذا يقترح أن الجزء المتقلِّص من *الرجل المتقلص* قد انتهى أيضًا؟

متأثِّرةً بما قرأت، ترفع اكْلارس نظرها وتخبر كاري بأنه أبلى بلاءً عظيمًا. يمسك كاري يدها. إنه يريدها أن تعلم مقدار ما عَنَاه لقاءهما له، ومقدار الفرق الذي يحدث عندما يكون مع شخص يتفَهَّم، فترد اكلارس: إنك الآن أفضل بكثير. إنهما تصويرٌ لروحَيْن متناغمتين، رجل وامرأة يتنعَّمان في لحظة من العِشْرة المُطمَئِنة، وحتى لو كنتَ في العاشرة، كان واضحًا أنهما واقعان في الحب. كل شيء صحيح، كل ما توقَّعْته يتحقق، ولكنهما يقفان بعد هذا، فيتحول المرح على وجه كاري فجأةً إلى قلق، إذ لقد كان قبل أسبوعين أطول منها، لكنه الآن ـ ويا لفظاعة أن يُقال هذا ـ أقصر، يصرخ قائلًا: لقد بدأ التقلُّص مجدَّدًا، لقد بدأ! فيتراجع بعيدًا عنها والرعب يتملَّكه، شاعرًا بنُفُورٍ مفزوع، ومن ثَمّ يستدير ويبدأ بالركض دون أن يقول أي كلمة أخرى.

كان هذا آخر شيء تتوقعه، إنه تطوُّر مفاجئ تمامًا بحيث لم تعتبره ممكنًا حتى. لقد ظننتَ أن المضاد السُّمِّي مؤكَّد النجاح، وأنه متى ما ظهر أنه فعَّال فإنه سيظلّ فعّالًا إلى الأبد، والآن ما دامت قواه قد أُنهِكَت، فما الذي قد تتطلَّع إليه غير الانغماس المبرِّح في العدم؟ إنك توطِّد نفسك تجهُّزًا لوقوع شيء فظيع، محاولًا تخيُّل ما قد يحدث تاليًا، مكافحًا بوجه كالح لتقبُّل حقيقة أن الأمل كله معدوم الآن، ولكن مع أنك تظنّ نفسك مستعدًّا لحدوث كل ما قد يحدث، فإن صانعي الفلم تجاوزوك كثيرًا، وها هم يبدؤون الجزء الثالث والأخير من القصة بقفزة تتقدم تقدُّمًا مدهشًا في الزمن، أكثر تقدُّمًا من

كل ما يمكن لخيالك الصبياني تصوُّره حتى سبَّبَ هذا انقطاع نَفَسِك، ومن هذه النقطة فما بعد سيكون كل ما تفعله محاولة تنشُّق الهواء، مكافحًا كي تتنفس إلى آخر لحظة في الفلم.

يبدأ المشهد التالي مع لقطة لكاري وهو يقف وحيدًا في غرفة. إنه يلبس ما يبدو بِجامة فضفاضة مصنوعة من مادة ما رديئة ومحبوكة في البيت، فتشعر أنه رداء غريب، ولكنه ليس بالغرابة التي تجعلك تصرف انتباهك عن الأثاث في الغرفة، إذ يبدو متناسبًا تمامًا مع حجم جسد كاري، ولا يبدو كاري قزَمًا بسبب ما يحيط به، ولا أنه في المكان الخطأ في عالم كبير جدًا بالنسبة إليه، وهذا ما يُربِكك، فالمؤكد أنه لا يمكن أن يكون قد كبر منذ آخر مشهد، وهو المشهد الذي انتهى باكتشافه أن حجمه كان يصغر مجدّدًا. أخبرتَ نفسك أنه مع هذا يبدو كل شيء طبيعيًا، كما لو أن كل عناصر البيئة المادية صُحِّحَت مجددًا وصارت متزنة. ولكن أنَّى للأشياء أن تكون طبيعية وقد أُخبِرتَ توًّا أنها ليست كذلك؟ ثم بعد لحظات يُعطَى الجواب:

لأن كاري يعيش في بيت دُمى، ولأن طوله لا يتجاوز ثلاث إنشات.

نزلت لويز الدرج، فكانت خطواتها مُرْعِدَة، هازَّةً منزل كاري الصغير بشِدَّة حتى اضطُر إلى التشبث بالدربزين ليُجَنِّبَ نفسه السقوط، وعندما تفتح فمها للتحدث، يكون صوتها من العلوّ بحيث يغطِّي أُذنيه متألِّمًا. يَخرج إلى الشرفة ويوبِّخها لتسبيبها كل هذه الجَلَبة، وإنك متفهِّم أنه جُنَّ، وأنه تحوَّل إلى طاغية، وأن هذا الرجل المستمرّ بالتقلص يحكم زوجته بتصرفات عدائية ومتزايدة الوحشية من الإرهاب العقلي. ثم يقول كاري للجمهور: أنا وحدي من لديه القدرة على تخليص لويز، ليتني قادرٌ على إيجاد الشجاعة لإنهاء وجودي التَّعِس، ولكنني أفكِّر في كل يوم: ربما غدًا، لعلّ الأطباء سينقذونني غدًا.

تخرج لويز من المنزل لأداء بعض الواجبات، فلمّا فتحت الباب للخروج تسلَّلَت قطتهما الأليفة إلى المنزل. لقد ظهرت القطة في عدد من المشاهد السابقة، ولكن كاري كان حينها أكبر، أكبر كثيرًا من أن تُشَكِّل القطة أي خطر عليه، ولكنه الآن قُلِّصَ إلى حجم فأر، وبخروج لويز فجأة من الصورة، يدخل الفلم الفصل الأخير.

ثم تقضي نصف الساعة التالية في المشاهدة بدهشة مرعوبة، متعجِّبًا من كل حيلة جديدة في منظور الفلم، وكل تحريف في المقياس، ففي البداية اعتداء القطة الشرس، إذ تهاجم بيت الدمى وتدفع كاري إلى الركض عبر سجادة غرفة المعيشة، وها هو رجل بحجم إبهام اليد يركض حفاظًا على حياته على أرضية تُشبه حقلًا أجدَبَ شاسعًا، سَهْلًا فارغًا يمتدّ من حوله لمئات الياردات، والقطة العملاقة الشرسة تلاحقه، وتَمُوء بقوة دزينة من النُّمور المخبولة، فتتمكن من ضرب كاري بمخالبها مُمَزِّقةً جزءًا من قميصه وجارِحةً ظهره، ولكن كاري يقفز متعلِّقًا بسلك كهربائي متدلٍّ مربوط بقاعدة مصباح المنضدة، وعِندما يسقط المصباح مصطدمًا بالأرضية، تخاف القطة قليلًا فتبتعد. يُسرِع كاري متَّجِهًا نَحْو باب القبو، فتبدأ رَكْضَة أخرى شاقة عبر سَهْل السجادة الأجدب والشاسع، ويتحرَّك كاري وراء الباب مخبِّئًا نفسه من القطة التي تعافت من خوفها الآن، وواقفًا على الدرجة العليا من الدَّرَج الخشبي الأشبه بالجبل والذي يقود إلى القبو، وتمامًا عندما بَدَا أنه استخلَصَ نفسه من المشكلة تعود لويز إلى المنزل، فتدخل هَبَّةٌ من الهواء عبر الغرفة عندما تفتح الباب الأمامي، ويُغلَق باب القبو بقوَّة،[1] فيَضْرِب كاري ليقع مختلَّ التوازن، فيجد نفسه مقذوفًا فجأة إلى أعماق القبو، مثل رجل دُفِعَ به عن سطح مبنًى من عشرين طابقًا.

يهبط كاري في صندوق خشبي مملوء بقطع مرتَّبة من المهملات، ولحسن الحظ كان فيها كومة من الخِرَق الثخينة، فلطَّفت الخِرَق السقطة، ولكن التأثير مع هذا صادِم، فأُغمِيَ عليه، وتمرّ لحظات قبل أن يستعيد وعيه. تدخل لويز في هذه الأثناء في الطابق العلوي في غرفة المعيشة لترى المشهد المُقلق، مشهد بيت الدمى المحطم، وترى حضور القطة، وغياب زوجها، وعندما تكتشف قطعة مضمَّخة بالدم من قميص زوجها على الأرضية، فليس أمامها إلا نتيجة واحدة يمكن استخلاصها، ومع أن هذه النتيجة شنيعة ولا تُصَدَّق، فإن مشهد القطة المُقَشْعِر للبدن وهي قاعدة في زاوية تلعق كفَّيْها لا يترك مجالًا للشك في ذهن لويز، لذا تنوح الْتَياعًا، عاجزةً عن تجاهل الدليل: إن كاري

(1) باب القبو في الفلم الأصلي يُفتَح، لا يُغلَق، فدخول الهواء القوي من باب البيت الأمامي يفتَح بكلّ قوة باب القبو الذي كان يحاول كاري إغلاقه هربًا من القطة، ولمّا فُتِح فجأة بقوة طَرَق كاري الذي كان وراءه ورمى به إلى القبو في الأسفل. [المترجم]

ميت، لديها دليل على أن كاري ميت، ثم لا تعتّم الأخبار أن تُذاع في التلفزيون، ويُبَثّ نَبأ عن الموت المأساوي للرجل المتقلّص على طول المدينة، وتثوي لويز في غرفة نومها في حال من الانهيار العصبي.

ولكن كاري موجود في الأسفل حيث القبو، وما زال حيًّا، وهو مجروح ومصدوم ولكنه حيٌّ كل الحياة، واقفًا في الصندوق الخشبي ومحاولًا إيجاد ما عليه فعله تاليًا. لقد كان متأكدًا أن لويز ستنزل أخيرًا لتنقذه، ولمّا كان يعتقد أن الأمل ما زال موجودًا، فإنه يعزم على فعل كل ما في قدرته للنجاة، حتى لو ما زال حجمه يصغر باستمرار. يُصبح الفلم من هذه اللحظة فما يلي فلمًا آخر، فلمًا أعمق، قصة رجل جُرِّد من كل شيء، مضطرًّا إلى الاعتماد على نفسه، رجل وحيد يحارب العقبات المحيطة به، أودسيوس أو روبنسن كروزو مصغَّر يعيش بقوّة دهائه وشجاعته ومهارته، مستفيدًا من كل غَرَض يجده وكل شيء قد يتغذى عليه في ذلك القبو الرَّطب الموجود في أحد البيوت المدينية، وهو ما صار الآن عالمه بأكمله. هذا ما كان يشدُّك: كونُ كل شيء يحيط به عاديًّا، وكيف أن كل شيء عادي، سواء أكان علبة تلميع أحذية فارغة أم لَفِيفة خيط أم إبرة تخييط أم عُود ثقاب خشبي أم قطعة جُبن عالقة في مصيدة فئران أم قطرة ماء ساقطة من مُسَخِّن ماء مُعَطَّل ـ كل هذه الأشياء العادية تأخذ أبعاد الخارق للعادة والمستحيل، فكُلّ شيء أُعيدَ اختراعه وحُوِّل إلى شي آخر بسبب حجمه المَهُول بالنسبة إلى جسد كاري، وكلما صغر كاري قَلَّت شفقته على نفسه وزاد نُفُوذ بصيرة تعليقاته، وحتى وهو يتحمَّل ويصبر على بَلِيَّة جسدية وراء أخرى كأنَّه يختبر نوعًا من التطهير الروحي، سامِيًا بنفسه إلى مستوًى جديد من الوعي.

يتسلق الجدران باستخدام مساميرَ بطولِ إنْشٍ مثنيَّة على شكل خُطَّافات قابِضة، وينام في صندوق فارغ لأعواد الثقاب، ويُشعِل عودَ ثقابٍ طوله بطوله ليقطع جزءًا دقيقًا من خيط تخييط هو بالنسبة إليه بثخانة وصلادة نسيجٍ من القُنَّب، ويكاد يغرق في فيضان والماء ينسكب من سخَّان مائي معطَّل، ويَنجو من الانزلاق في مصرف بالتشبث بقَلَم مَهُول يطفو على الماء، يقتات على فُتات خبز متيَبِّس، ومن ثَم يجيء السعي من أجل أهم جائزة بين الجوائز كلها، وهي قطعة كيك إسفنجي فاسدة ونصف مأكولة، استولى عليها عدوّ كاري الجديد، وهو المخلوق الوحيد المرافق له في هذا

العالم تحت الأرضي المعزول، وهي عنكبوت، عنكبوت كريهة وضخمة بنحو رهيب، لعلها أكبر من كاري بثلاث أو أربع مرات، ومع كل ما تضمَّنه القتال الذي نشب بينهما من تبدُّلات محمومة في غَلَبة أحدهما على الأخرى، فقد بدا لك آسِرًا أكثر من مشهد مشابه شاهدته في دار سينما أخرى قبل سنة أو سنتين، حيث أَوْلَجَ أودسيوس سيفه في عين المسخ الصُّقلوبي (Cyclops)، وقد حدث هذا في فلم *عوليس* بتقنية التصوير بالألوان (مع إِشُّر دانييلوڤِتْش السابق في دور البطولة)، إذ إن الرجل المتقلص لا يملك ثقة وقوة البطل الإغريقي، ثم إنه أصغر رجل على وجه الأرض، وأسلحته الوحيدة دبوس أخرجه من مِدْبَسة ودماغه الموجود في رأسه. لقد كنتَ منذ طفولتك المبكرة مراقِبًا حريصًا للنمل والبَقّ والذباب، وتفكَّرت كثيرًا في الحجم الذي قد يبدو عليه العالم لهذه الكائنات البالغة الصغر، مختلفًا كثيرًا عن الطريقة التي تبصر فيها العالم بنفسك، والآن، في الدقائق الأخيرة من *الرجل المتقلص المذهل*، ها أنتَ قادر على أن ترى تأمُّلاتك تُمَثَّل على الشاشة، فكاري ليس أكبر من نملة في الوقت الذي يتمكن فيه من قتل العنكبوت.

كنتَ مشدوهًا بهذه اللقطات المتتالية المنظَّمة، ومفتونًا بهذه الثيمات والابتكارات البصرية التي حوَّلت الفضاء الحقيقي إلى فضاء متخيَّل ومع هذا تُبدِعُ بنحو ما في جعل المتخيَّل حقيقيًّا، أو في الأقل معقولًا ومقنِعًا ووفيًّا للمقاييس الهندسية التي تتوفر عليها الخبرة المَعِيشة ـ على الرغم من شدِّ ما كنتَ مبهورًا بما يجري على الشاشة، فإن صوت كاري هو الذي يجعل كل شيء مترابطًا بالنسبة إليك، فكلماته تمنح الحوادث الجارية في الفلم معناها، وفي النهاية لهذه الكلمات تأثير أكبر فيك وأَدْوَم من الصور التي تُومِضُ بالأبيض والأسود قُبالة عَيْنَيك. ما زال كاري يتكلَّم بمعجزةٍ ما، وما زال يروي قصَّته للجمهور، ومع أن هذا غير منطقي بالنسبة إليك ـ فما مصدر صوته؟ أنَّى له أن يتحدث عن حاله الحاضرة في حين أن شفتيه لا تتحركان؟ ـ فإنك قَبلته دون أن تشكّ فيه، مُسَلِّمًا بمعطيات الفلم ومعيدًا تفسير دور التعليق الروائي قائلًا لنفسك إنه لا يتكلم حقًّا بل يُفكِّر، وإن الكلمات التي كنتَ تسمعها طَوال الفلم كانت أفكارًا في ذهنه.

لقد جاءت لويز فعلًا وغادرت، شاهدها كاري تنزل الدرجات إلى القبو، فنادى

عليها في محاولة مُهْتاجة لِلَفْت انتباهها، لكن صوته كان أخفض من أن تسمعه، وجسده أصغر من أن يُرَى، فصدعت الدرجات مجدّدًا وغادرت المنزل إلى الأبد. والآن، في فورة أخيرة من الإرادة، مُستَدْعِيًا كل ذَرَّةٍ قوة ما زالت في جسده المُستَنزَف والمستمر في التقلص، متصَرِّفًا بِعِنَادٍ وبراعة لا مَثِيل لهما، استولى على مصدر الغذاء الوحيد في القبو، وقتل العنكبوت، وحالما ظَنَنتَه انتصر مرة أخرى، وحَقَّق ما قد يُعَدّ أعظم انتصاراته، تدفعه أفكاره إلى المرحلة التالية من الفهم، ويتبيَّن أن النصر لم يكن شيئًا يُذكَر، بل كان خِلْوًا من أي أهمية.

ولكن حتى لمّا لمستُ الكِسَر المتيبِّسة والمُفَتَّتة، بدا الأمر كما لو أن جسدي عُدِم، فكَفَّ الجُوع، واختفى الخوف الفظيع من التقلُّص...

كذا يبدأ حَدِيثُ نفسِ كاري الختامي، وهو تساؤُلٌ شِبه روحاني عن التفاعل بين الإلهي والبشري أَثَارَكَ مثلما حَيَّرَك، ومع هذا حتى لو لم تستوعب تمام الاستيعاب ما كان يتحدث عنه، فإن كلماته بدت كأنها تتطرق إلى كل ما أَهَمَّك ـ مَن نحن؟ ما نحن؟ كيف لنا أن نكون جزءًا من كَونٍ يتجاوز فَهْمَنا؟ ـ وهذا ما جعلك تشعر بأنك تُقادُ إلى مكان يمكنك فيه تَلَمُّح حقيقةٍ جديدة ما عن العالم، وبينما تُدَوِّن هذه الكلمات الآن مُدرِكًا مدى سماجتها وغموض قضاياها الفلسفية، فإن عليك السفر مجددًا إلى عقل الصبي ذي السنين العشر الذي كُنتَه لتُعِيد اختبار قوَّة تأثير هذه القضايا فيك آنذاك، فمهما بَدَت هذه الكلمات مُتَهَلْهِلَة لك اليوم، تظلّ كلماتٍ صَعَقَتْكَ قبل خمس وخمسين سنة بكلّ قوة ضربة على الرأس.

لقد كنتُ مستمرًا في التقلُّص. حتى أصير ماذا؟ اللا نهائيّ الصِّغَر؟ ماذا كُنت؟ أما زلتُ إنسانًا؟ أم لعلي إنسان المُستَقبَل؟

لو كانت توجد تدفُّقات إشعاعية أخرى، سُحُب أخرى تشقّ طريقها عبر البحار والقارات، أستتبعني كائنات أخرى إلى هذا العالم الجديد الشاسع؟

إن اللا نهائي الصغر واللا نهائي قريبان جدًّا، ولكنني عرفتُ فجأةً أنهما حَدَّان للمفهوم نفسه. يجتمع في النهاية الصغير بنحو لا يُصَدَّق مع الشاسع بنحو لا يصدق، كانغلاق دائرة عملاقة.

نظرتُ عاليًا كما لو أنني بنَحْو ما سأحتوي السماوات بأجمعها. الكون: عوالمُ لا يحويها عَدٌّ. يمتدُّ بِساط الإله الفضِّي عبر الليل، وفي هذه اللحظة عرفتُ الجواب، عرفتُ لُغزَ اللا نهائي.

اعتدتُ التفكير من قبل بِلُغَةِ بُعْدِ الإنسان المحدود. لقد حَمَّلت الطبيعة وافترضتُ منها أكثر من ما تقدر عليه. إن لهذا الوجود بداية ونهاية في مفهوم الإنسان، لا في الطبيعة.

ولقد شعرتُ بجسدي يتلاشى عدمًا، يصير عدمًا. لقد تبَدَّدَت مخاوفي، فحلَّ محلها القَبُول.

كل هذا الاتساع الجليل للخَلْق: لا بد أن له معنًى، ومن ثَمَّ صار لي معنًى أيضًا. بلى، إنني أصغر من أصغر شيء، ولكن لي معنًى أيضًا.

فليسَ في فَهْمَ الله شيءٌ يُعَدُّ نَكِرَةً.

ما زلتُ موجودًا!

يصير طول كاري في النهاية ليس أكثر من جزء من الإنش، ومن الضآلة بحيث يستطيع أن يخطو من خلال مربع موجود في شبك نافذة القبو فيخرج إلى المجهول. ثم تعلو الكاميرا مُظهِرَةً سماءً هائلة مملوءة بالنجوم وبدُوَّامة البُروج البعيدة، ما يعني أن كاري يغدو غير مرئي عندما يبلغ نهاية حديثه مع نفسه. تحاول استيعاب ما يجري. سيظل كاري يصغر ويصغر، متقلِّصًا إلى جُزَيْئة دون ذرية، مُنْحَلًّا إلى وَحْدَةٍ من الوعي الصِّرف، ومع هذا فإن الافتراض أن كاري لن يختفي تمامًا أبدًا، وأنه ما دام حيًّا فإنه لن يُصَيَّر عَدَمًا. إلى أين يمكنه أن يصير بعد هذا؟ أي مغامرات أخرى تنتظره؟ تُخبِر نفسك: سيُدمَج بالكَون، وحتى في هذه اللحظة سيستمر عقله بالتفكير، وصوته بالتكلُّم، وبينما كنتَ تخرج من دار السينما مع صديقك مارك، مسحوقَيْن إلى استسلام صامِتٍ بسبب نهاية الفلم، شعرتَ أن العالم غيَّر مَعَالِمَه في داخلك، وأن العالم الذي تعيش فيه الآن ليس هو نفسه العالم الذي كان موجودًا قبل ساعتين، وأنه لن يكون ولن يكون له أن يكون العالم نفسه مجدَّدًا ألبتة.

2

1961. لا يمكنك تذكر الشهر، لكنك تعتقد أنه كان في أحد أيام الخريف، كنتَ حينها في الرابعة عشرة، ولقد دقَّت مرحلة المراهقة، وتجاوَزْتَ الصِّبَا بأشواط، ففقدت الدوامة الاجتماعية التي استهلكتك وأنت في الحادية عشرة والثانية عشرة فِتْنَتها. تجنَّبتَ الذهاب إلى حفلات الرقص والسَّمَر، وحتى مع أنك كنتَ مشغوفًا بالبنات، ومشغولًا أكثر من أي وقت مضى في السعي من أجل تَرْبِيَتك المتعلقة بالشهوة الجنسية، فإنك فقدتَ كل رغبة في مسايرة الآخرين ومحاولة إيجاد مكانٍ بينهم، وقصَدْتَ كلَّ القصد أن تسلك سبيلك الخاصة، وبقدر ما يتعلق الأمر بالعالم، سواء أكان عالم بلدة انيوجرسي الأصغر الذي عشتَ فيه أم عالم دولتك الأكبر، فإنك عَدَدْتَ نفسكَ سالكًا موقف المعارَضَة، شخصًا على خلاف مع حال الأمور كما هي آنذاك. كنتَ ما تزال منخرطًا في لعب الرياضات (كرة القدم الأمريكية، وكرة السلة، وكرة القاعدة، هذا مع مهارة متزايدة باستمرار ومع حَمِيَّةِ المُرَام من لعبك الرياضة)، ولكن الألعاب عادت لا تكون مركز حياتك، وكان الروك آند رول مَيْتًا بالنسبة إليك. قضيتَ في السنة الماضية مئات الساعات في الاستماع إلى الموسيقا الشعبية (الْفُوك Folk)، أسطوانات فُنُوچرافية لِفِرْقة ويڤرز (Weavers) ولِوُودي چَثْرِي (Woody Guthrie)، مجذوبًا إليهم بكلمات التمرُّد التي مَلَأت أَغَانِيَّهم، ولكن اهتمامك الآن بهذه الرسائل البسيطة بدأ بالفتور، إذ كنتَ تمضي قُدُمًا، سَاكِنًا لموسم أو موسمين في مملكة الجاز، ومن ثم في الرابعة عشرة والرابعة عشرة والنصف أغرَقْتَ نفسك في الموسيقا الكلاسيكية، في باخ وبيتهوڤن وهِنْدِل ومُوتْسَرْت وشوبرت وهَيْدِن، مُكْتَسِبًا من هؤلاء المُلَحِّنين مُسَانَدَةً وأَوَدًا ما كان يمكن أن يبدو ممكنًا قبل سنة أو سنتين فقط، مكتَشِفًا الموسيقا التي ستكون مصدر سَنَدك وبقائك في خلال السنين التالية كلّها. كنتَ تقرأ الآن أكثر أيضًا، فالحاجز الذي وقَفَ مرةً بينك وبين ما عَدَدْتَه أدبًا من المرتبة

الأولى، هذا الحاجز سَقَط، فهُرِعْتَ إلى هذه الدولة المهولة التي ما زالت موطِنَك، بادِئًا بأمريكيي القرن العشرين مثل همنچواي واشْتَيْنبِك وسِنْكلير لُوِس وسالِنْجِر، ولكنك مَرَرْتَ أيضًا بكافكا وأُرويل لأول مرة في تلك السنة، مُخَيِّمًا مع *كَنْديد* لڤولتير، وهذه أضحكتك أكثر من أي كتاب آخر قرأته، ومُصَافِحًا إِملي دِكِنْسِن ووِلْيَم ابْلَيْك، ولن يمضي وقت طويل حتى تحجز مَمْشَاكَ إلى روسيا، وفرنسا، وإنچلترا، وإِرْلندة، وألمانيا، وهذا كله إلى جانب سلوكك طريق العودة إلى الماضي الأمريكي. كانت هذه السنة هي نفسها التي قرأتَ فيها *البيان الشيوعي* لأول مرة ـ وهي سنة محاكمة أَدُلْف آيْخْمان في القدس، وسنة خِطَاب آيزنهاور عن المجمَّع الصناعي العسكري، وسنة تنصيب كِنِدي، وسنة تأسيس هيئة السلام (Peace Corps) وغَزْو خليج الخنازير، وسنة صَيرورة آلِن شيبِرد أول أمريكي يُطلَق إلى الفضاء، وسنة جدار برلين. لقد بدأتَ تُولِي انتباهًا الآن، لقد تحوَّلتَ إلى مخلوق سياسي يحمل آراء وحُجَجًا وحُججًا مضادة، مُرَوَّعًا بسباق التسلُّح النووي بين أمريكا والاتحاد السوڤيتي، ولذا صرتَ داعمًا متحمِّسًا لحركة «احظروا القنبلة» (Ban the Bomb)، وشابًّا يتابع بنَهَم كل تطوُّر في حركة الحقوق المدنية، وهو ما تلخَّص بالنسبة إليك في مسألة الإنصاف، ومسألة إلغاء أخطاء الزمن القديم، والحُلم الذهبي للعيش في عالم لا يهتمّ بالعِرْق. ضُرِب في أثناء الصيف، على يد هَمَجٍ من الرجال البِيض، راكِبُو الحريّة (Freedom Riders) وهم يسافرون عبر الجنوب في حافلات للمسافات الطويلة، وانتَحَر همنچواي، وفي نزهة ريفية في أثناء المخيم الصيفي في غابات ولاية نيويورك صُعِقَ ولد في مجموعتك بصاعقة رعدية ومات، وهو رالف إم. البالغ أربع عشرة سنة، ولم يكن بعيدًا منك بأكثر من قَدَمٍ عندما ضربته الصاعقة هابطةً من السماء وكهربته، ومع أنك كتبتَ من قبل عن هذا الحادث ببعض التفصيل (في *لِمَ نَكْتُب؟*، القصة الثالثة)[1] فإنك ما توقَّفت قطّ عن التفكير بما حدث في ذلك اليوم، إذ استمَرَّ في تشكيل وتَخَلُّل نظرتك إلى العالم منذ ذلك الحين، فهذا كان أول درسٍ لك في كيمياء الحَظّ، ومن خلاله تَعَرَّفتَ القوى الوحشية التي يمكنها أن تُحِيلَ الحياةَ إلى موت في لحظة. الرابعة عشرة، سن الرابعة عشرة الفظيع، يومَ كنتَ ما تزال سجينَ الظروف التي وُلِدتَ فيها ومع ذلك مستعدًّا لنسيانها وتجاوزها، وعندما كان كل حُلمك أن تهرب.

(1) Why Write ?, story no. 3.

من بين الأفلام التي شاهدتها في تلك السنة *حُكم في نُورنبرج* (Judgment at Nuremberg)، *واثنان امتَطَيا معًا* (Two Rode Together)، *والمُحتَال* (The Hustler)، وكلها أفلام ذائعة شقَّت طريقها إلى دور السينما في ضواحي مقاطعة إِسِكس في ولاية انيوجرسي، ولكن كان على المرء الذهاب إلى نيويورك من أجل مشاهدة الأفلام الأجنبية والأفلام الأقدم، وكانت نيويورك بعيدة بنحو خمس وأربعين دقيقة، ولمّا لم تُنَمِّ عادة التسلل إلى مانهاتن متى ما أردت إلا في السنة التالية عندما كنت طالب سنة ثانية في المدرسة الثانوية، فإن تعليمك السينمائي لم يبدأ جدِّيًا وأنت في الرابعة عشرة. كان المكان الوحيد الذي أمكنك أن تشاهد فيه أفلامًا قديمة هو التلفزيون، فهو مصدر مفيد بدوره، ولكن الأفلام تُذاع على المحطات المحلية حيث يُقتَطَع منها لتتناسب مع جداول مرتبة مسبّقًا ودائمًا ما تملؤها فواصل إعلانية مسببة للسُّخط، مع هذا كانت توجد سلسلة أفلام مُتَلْفَزة تفوقت على السلاسل الأخرى، وهي برنامج يُدعى *فِلم مليون الدولار*، وقد بُثَّ على القناة التاسعة وعَرَض فلمًا أمريكيًّا كلاسيكيًّا في كل يوم لأسبوع كامل، فيُعاد الفلم نفسه ثلاث مراتٍ يوميًّا: مرة في الصباح، ومرة بعد الظهر، ومرة في المساء، ما يعني إمكان مشاهدة الفلم نفسه واحدًا وعشرين مرة على امتداد مئة وثمانٍ وستين ساعة ـ على افتراض أنك تمنيت فعل هذا. لم تقدر على مشاهدة فلم *هارِبٌ من سجن المساجين المُسَلْسَلِين* (I Am a Fugitive from a Chain Gang) إلا من خلال *فلم مليون الدولار*، فكان الهَزَّة السينمائية التالية في حياتك، الفلم التالي الذي تفَجَّر في داخلك وغيَّر تركيب عالمك الداخلي، وهو فلم من إنتاج الإخوة وارنر (Warner Brothers) عام 1932 أخرجه ميرفِن لِيرُوي مع بول ميوني (واسم ولادته ميوني فَيْسِنْفروِيند) في الدور الرئيس، وهو واحد من أحْلَكِ الأفلام الأمريكية التي أُنتِجَت أبدًا، وهو قصة عن الظُّلم تتجَنَّب عُرْفَ هوليوود في تقديم نهايات سعيدة أو مملوءة بالأمل، ولأنك كنتَ في الرابعة عشرة مشتعلًا بالسُّخط تجاه ظلم العالم، كنتَ ناضجًا لقصة كهذه، فجاءت إلى حياتك في اللحظة عينها التي أردتَ رؤيتها، لهذا شاهدته في اليوم التالي، وثم في اليوم الذي يليه، ولعلك شاهدته في كل يوم حتى انتهى الأسبوع.[1]

---

(1) *هارب من سجن المساجين المسلسلين*. أصدرته شركة الإخوة وارنر بكتشرز، في نوفمبر من

انتهت الحرب. الجنود الأمريكيون في طريق عودتهم إلى الوطن من أوروپا، وسُفُن ضخمة تشقّ طريقها عبر مياه الأطلنطي المتجمدة، وصافرات بخارية تُدَوِّي احتفالًا، وبينما ترسو كَتِيبة «غروب الشمس» (Sunset Division) في المرفأ، ترى سطح السفينة محتشدًا برجال لابسين الزيّ، مئات من الجنود يُلَوِّحون بكل حماسة للجمهور المتهلِّل الذي ينتظرهم على الساحل. العام عام 1919، والأولاد الذين أبحروا بعيدًا ها هم يعودون إلى الإبحار هنا، ووُقِّعت اتفاقية الهُدنة، والحرب الكبرى الآن جزء من التاريخ الماضي، وفي الأسفل، في أحشاء السفينة، توجد عصابة من الأشخاص الذين سيصبحون قريبًا جنودًا سابقين تُغَنِّي عاليًا في أثناء وجود فرقة أخرى صغيرة تلعب لعبة اكرابس (Craps) على الأرض، يُربَح بالمال ويُخسَر، وحجارة النرد تُقَعقِع على السطح القاسي، ثم يجيء رقيب الفرقة وابتسامة الاعتذار على مُحَيَّاه قائلًا للأولاد أن يُوقِفوا اللعب لأن *العجوز* أمَرَ بإجراء تفتيش لأَسِرَّة السفينة بعد ساعة. يُعَقِّب مُتَشَدِّق من تكساس أنه إنْ تَلَفَّظ أحد بكلمة *تفتيش* فإنه سيَحْشو فيه مُسَدَّسه السداسي الطلقات، ثم تمر لحظات ويبدأ الجنود بالحديث عن خططهم في ما بعد الحرب، يقول الرقيب، وهو رفيق ودود وجَلِدٌ من الواضح أنه ظفر باحترام رجاله، إنه ينوي الحصول على عمل من أعمال البناء، وإن العمل في فيلق المهندسين كان *تجربة رائعة* لذا يريد اغتنامها بقدر ما يستطيع. يقول واحد من الجنود: أُراهِن أننا سنقرأ عنك في الجرائد، السيد جيمس آلن يبني قناة بَنَما جديدة ـ أو شيئًا من هذا القبيل، فيرد آلن: يمكنك أن تراهن بأن السيد جيمس آلن لن يعود إلى المصنع القديم.

السنة 1919، لكن الفلم الذي تشاهده أُنتِجَ بعد ثلاث عشرة سنة، أي في أسوأ سنة

1932. المدة 93 دقيقة. المخرج: ميرڤن لِيرُوي. الكُتَّاب: القصة لروبرت إي. بيرنز، والسيناريو لِهَوَرْد ج. اجرين وابراون هومز. المُنتج: هال ب. والِس. الطاقم: بول ميوني (جيمس آلِن)، واچْلِنْدَا فارِل (ماري)، وإدورد إلِّس (بومبر وِلْس)، وهِلِن ڤِنْسِن (هِلِن)، ونُويل افرانسس (لِندَا)، واپريستُن فوستر (بِيت)، وآلِن جِنْكِنْز (بارني سَايْكس)، وبيرتن تشيرتشل (قاضٍ)، ودِيڤد لَنداو (آمر سِجن)، وهيل هاملتن (المُوَقَّر اكْلِنْت آلِن)، وسالي ابلاين (آلِس)، ولويس كارتر (أُمّ)، ووليم روبرتسن (رئيس مجلس إدارة السجن)، وروبرت مكويد (رَمزي)، وروبرت واروِك (فُلَر)، ووليم لمير (مواطن من تكساس). مصور سينمائي: سلو پوليتو. محرِّر: وليم هومز. مخرج فني: جاك أوُكي. مصمم أزياء: أوري كِلي (أثواب). قائد أوركسترا: ليو ف. فوربشتَيْن. [هامش من المؤلِّف]

دون شكّ من سنوات «الكساد»، ولمّا كنتَ الآن قد تعلَّمت شيئًا أو شيئين عن التاريخ الأمريكي، فإنك تعلم أنه قُبَيْل تصوير الفلم، في ربيع وصيف عام 1932، خيَّم «جيش العِلاوة» (Bonus Army) في أناكوستيا افلاتس (Anacostia Flats) في الجزء الجنوبي من العاصمة واشنطن، وكان هذا الجيش مجموعة من ثلاثين ألف شخص كلهم تقريبًا محاربون قدماء في الجيش، فنزلوا إلى العاصمة لدَعم وثيقة يُحَامِي عنها عضو مجلس الشيوخ رايت پاتمن الذي اقترح أن يُسمَح للمحاربين القدامى تَسَلُّم صَكٍّ عِلَاوة الحرب الخاصة بهم، وقدرها ألف دولار، نَقْدًا في تلك السنة بدلًا من ضرورة الانتظار إلى عام 1945، مثلما نَصَّ القانون الحالي، وبإطالة مقام هؤلاء الرجال المحتاجين إلى وظائف واليائسين شهرًا بعد شهر في مخيَّمهم المكوَّن من الخِيَم وأكواخ الألواح الكرتونية، صاروا حَرَجًا دائم التزايد لإدارة الرئيس هوڤر. مُرِّرَت وصية پاتمن إلى مجلس النواب ولكن التصويت جاء عليها بالرفض من قِبَل مجلس الشيوخ، ما قاد إلى معاركَ حانقة ـ مع أنها صغيرة ـ بين أعضاء جيش العِلَاوة والشرطة المحلية، فأقْنَعَت هوڤر أن الوقت حانَ للتخلص من هذا القطيع من الشحَّاذين اليساريين الشُّعث، من هذا الفَيْلَق المدعوّ «الرجال المنسيين». اختار جيش الولايات المتحدة ليؤدي المهمة له، وهو اختيار سياسي شنيع، فأمر جنودًا باستخدام القوة على جنود آخرين، وهذه مفارقة من القساوة بحيث إن غالب الدولة اشمَأزَّ من مثل هذا التصرف، ومن الفضوليّ ملاحظة أنه من بين الممثلين الرئيسيين في هذه الدراما كان دوچلس مكآرثر رئيس أركان الجيش، والرائد ادوايت آيزنهاور، كمساعد لمكآرثر، والرائد جورج پاتون، وهؤلاء الرجال الثلاثة الذين سيصبحون الجنرالات الأمريكيين الأشهر معرفةً في الحرب العالمية الثانية. يتحمل مكآرثر المسؤولية مخالفًا نصيحة آيزنهاور (*لقد أخبرت ابن العاهرة الغبي أنه لا عمل له ألبتة في ذلك المكان*)، فيشير إلى پاتون أن يضع وَحْدَة من الدبابات على أطراف المخيَّم، ومن ثم في الثامن والعشرين من تَمُّوز، والكل بالزي الرسمي الكامل، مع الأوسمة كلها ظاهرة على صدره، قادَ القوة التي أجْلَتْ «جيش العلاوة» من مدينة أكواخه التعيسة، فدفع بالمتطفلين إلى مَرْمَى إطلاق النيران وعشرات من الأكواخ تحترق رمادًا. ثم بعد أكثر من مئة يوم بقليل من هذا، صار هوڤر رئيسًا لفترة حكم واحدة، إذ هُزِم بالتصويتات ليخرج من المنصب مقابل نَصْر روزفلت الكاسح.

ثم ينتقل الفلم، بعد العروض العسكرية ما بعد الحرب مع الفِرَق الزاحفة والأعلام الأمريكية العملاقة، إلى لقطة لقطار مُتَسَارع، وتمرُّ ثوانٍ دون أن يتضح أين يتجه القطار، كما لو أن القاطرة الرئيسة المندفعة على سكك الحديد ليست إلا تمثيلًا تجريديًا للوقت وهو في حركة، ليست إلا الانتقال المفاجئ والمسعور من الماضي إلى الحاضر، في حين يدفع الحاضر بنفسه إلى المستقبل. انسَ الحرب، فالحرب قد انتهت، ومهما كان عدد الذين ماتوا هناك في الخنادق الموحِلَة والمملوءة بالدماء، فإن الحاضر لا ينتمي إلا إلى الأحياء.

انتقالٌ إلى مشهد آخر، وهذه المرة إلى محطة القطار في بلدة تُدعى لِنْديل (Lynndale)، ومن الواضح أنها بقعة صغيرة على الخريطة، بقعة أمريكية باهتة في مكان ما، ويقف على الرصيف أربعة أشخاص: امرأة متوسطة السِّنّ بملابس قاتمة ومتحفِّظة، وشابّة شقراء جميلة، وكاهن يلبس قبَّة الكهانة، ونظارة بإطار سِلكي نحيل، وقبعة سوداء، إلى جانب رجل أكبر سنًّا ببِذلة وربطة عنق وقبعة قشِّيَّة على رأسه. تسأل المرأةُ المتوسطة السنّ الشقراءَ إنْ كانت تعتقد أنه سيكون مرتديًا ميداليته (يفترض المرء أن المتَحَدَّث عنه هنا هو ابنها)، فتردّ الفتاة: نعم، بالطبع سيكون مرتديًا إيّاها، ولكن لحظة تمرّ فيتوقف القطار فيخطو خارجًا منه الرَّقيب آلن، مرتديًا بذلة مدنية ـ دون أي ميدالية، ولا زي رسمي، ولا أي شيء يوحي بأنه حارب في الحرب. وبعد عِناقٍ مَرِح وترحيبي من أمه، يصافح آلن الفتاةَ مُبَدِّدًا أي فكرة عن أنها قد تكون أخته، أو حبيبته، أو زوجته، قائلًا إنه لم يكن ليتعرَّف إليها ألبتة، ثم تردّ الفتاة التي اسمها آلِس ردًّا تُعوِزه اللباقة قائلةً إنه يبدو مختلفًا أيضًا، وتُردِف أنها تفتقد الزيّ الرسمي الذي كان يجعله يبدو أطول وألفت للنظر، قائلةً له بهذا إنه أُحِيلَ الآن إلى رتبة لا أحد بغض النظر عن عدد الميداليات التي قد يكون فاز بها خارج البلاد، وحتى تزداد الأمور سوءًا، يُعلِم الكاهنُ آلن، وهو الذي تبيَّن أنه أخوه الأكبر، بكلّ حماسة أن السيد باركر، وهو الرجل المحترم صاحب القبعة القشّية، سيعيده إلى المصنع، وبينما يهزّ باركر يد آلن ويصفعه على ظهره يؤكِّد له أن عَمَل آلن قد حُفِظ له حقًّا. *لقد أديت دورك، ولن ينساك سيّد عملك*. كل هذا حَسَن، ولكننا بعدما سمعنا تعليقات آلن على السفينة، فإننا نعلم حقًّا أنه لا ينتوي العودة إلى

عمله القديم في المصنع. مع أن الفلم لم تمرّ عليه إلا ثلاث دقائق، فإنك قادر بالفعل على رؤية السحابة التي تتجمّع حول رأس جيمس آلن.

***

يُعقَد عشاء العودة إلى الوطن في *المكان القديم*، وهو بيت غير مهوّى من طراز القرن التاسع عشر مع أثاث داخلي غير مرتب، ولا نرى آلس، فالموجودون هم الأعضاء الثلاثة من عائلة آلن: الأم الحليمة والبلهاء، والأخ اكْلِنت المتحفِّظ والمتظاهر بالتقوى (وهو ثقيل الظلّ معسول اللسان ويحوز عادة تشبيك يديه المزعجة وهو يتحدث)، والخشن آلن المتّقد بالطموح والمستعد لمواجهة الحياة بأكملها والوقوف لها. يبدأ الخلاف في غضون ثوانٍ، إذ يذكر اكلنت عرضَ السيد باركر الكريم والوُدّي، ويخبره آلن فورًا أنه لا يريد الوظيفة، فيُشْدَه الأخ الأكبر والأم، ثم يردّ آلن ضاحكًا ويشرح أن الجيش قد غيَّره، وأنه لا يريد قضاء باقي حياته يستجيب لصافرة مصنع بدلًا من نداء البوق العسكري، وأنه يريد أن يعمل شيئًا *ذا قيمة*، وأنه لا يتخيل نفسه حَبيسًا في غُرفة شَحْن طوال اليوم.

مع هذا، لعدم رغبته في تخييب أمل أمه، يعود آلن متردِّدًا إلى وظيفته القديمة في شركة باركر للتصنيع، «بيت الأحذية المريحة»، لكنه في أعماق قلبه لا يريد هذه الوظيفة، ولا عقله يطاوعه عليها، ويومًا بعد يوم يقضي فترة الغداء يتسكع حول موقع بناء جسر جديد، فاقدًا حِسَّه بالوقت كثيرًا، ويتأخر أحيانًا في العودة إلى فترة عمل ما بعد الظهر. ثم ينفجر استياؤه على عشاء آخر للعائلة عندما يخبره أخوه بخيبة أمل السيد باركر بأدائه في العمل، لذا يدافع آلن عن نفسه بحديث متَّقِد يتعلق برغبته في بناء حياة جديدة بنفسه، مخبِرًا اكلنت وأمه أن الروتين المتصلِّب والميكانيكي في المصنع أكثر إحباطًا من الجيش، وأنه يحتاج إلى الذهاب إلى مكان ما، إلى أي مكان، حيث *أستطيع فعل ما أريده*. ثم تَرِقّ له أمّه في تحول مفاجئ، مانحة إياه مبارَكَتها وموافقتها على أن يستهل العمل الذي يريد بنفسه، وعندما يعترض اكلنت فإنها تنتهر «التقيَّ المُبَجَّل» بإعلان بسيط وصريح عن دعمها الأمومي، وتقول نشيد كل الأمهات الطيبات: *عليه أن يكون سعيدًا، عليه أن يجد نفسه*.

وظائف البناء متوفرة في انيوإنچلند حسب ما يقوله آلن، ثم تُعرَض بعد لحظة خريطة على الشاشة، خريطة لانيوجرسي كما يتبيَّن (وهي انيوجرسي نفسها التي كنت تشاهد فيها الفلم)، ويرافقها صوت قطار يتحرَّك مسرعًا، قطار مسرع آخر، ومن ثم تتلاشى الخريطة لتظهر صورة القطار، وهذه تتلاشى أيضًا مُظْهِرَةً كُنِكتكت... ورُد آيلند... وبوسطن.

يظهر آلن وحيدًا في مقصورة أعمال بناء ثقيلة، قاعدًا وراء عجلة ما يبدو مجرفة بخارية كبيرة، ما يشير إلى أنه وجد العمل الذي كان يبحث عنه، وكل شيء على ما يرام. ثم يجيء رجل إليه، وهو كبير العُمَّال، رئيسهم، الرجل المسؤول، فيخبر آلن أن يكفّ عن عمله فهو يحمل إليه أخبارًا سيئة، لذا يقول إنهم يخفضون عدد العمال، وسيكون على رجلين المغادرة. يقفز آلن من الآلة دون التعبير عن كثير قلق أو مفاجأة ويقول: *حسنًا*. لقد أعجبك كيف تعامل بهدوء مع هذه النكسة، هذا العَزْل التعسُّفي، إذ طُرِد دون أن يخطئ في شيء، ولكن آلن يبدو واثقًا، فما زال مملوءًا بالأمل نحو المستقبل، رجلًا مستعدًّا لأي شيء.

خريطة أخرى تبدأ ببوسطن، ومن ثَم تتابع رحلة سفينة بخارية متجهة جنوبًا، ثم نزولًا إلى الساحل الأطلنطي وداخلةً خليج المكسيك، حيث تقف أخيرًا في نيو أورلينز.

ثم يدخل آلن إلى مصنع ويقدِّم إلى وظيفة، بمظهر مرهق من السفر، وبملابس أكثر رثاثة الآن، مع لحية خفيفة نَمَتْ عبر يومين تُسَوِّد وجهه، وكَتِفَيْن بدأتا بالارتخاء قليلًا. لقد سافر شمالًا، وسافر جنوبًا، وبعد كل هذه الأميال فإنه لم يتغيَّر أي شيء في وضعه منذ بدأ ـ بل لعله كان يُكَافِح ليعود إلى حيث بدأ، فهو الآن بلا وظيفة، وسيقبل بكل سرور عملًا مماثلًا للذي دعاه *غبيًا* وبلا *قيمة* عندما عاد إلى الوطن من الحرب. يسأل الرئيس: أتريد عاملًا جيِّدًا؟ فيجيب الرئيس: كان هذا ممكنًا في الأسبوع الماضي، أما الآن فلدينا ما يكفي، يهزّ آلن رأسه ويقبض يده، ومن ثم يهبط بقبضته بلُطْفٍ، بل بكل لطف، على الطاولة، رافضًا أن يفقد السيطرة على نفسه، فهو ما زال لم يصل مرحلة اليأس الكاملة، ولكن القبضة علامة على أمل متناقص بسرعة، وعندما يستدير ويغادر يبدو كما لو كان رجلًا خِلْوَ الأفكار.

تظهر الخريطة مجددًا، وأصوات القطار السريع. آلن في طريقه عائدًا إلى الشمال، مركِّزًا على البلدة غير الواعدة أوشكش (Oshkosh)، وسكنسن.

هَهُوَذا يرتدي وِزْرَة (أفرول) وقميص عمل، ويقود شاحِنة نقل جذوع أشجار مقطوعة على طريق عبر غابة صنوبر - يلتفت آلن إلى الرجل القاعد على جانبه فيقول إنه يعمل كبَدِيل لأيام قليلة. ثم يردف: صدِّقني، إنني مسرور للعمل مجددًا، فهو عملي الأول منذ وقت طويل. لذا فإن أوشكش ليست إلا فترة تنفيس مؤقتة، فاصل مخادع رَفَعَ معنويَّات آلن لبرهة فقط، ولكن اتضح الآن أنه لم يجد أي وظائف دائمة في أي مكان، وأنه مهما سافر من المسافات بحثًا عن وظيفة، فإنه دائمًا ما سيرجع خالي الوفاض، وكذا ما حدث، فعندما تظهره الخريطة التالية في طريقه مجددًا جنوبًا، متجهًا نحو سانت لويس، مع صوت قاطرة القطار الرئيسية مندفعة بِلَحْنها الذي صار معتادًا الآن، يظهر أن كل شيء تغير فجأة، إذ عندما تكشف الكاميرا عن مصدر هذا اللحن يظهر أن آلن غير قاعد في عربة قطار مزدحمة مع ركاب آخرين، ويتبيَّن أن القطار الذي استقلَّه هو قطار شَحْن، وها هو وحيد ينام على أرض إحدى عربات الشحن. المحارب القديم المتفائل الذي كان سيسطع باسمه ببناء قناة بَنَما التالية: ها هو تحوَّل إلى متشرد أو صعلوك يقود سكك الحديد، إلى تائه لا يملك فلسًا، إلى رجل منسيّ. نعم، يُفتَرَض أن حوادث الفلم تقع في 1919، ولكن السنة في الحقيقة 1932، فتُدرِك الآن أنك تشاهد قصة عن الكساد العظيم، قصة عن ما يعنيه العيشُ في دولة بلا عمل.

يدخل آلن متجر رَهن حاملًا شيئًا في يده، غَرَضًا أصغر من أن يُرى. إنه يبدو متشرِّدًا الآن، رَثَّ الثياب، بذقن غير محلوق، وقبعة مجعدة ومبعوجة. يسأله صاحب المحل عن ما يريده، فيفتح آلن يده عارِضًا له ميدالية عسكرية، ويسأله: كم يمكنك أن تدفع لي مقابل صليب الحرب البلجيكي؟ وبدلًا من أن يُسَمِّي صاحب المحل سِعرًا، يُشير إلى آلن بإصبعه داعيًا إياه إلى إلقاء نظرة داخل الصندوق الزجاجي الموضوع على طاولة البيع، فينظر آلن وكل ما يراه هو ميداليات، عشرات الميداليات المماثلة للتي يحملها في يده، الكثير من الميداليات، ميداليات لا عدَّ لها، وكل واحدة منها تمثِّل قصة الحظ السيئ لعضو مستقبلي من «جيش العِلَاوة»، فينكِّس آلن رأسه مستسلمًا دون أن يقول

أي كلمة، وينظر إلى ميداليته في كَفِّ يده، ثم يغادر. لربما كان حارب من أجل أمريكا في الحرب، ولكنه الآن مواطن في دولة الحظ السيئ.

تظهر خريطة أخرى تتبع تقدُّم آلن شرقًا خارج سانت لويس، ولكن هذه المرة يُعرَض المشهد في صمت، فلا ترافقه أصوات القطار الموجود في كل مكان، وبينما تتلاشى الخريطة ببطء يُعرَض آلن وهو يمشي عبر مسار سكة حديد، وهو ما يفسِّر الخريطة الصامتة ما دام يسافر مَشْيًا على الأقدام الآن، مواجهًا الكاميرا بلقطة أمامية كاملة، إنه جسد وحيد في مكان قَصِيّ، وتلاحظ أن مِشيته تظلّ قوية وحازمة، وأنه على الرغم من كل الأشياء السيئة التي عُرِّض لها فإنه ما زال لم يُهزَم، ومع هذا، ومع كل شجاعته، فإنه يبدو تَعِبًا وجائعًا، ومهمومًا، وتائهًا، وتشعر بوجود شيء غريب في تعبير عينيه، شيء مبهوت ومُحَطَّم، كما لو أن آلن عاجز عن تصديق ما حصل له، كما لو أنه ضُرِب بصاعقة وهو في مكان ما في مسارات سَفَره.

ينزل آلن في فندق رخيص، وهو مكان إقامة ملائم لشخص نَبَذته دولة الحظ السيئ، غرفة كبيرة مملوءة برجال مُعدِمين، والتخوت فيه بخمسة عشر سنتًا، والوجبات بخمسة عشر سنتًا، والحمامات بخمسة سنتات، ثم بعد قليل نرى آلن يتحدث إلى زَبُون أشْيَب يُدعى بِيْتْ، وهو شخص يبدو مُطَّلِعًا على تفاصيل الأمور، وهي التفاصيل التي يعترف آلن بصراحة أنه يجهلها. يقرر بيت أنه جائع فيسأل آلن عما سيقوله لهمبرغر، فيرد آلن: ماذا سأقول لهمبرغر؟ سأصافح السيد همبرغر يدًا بيد وأخبره: يا صديقي، لم أرك منذ وقت طويل جدًّا. ما زال حِسُّ دعابته سليمًا ـ وهو ما تأخذه علامةً مُشَجِّعة ودليلًا على أن أمر آلن لم ينتهِ بعد. إن الرجل الذي يعمل على عربة الغداء في الشارع، على وفق كلام بِيت، شخص *طَيِّب القلب*،[1] ومن المحتمل أن يستطيعا استجداءه حاصلين على سندويشتي برغر منه، فينطلقان إلى عربة الغداء، وكما توَقَّع بِيت، فإن البائع يوافق على طلبهما ـ ربَّما تردَّدَ في هذا، ولكن صاحب القلب الطيب لا يمكنه معاونة نفسه على رَدِّ الرجل الجائع، لذا يرمي بشطيرتي لحم على المِشْواة. تشتعل عينا آلن، وتنتشر ابتسامة فَرِحة ومُرتَقِبة على وجهه، وبينما يضع في فمه نُكاشة الأسنان (لعله يجهز فمه

(1) التعبير المستخدم في الأصل هو Soft egg، وأقرب ما يعنيه ما أوردناه في الترجمة. [المترجم]

للطعام؟)، يحدِّق إلى اللحم وهو يَئِزّ كأنه ينظر إلى امرأة جميلة، كأنه كان ينظر إلى الآنسة همبرغر، لا السيد همبرغر.

ثم يسوء كل شيء فجأة، إذ يسحب بيت مسدَّسًا من جيبه مُخبِرًا صاحب القلب الطيب أن يضع يديه على طاولة البيع، ويأمر آلن بأن يُفَرِّغ مُسَجِّل النقد، فيُبْهَت آلن ولا يقدر على التلفُّظ إلا بـ«*يا أنت!*» مذعورة، ما يعني قوله «لا» لن أفعل ما تريد، فما الذي يجري بحق الجحيم؟ ولكن بيت يشير بالمسدس إليه، مهدِّدًا بأنه سيطلق النار على آلن إن لم يفعل ما يقوله. أيملك آلن أي خيار؟ ليس بالفعل، ليس في هذه الظروف المحددة، لذا يمشي إلى مُسَجِّل النقد ويُخرِج النقود التي لم تتجاوز خمسة دولارات. يقول بِيت لآلن وهو يتلكّأ عند مسجِّل النقد: هيّا، هيّا، ثم يتراجع بيت ليخرج من عربة الغداء ومسدسه مصوَّب على صاحب القلب الطيب، وينتزع سلك الهاتف العمومي من الحائط، مخبِرًا صاحب القلب الطيب أن لا يبدأ بالمناداة على الشرطة، ويفتح الباب، وما عتَّم أن فتحه إلا وبِيت يُطلق النار بمسدسه، فيقتحم شرطي عربة الغداء ويتبادل إطلاق النار مع بِيت، فتمر لحظة ويسقط بيت ميتًا.

آلن مرعوب، كان فَزَعُه أكبر من أن يدعه يفكر بوضوح كافٍ عن ما يجب أن يفعله الآن، مثل أن يُرجع النقود إلى صاحب القلب الطيب، أو أن يقعد ويخبر قصته للشرطي بهدوء، ولكن أول اندفاعة لرجل مفزوع أن يهرب، وهذا ما فعله آلن، إنه يركض الآن حفاظًا على حياته، محاولًا الهرب مهتاجًا من الباب الجانبي، ولكن الشرطي الذي قتل بيت يُسرِع في ملاحقته، وبمجرد خروج آلن يغرس شرطي آخر مسدَّسًا في بطنه ويخبره بأن يرفع يديه، فيرفع آلن يديه.

تتلاشى الشاشة لتصير سَوَادًا، ويظهر بعد لحظة قاضٍ يعلن الحكم على آلن من مقعده، ويقول: لا أرى أي سبب للتَّلطُّف في الحكم، فالنقود وُجِدَت معك، ثم فوق هذا، عندما كُشِفَ عنكما حاولت الهرب، وهذا ما سيزيد بالضرورة جَسَامة جُرْمِك، لذا أحكم عليك (تدقّ المطرقة هنا) بعشر سنين من الأعمال الشاقة.

تَصعب عليك مشاهدة الجزء التالي من الفلم. لقد بُعِثَ بآلن ليقضي مدة حكمه مقيَّدًا إلى مجموعة مساجين معًا، وهذا نوع من العقوبة شديد البربرية والوحشية في

إهانته وقسوته حتى كاد يحملك على إطفاء التلفزيون ومغادرة الغرفة، وإن كنتَ أصْرَرْتَ على متابعة التحول المنظَّم لرجال كانوا يومًا أحرارًا إلى حيوانات مرعوبة تُعامَل كالبهائم، فإن هذا لم يكن إلا لأن عنوان الفلم يوحي بأن آلن سيجد في النهاية طريقة ليتسلَّل خارجًا من ذلك المكان. ليس السجناء بأفضل من العبيد، فأرجلهم مقيَّدة، ويُضرَبون ويُجلَدون بعشوائية، ولا يعتاشون إلا على حَسَاءٍ مَرِقٍ نَتِنٍ وغير صالح للأكل (الفطور: خليط من الدهن، وعجين مقليّ، وشحم خنزير، وسورغم أو الدُّخن)، ويُوقَظون بالقوة من أسِرَّتهم في الرابعة صباحًا ويعملون عملًا متواصلًا حتى الثامنة مساءً، بِيضٌ وسُود، مُسِنُّون وشُبّان، كلهم مرهقون يحطمون حجارة بأرَازِبَ[1] في أرض حارِقة وجرداء، والوَيْل للرجل الذي يتوانى أو يمرض، فالسَّوْط هو علاج هؤلاء الذين لا يعملون بجِدٍّ كفاية، بل حتى تصرُّفًا بريئًا كمسح العرق عن جبينك لا يمكن فعله إن لم تأخذ إذنًا من الحُرَّاس، وإنْ نسيتَ استئذان الحارس لفعل شيء كهذا، فإنك ستتلقى مؤخرة بندقية تسحق وجهك وترميك أرضًا: كذا كان العالم الذي دخله آلن بسبب جريمته الفظيعة التي لم تكن شيئًا غير *النظر إلى شريحة همبرغر*.

يوجد رجل مريض جدًّا، فعلى الفطور في أول صباح لآلن في المعسكر، تُظهِر لقطة متوسطة القرب رجلًا يضع رأسه على الطاولة، غير قادر على رفع الملعقة إلى فمه، ثم لاحقًا ومجموعة السجناء في الخارج تحطِّم الصخور، كان بالكاد قادرًا على مَسك الإرْزَبَّة بيديه، فهو يترنَّح وجعًا ودُوارًا وعلى شفا الانهيار. يقول حارس: هيّا، هيّا، عُد إلى العمل، فيرد واهِنًا الرجلُ المريض، المعروف باسم رِدْ: عليّ أن أتوقَّف، فمعدتي... فيردّ الحارس غاضِبًا: استمرّ بالعمل وإلا ركلتُ وجع المعدة هذا ليصل إلى أُذُنيك. يلوِّح رِدْ بالمطرقة بعض التلويحات المثيرة للشفقة، عاجزًا عن رفع الإرْزَبَّة أكثر من إنشات قليلة عن الأرض، ومن ثم ينهار فاقدًا الوعي، فيرمي الحارس ماء على وجهه قائلًا له أن ينهض، لكن رِدْ لا يتحرك. عندما تعود الشاحنات في ذاك المساء إلى المعسكر والرجال راكبين عليها، يظهر أن رِدْ ما زال فاقدًا الوعي، مستلقيًا ساكِنًا على اللوح المسطح في مؤخرة الشاحنة، وسائر الرجال يقفزون

(1) مطارق كبيرة. [المترجم]

نازلين. يظهر رِدْ على الفطور (وهنا خليط مفتَعل آخر شرير، توضحه لقطة مقرَّبة للسجين القاعد على جانب آلن، وهو يلتهم الطعام ولُقَم كبيرة من الدهن والشحم تتدلى من فمه)، ولكنه غير قادر على التحمل أكثر من هذا، لذا يقف عن الطاولة ويتهادَى إلى غرفة الأَسِرَّة ويرمي بنفسه على سريره. ثم بعد مرور وقت قصير، بينما الرجال كلهم في غرفة الأسِرَّة أيضًا مستلقون على أسِرَّتهم، يدخل حارسان وآمر السجن على الغرفة، ويحمل أحد الحارسين سَوْطًا، أداةً بمظهر كريه تنتهي بسَوْط، فيقول الحارس الآخر: حسنًا، أَرِنَا رجلًا لم يعمل جيدًا اليوم، فيُختَار رجل، فيُخلَع عنه قميصه ويُقادُ بعيدًا حتى يتلقى عقابه جَلْدًا، فيسأل الآمِر: أيوجد رجل آخر؟ فيرد حارس: هذا الرجل رِدْ حاول أن يخدعنا بادّعاء فِقدانه الوعي اليوم، فيقترب الآمر من رِدْ: تتظاهر بالإغماء، ها؟ يردّ رِدْ: لا آبه بما تفعله بي، لا يُهِمّ، يرفع الآمر السوط في وجه رِد ويقول: ألْقِ نظرة على هذا! في أثناء هذا كله كان آلن يشاهد ما يجري من قُرب من سريره، دارِسًا بعناية هذا الطقس الليلي من العقاب المتعسف، وعندما يرى الآمر يُهَدِّد رِد المُحتَضَر يحتدم غضبًا حتى يعجز عن منع نفسه من الدمدمة: *القَذِر!* بالكاد كان التعليق مسموعًا، ولكن الآمر سمعه، ولمّا كان الجميع ممنوعًا من ردّ الكلام بوقاحة، فإن الآمر يدفع رِد جانبًا ويصوِّب انتباهه على آلن قائلًا: أنتَ التالي، مشيرًا إلى السجين الجديد، ومن ثَم يأمر الحارسين *بخلع قميصه المُقرِف*، لذا يمزقان قميصه على الفور ويجبرانه على الوقوف ويدفعانه على طول الممر بين صَفَّي الأسِرَّة، والسلاسل تُصَلْصِل وهو يجرّ قدميه بالأصفاد الحديد. يقف أول رجل سيُجلَد وراء مُلَاءة أو سِتارة رقيقة، فيظهر كشكل ظِلّيّ وجِذعه العاري مكشوف لِظِلّ سَوْطٍ وهو يخترق الهواء، ولكن قبل أن يُوقِع الآمر أول جَلْدة تستدير الكاميرا إلى وجه آلن وعينيه وهو يشاهد الضرب مرتَعِبًا، متجَهِّمًا مع كل عويل يتفجر من فم الرجل. ثم يجيء دور آلن، ويجري الضرب مجدَّدًا دون أن تُظهره الكاميرا، وهذا ما يجعله أسوأ بالضبط، فالكاميرا تنظر إلى الرجال الآخرين الآن، تنظر إليهم في لقطة تسير ببطء متحركة على طول خط الأسِرَّة وهم يلتفتون لمشاهدة جَلْدِ آلن في ما وراء حدود إطار الصورة، والتعبير الجماعي على وجوههم هو خُلُوُّها من أي تعبير، ولا شيء أكثر من فضول مشدوه وفاتر وزميلهم السجين يكاد يُسلَخ حيًّا، وكانوا رجالًا

مهزومين ومتبلِّدين تجاه معاناة الآخرين حتى إنهم بالكاد يحوزون أي مشاعر باقية، لقد كانوا الموتى الأحياء.

لقطة لرُزنامة: التاريخ الخامس من حَزِيران. ينظر آلن وأربعة سجناء آخرون عبر نافذة في غرفة الأسِرَّة، إذ لقد أُطلِقَ سراح أحد السجناء، وبينما يشاهدون صديقهم بارني يمشي نحو بوابة المعسكر الأمامية، يُضَيَّق إطار الكاميرا حتى يُظهر لقطة قريبة من قَدَمي وكاحِلَي بارني: تُخُلِّصَ من السلاسل، ولكن عادة السلاسل ما زالت في جسده، لذا يستمر بالمشي بخطوات السجين القصيرة والبطيئة ـ لقد تحرَّر في الأقل، لكنه ما زال غير حرٍّ حتى اللحظة. يُلَوِّحون جميعًا مودِّعينه، وبينما يُلَوِّح بارني لهم، يقول آلن لبمبر وِلْز (وهو السجين المُسِنّ الذي صاحَبه في أول يوم له في السجن): يُثبت هذا في الأقل شيئًا، أنه في الإمكان الخروج من هنا حقًّا. يحسب أنه قضى أربعة أسابيع من حُكمه، ما يعني أنه ما زال باقيًا له تسع سنين وثمانية وأربعون أسبوعًا، وبينما ينظر إلى السلاسل على قدميه يقول أحد الرجال مستندًا إلى النافذة: أوه، إن رِدْ مغادر اليوم أيضًا. ينتقل المشهد إلى الخارج: يظهر نَعْش خشبي مُجَرَّد يحوي جثة الرجل المريض وهو يُحَمَّل في العَرَبة، فيدرك بمبر: توجد طريقتان فقط للخروج من هنا: العمل أو الموت. يسأل آلن إن كان تمكَّن أحدٌ من قبل من الهرب، فيرد أحد الرجال: توجد الكثير من العقبات التي تعترضك، كالسلاسل، والكلاب البوليسية، والحُرَّاس وبنادقهم، ولكن بمبر ينزوي بآلن ويخبره: نعم، لقد حدث أن هرب واحدٌ من قبل، ولكن عليك تجهيز خطة مثالية: عليك أن تراقب، وعليك أن تنتظر، ربما لسنة، وربما لسنتين، ثم (يهزّ كتفيه) عليك *أن تهرب*. وبينما يفكر آلن في نصيحة الرجل المُسِنّ، تتلاشى الصورة إلى لقطة أخرى لرُزنامة، فتتساقط الأوراق وتطوف في الهواء: حَزِيران، تمُّوز، آب، أيلول، تشرين الأول، تشرين الثاني...

هل خطة آلن مثالية؟ لربما لم تكن كذلك، لربما كانت مجرد تصرُّف ناجم عن يأس مروِّع، اندفاعًا متهوِّرًا إلى الموت المؤكَّد أو الوقوع في قبضة الحُرَّاس، ولكن على آلن المخاطرة، فقد سُجِن لسبب يكاد لا يكون شيئًا، لخَرقِه قانونًا أُجبِر على خَرْقِه على خلاف إرادته، وحتى الموت سيكون أفضل من تسع سنوات أخريات ونِصْف السنة في سجن المُسَلْسَلِين، وحتى لو لم يكن لآلن خطة مثالية تامّة التفاصيل،

فإن لديه مخطَّطًا، جزءًا أول من الخطة في أي حال، وهو أهم جزء، إذ ما لم يجد طريقة للتنصُّل من قُيوده وتحرير قدميه، فإنه لن يملك أي فرصة. يُدعى أحد السجناء سباستيان (سباستشن)، وهو رجل أسود عملاق بقوّة خمسة رجال عاديين، إنه رجل من المهارة والقوة في استخدام إرْزَبَّته بحيث إن آلن عندما رآه في أول يوم، علَّق بمبر ساخِرًا: إنهم يحبون شغله كثيرًا، سيبُقون عليه هنا إلى آخر حياته. في يوم حارّ بعد الظهر، يوم عسير فيه الكثير من الشمس والقليل جدًّا من الهواء، عندما بدأ حتى الحُرَّاس بالشعور بالإرهاق، غارقين في سُبَاتٍ من التعب وشُرود الانتباه، يَدنو آلن في هذا اليوم من سباستيان ويطلب منه أن يضرب بالمطرقة على القَيْدَيْن في رجليه حتى يثنيهما ويغيِّر شكلهما، ليس إلى الدرجة التي يصير التغيُّر فيها ملحوظًا بل فقط حتى يقدر على إخراج رجليه منهما. يتردد سباستيان في البداية رافضًا التورُّط في مشكلة، ولكنه في النهاية يرِقُّ لطلب آلن لفوز التضامن على الخوف، قائلًا إنه بالطبع سيحبّ أن يرى آلن يتخلص من *هذا البُؤس*. إنهما يعملان بالقرب من سكك حديدٍ مهجورة، فيحفرون تحت القضبان حتى يُخْلُوا الأرض، وبينما يقف آلن على أحد قضبان السكة وإحدى رجليه داخل السكة والأخرى خارجها، فإن سلسلته تُشَدُّ ممدودة عبر القضيب الحديد، وهنا يبدأ سباستيان بالتصرف، فيضرب القَيْدَيْن بكل مقدارٍ من القوة الهائلة التي يحوزها، ثم إنها عملية مُبرِحة تتبع فيها ضربةُ مطرقةٍ مِلؤُها الألم ضربةً أخرى، لكن آلن صَبَر عليها وتجاوزها مرتجِفًا ويكاد يذرف بعض الدموع، كابِتًا الدافع إلى الصراخ، فكذا كان إصراره حتى إنه عندما بَدَا عمل سباستيان قد انتهى، سأل الرجل الضخم أن يهبط بضربة أخرى بالمطرقة. يظهر آلن في تلك الليلة وهو يفحص القَيْدَيْن المُعدَّلَيْن، ويَتَبيَّن أنه بكثير من الجهد صار يمكنه الآن أن يَحْنِيَ قَدَمَه مُخرِجًا إياها من القيد، ثم يُرجِع قدمه ويغطيها بلِحَاف السرير. يهمس بمبر من السرير الجانبي: متى ستفعلها؟ فيهمس آلن رَدًّا: في يوم الاثنين، وفي هذه اللحظة يسلِّمه بمبر سبعة دولارات، فهو كلّ ما يملك من مال في هذا العالم، يرفض آلن أخذها ولكن صديقه يُصِرّ مُخبِرًا إياه أن يذهب مباشرة إلى بارني حالما يهرب (ويكتب عنوانه على جُذاذة من ورق)، ما دام يُمكن الاعتماد على بارني لمساعدة آلن. يسأل بمبر: أمتوتر؟ يرد آلن: قليلًا، فيُردف بمبر: حسنًا، أيًّا كان ما سيجري، فإنه أفضل من الوضع الحالي.

لقد مُثِّلَت سلسلة المشاهد المتتالية هذه في عشرات من الأفلام الأمريكية منذ 1932 ـ أعني الهرب من السجن، والمطاردة المنظمة للسجين الهارب، وفِرَار المُدَان المنفرد وهو يتخبط طريقه عبر الأدغال والمستنقعات في حين يلاحقه الضبَّاط المسلحون مع كلاب نابِحَة ومسعورة وراء تشَمُّم الروائح ـ ولكن هذه كانت المرة الأولى التي يُمثَّل فيها شيء كهذا عبر صُوَر حَيَّة (متكَلِّمة)، أو لعلها واحدة من المرات الأولى، ثم تعثَّرتَ بعد خمسين سنة ببرنامج *فلم مليون الدولار* وما زال توجيه المخرج ميرڤن لِيرُوي لحوادث الفلم يُدهِشك بأنه مثالي، بل الأفضل من بين كل سلاسل المشاهد المشابهة التي شاهدتها في أي فلم. يُفَكِّك السجناء مزيدًا من سكك الحديد، واليوم يوم حارّ آخر في «الجنوب العميق»[1]، فينادي آلن على أحد الحُرَّاس: أريد الخُروج هُنا، وهو التعبير المعتاد لطلب الإذن من أجل قضاء الحاجة، وبمجرد أن يقول الحارس: حسنًا، اذهب هناك، يُرَبِّت بمبر على يد آلن راجِيًا له الحظّ، وعندها يذهب آلن دانِيًا من تلّة صغيرة نحو الشُّجَيرات، ولمّا غابَ عن البصر قعد على الأرض وخلع حذاءيه وبدأ يعمل على قَيْدَيه محاولًا إخراجهما من قَدَميه، محاوِلًا باهتياج، محاولًا دون أن ينجح، محاوِلًا ومستغرِقًا وقتًا أطول مِن الذي احتاج إليه في غرفة الأسِرَّة، ما يعني أن محاولة الفرار بدأت بنحو سيئ، ولا شيء يجري كما خُطِّطَ له، وها هو الحارس يُطلق النار فجأة لمّا استدار للبحث عن آلن. إن الوقت قصير، بل قصير جدًّا، فحالما خلع آلن القَيْدَيْن، وارتدى حذاءه، وبدأ بالزحف خارجًا من الشجيرات، كنتَ متأكدًا أن كثيرًا من الوقت ضُيِّع، وأنه سيفشل. يصرخ الحارس: حسنًا يا آلن، عُد إلى العمل! حينها يقف آلن ويبدأ بالهرب، وهو مَرْمًى مفتوح للنيران يَعْدُو عبر أرض تخلو من الشجر في الغابة. يصوِّب الحارس ببندقيّته ويُطلق طلقة، وطلقتين، وثلاث، وأربع، ثم خمس طلقات، ولكن الأرض الخالية من الشجر انتهت فاختفى آلن في الغابة. يجتمع حارسان ويذهبان خلفه مع كلاب بوليسية نابِحة ومسعورة

(1) أو الجنوب الأقصى Deep South، أو الجنوب الأسفل، وهو جزء من منطقة جنوب الولايات، وهو الجزء الذي تميّز قبل الحرب الأهلية وقبل الحرب العالمية الثانية باعتماده على الزراعة والأشغال والعبيد، وبفقره مقارنةً بسائر الولايات، والشائع أنه يتكون من لوزيانا ومسيسبّي والاباما وجورجيا وجنوب كارولينا، وقد تُضاف أركنساس وتكساس وافلوريدا. [المترجم]

وراء تشمم الروائح، ومن بُعد صوت صافرات قطار، وآلن يركض، وما زال يركض بأقصى ما لديه والمشاهد تتناقل بين الرجل المُطَارَد والمطارِدين. لقد صارت الكاميرا حينها أداةً للهلع، فالتواترات المُجَزَّأة للصور المربوطة معًا تمثّل تجسيدًا للخوف، وهي صور تُحَاكي النبض المحموم لقلب رجل وهو يخفق في داخل صدره: *الظُّلْمة مَرْئِيَّة* (جون مِلْتِن)، فقلب آلن غير مرئي، ومع هذا فإن حوادث الفلم تقترب كثيرًا من تمثيل خَفَقان هذا القلب كما لو أن المرء يمكنه رؤية القلب، كما لو أن جسد المرء بأكمله صار القلب. يقف آلن أخيرًا ليلتقط أنفاسه، فيستند إلى شجرة ليمنع نفسه من السقوط أرضًا، ومن ثم يظهر قُبَالته بعيدًا عنه بمسافة قصيرة الفناء الخلفي لمنزل، وفي هذا الفناء حبل غسيل معلّق عليه ملابس مغسولة مؤخَّرًا لِتَجِفّ، لذا ينطلق آلن نحو المنزل فينتزع بعض الملابس من الحبل ومن ثم يُهرَع إلى الأشجار مجدّدًا. نعم، هذا فاصل موفَّق، ولكن هذا بافتراض أنه سيقدر على سَبْق الحارسين، ولكن حتى يخلع زِيّ السجين المخطط الذي يلبسه ويرتدي الملابس الجديدة، فإنه يحتاج إلى بعض الوقت، وهو وقت سيُقَلِّص المسافة بينه وبين مُطَارِديه، ولكن عليه أن يتخلص من الزيّ، فهذه فرصته الوحيدة، لذا يخلعه ويرتدي الملابس الأخرى، وحالما يتجهَّز أخيرًا للركض مجددًا تصير الكلاب قريبة بنحو خطير، فيعلو نُبَاحهم المُهتَاج مع كل ثانية تمضي، ولكن آلن ما زال يسبقهما، يسبقهما بمسافة تسمح له بأن يكون مخفيًّا عن الأنظار، وها هو الآن يركض عبر الحشائش الطويلة، ويوجد بعد الحشائش مباشرة نهر أو جدول أو ماء متدفِّق، وحينها من دون التأني قليلًا ليسأل نفسه ما سيفعل تاليًا، يخطو آلن في الماء وبعد لحظة والماء عَلَا حتى خصره يقتطع خَيْزُرَانة من مجموعة خيزُران ناتئة من سطح الماء، فينفخ بقوة في الخيزرانة حتى يزيل منها أي عوائق، ومن ثم يندسّ في الماء ويغمر نفسه تحت سطحه مستخدِمًا الخيزرانة أداةً للتنفس، ومن بين جميع مقاطع الفلم ظلّت هذه معك الأدْوَم، وهي اللقطة التي تخطر لك مجددًا متى ما فكرت في مشاهدة الفلم، إنها لقطة تحمل معها كل ما يُمَثِّل كابوسًا، صورة مَسْكُونة: آلن تحت الماء والخيزرانة في فمه، وكل شيء صامت، بلا أي صوت يصدر من الفلم، وجسم آلن ساكن تمامًا، قارًّا ومستقرًّا ارتعابًا من ما قد يحصل له فجأة، وبينما يقترب الحارسين والكلاب من النهر، يخوض أحد الحارسين في النهر، وتمر لحظات وجيزة

تكون فيها رجليه على بُعد إنشات فقط من جسد آلن الثابت، وليس بينه وبين الاصطدام به إلا خطوة أخرى، ولكنه لا يخطوها، وعندما يقرر هو والحارس الآخر البحث في مكان آخر، يصير آلن قادرًا في الأقل على الوقوف والعبور إلى الضفة الأخرى من النهر. يلقي آلن نظرة سريعة خلفه للتأكد أنه ليس مُطاردًا بعدُ، ولكن لا يظهر له أحد، لا شيء سوى الأرض والسماء والماء، فتتلاشى الشاشة وتصير سوادًا.

مدينة ضخمة ليلًا، وبُولْفَار أضواؤه ساطعة، وحركة مرور تَنْفذ في كل اتجاه، صَخَب وجُمُوع. ينتقل المشهد إلى زوجين من الأحذية، إلى حذاءي رجل يمشي بخطوات بطيئة ومتثاقلة، ثم تميل الكاميرا إلى الأعلى فيظهر آلن: متَّسِخًا، وغير حَلِيق، ومُنهَكًا، كأنه لا أحد مجهول، يسير على الرصيف، ثم يقف آلن قبالة متجر ملابس رجالية، تمر لحظات فيظهر في داخله ناظرًا إلى نفسه في مرآة طويلة وهو يتفحص بذلته الجديدة. ثم يزور الحلاق بعد هذا ليحلق لحيته، فتكون الحِلْقة قصيرة، بل تكاد تكون كارثة[1] عندما يدخل شرطي إلى المحل ويقعد على كرسي فارغ ويبدأ بالثرثرة مع الحلاق عن سجين هارِب يُدعى جيمس آلن ـ *بطول خمس أقدام، وشعر أسود كثيف، وعينين بنيتين، وبنية قوية، وقريب من سن الثلاثين* ـ قائلًا إنه سيُمسَك به لا محالة قريبًا جدًّا، فدائمًا ما يُمسك بالهاربين قبل أن يتسللوا من المدينة. ثم تنتهي الحلاقة فيبدأ آلن بحكّ خدّه حتى يُبقي وجهَه مخفيًّا عن الشرطي، ولكن الحلاق يُخطئ تفسير الحركة فيظن أنها تعليق على حلاقته فيسأل: كيف كانت؟ أهي قصيرة بما فيه الكفاية؟ فيرد آلن (وهو يهزّ رأسه فاتحًا الباب): بل قصيرة جدًّا. ينتقل المشهد إلى آلن وهو يمشي في شارع آخر في الليلة نفسها، بعد ثوانٍ أو دقائق من مغادرته محل الحلاقة، مستَعْرِضًا ورقة في يده هي عنوان بارني، وليس عنوانه يشير إلى بيت أو مبنَى شقة، بل إلى فندق صغير وبَالٍ. يرحِّب صديق آلن مشبوب الحماسة والشوارعيّ من سجن المُسَلْسَلِين به بحرارة، عارِضًا عليه أن يوفر له مكانًا للاختباء، *أن يزوّده بكل ما يحتاج إليه*، أن يفعل أي شيء في وسعه لمساعدته. إن طبيعة عمل بارني غامضة، ولكن يظهر أنه يُدير بيت بِغَاء من

(1) يوجد هنا لعب في معنى الصفة close: فوصف الحلقة بها يعني أنه حلق لحيته حلقة صار فيها الشعر قصيرًا جدًّا، لكن أوستر يقصد أيضًا المعنى «وشيك» الذي يحيل على أنه كاد يُمسَك بآلن بسبب هذه الحلقة، من هنا وصفها بأنه كادت تكون كارثة. [المترجم]

نوع ما، أو عملية متاجرة غير شرعية بالخمور، أو لعله يديرهما معًا، ما دام مخزونه من الكحول وافِرًا (يسكب بارني مشروبًا لآلن، لكن آلن يرفضه وهو بالغ التوتُّر، قائلًا لبارني إن لديه يومًا عسيرًا ينتظره غدًا) والنساء يتوفرن في غضون بُرهة. اضطرّ بارني إلى الخروج في تلك الليلة، إذ كان لديه عمل ليقوم به، ولكنه يخبر آلن قبل أن يغادر: *سأحضر شخصًا يَرعَى راحتك*، فتدخل لِنْدَا، وهي فتاة جذّابة في منتصف إلى آخر عشرينياتها، وتبدو حزينة وواهنة وعَطُوفة، وواضح أنها *امرأة ساقطة*. يقدِّمها بارني إلى آلن ويخبرها مَرِحًا أن *صديقه* هرب من سجن المُسَلْسَلين (وهذا ما يجعل آلن يجفل)، ومن ثم بينما يتوجه بارني إلى الباب يأمرها: اعتني به يا حبيبتي، فهو ضيفي الخاص. ثم يخيِّم صمتٌ محرج بعد مغادرة بارني الغرفة، فآلن غير مستعد، وبالكاد يعرف كي يتصرف، وفكره أكثر تشتُّتًا بضغط اللحظة من أن يَسترسل في التصرف ويُخفض دفاعه في حضور هذه المرأة. تقول له: لديك قدر وافرٌ من ما يتطلَّبه الأمر للهرب من ذاك المكان، معبِّرةً عن الإعجاب بشجاعته، ومريدةً إياه أن يفهم أنها إلى جانبه، ولكنها عندما تُبَادر لتُقَبِّله فإنه يردُّها، ويقول لها: ما من شيء يمكنك فعله، ولكن عندما تمشي لندا نحو الطاولة لتسكب لنفسها مشروبًا، يتأمل آلن جسدها، ويُقَوِّم رجليها وخصرها ووِرْكَيْها، شاعرًا بنفسه يُجذَب إليها، عاجزًا عن مقاومة طيبَتها الأخَّاذة والحزينة. ترفع لندا كأسها لتشربها نخبًا له، ثم تقول: إن رجلًا بشجاعتك استَحقَّ الحظّ الذي حالفه، ومن ثم تقترب منه مرة أخرى وتقعد على ذراع الكرسي وتربِّت على كتفه، وتقول: إنني أعلم بما تفكر، وأنا أفهمك، أنت في صحبة أصدقاء... كِيَاسة وحُسن امرأة ساقطة تتكلم مع رجل ساقط. يخمِّن المرء أنهما يختتمان بالنوم معًا (لم يكن قانون إنتاج هوليود مطبَّقًا آنذاك)،[1] ولكن قوة هذا المشهد لا تتعلق إلا قليلاً أو بالمرة بالرغبة الجنسية، بل هو عن الوُدّ، وبأخذ الطريق القاسي الذي سيمرّ فيه آلن على طول القصة، فإن هذا الحوار الوجيز مع لندا قد يكون أكثر مقاطع الفلم أُنْسًا.

يحصل آلن في اليوم التالي أخيرًا على همبرغر. الوقت صباحًا أو في الساعات الأولى بعد الظهر، وها هو قد اشترى توًّا تذكرة قطار ستعبر به عبر حدود الولاية،

---

(1) ما يشير إليه يسمَّى Hays Code، وقد طُبِّق بداية من 1934 حتى 1968، وهو باختصار قانون أو مجموعة تعليمات تخصّ الرقابة الأخلاقية على الأفلام. [المترجم]

إلى ما بعد نطاق القانون وإلى حياة جديدة، ولكن القطار يتأخر عن موعد الانطلاق، ولذا دون أن يملك شيئًا بين يديه يفعله إلا قضاء الوقت حتى يجهز القطار، يُمَتِّع آلن نفسه بهمبرغر عند كوخ طعام خارجي ويلتهمها سريعًا، يلتهمها بسرعة حتى إنه يطلب همبرغر ثانية، وغنيّ عن الذكر أنه لا يأكل هذه الثانية، إذ يتبيَّن الآن أن الهمبرغر يعمل كبَخْتٍ سيئ في هذه القصة، أو كمقدمة إلى حَظٍّ من أسوأ نوع، وقبل أن يستطيع آلن قضم الهمبرغر الثانية قضمة واحدة يظهر رئيس الشرطة، وهو يبحث هو ورجاله عن شخص ما، عن مجرم طليق، ولمّا كان آلن متأكدًا أنه المجرم الذي يبحثون عنه، يرمي بسندويشة الهمبرغر ويبتعد عن كشك الطعام. القطار شبه مستعد للانطلاق، وللتنصُّل من المخاطرة يذهب آلن إلى الجهة الأخرى مريدًا الصعود إلى القطار من هذه الجهة لتجنُّب أن تراه الشرطة، وبينما يعتلي درجات إحدى المقطورات ينادي صوت: ها هو ذا! فيبدأ رجال القانون فجأة بالركض نحو اتجاه آلن، يظهر أنه إمسِكَ به، وأن هروبه باء بالفشل، ولكن هذا نذير خاطئ، فالمجرم المعنيّ متشرِّد أشعث، رجل منسي يجثم تحت القطار بعيدًا عن مكان وقوف آلن ببضع أقدام فقط، وبينما يجرّ المحققون هذا المجرم المجهول إلى سيارة الشرطة يقفز آلن إلى القطار. كان هذا مثالًا آخر على نجاةٍ بأعجوبة، تتبعها أخرى بعد دقيقة، فبينما يختم نَاظِرُ القطار تذكرة آلن، يخبره أن الشرطة ما زالت تبحث عن متَّهم هارب، ثم يقعد الناظر مع ناظر آخر وسرعان ما يبدآن بالتحديق إلى آلن والهمس واحدهما في أذن الآخر، ويكاد يكون لا شك في أنهما يتساءلان إن كان يتوافق مع وَصْف الرجل المفقود. ينتقل الفلم إلى مشهد آخر سريعًا: لقطة مقربة على حذاءي آلن المُغْبَرَّيْن، فلقد غادر القطار وها هو يمشي. يُنتَقل إلى مشهد آخر مرة ثانية، وهذه المرة إلى سيارة مسرعة، وتوضع خريطة فوق السيارة، وتتحول السيارة إلى قطار، ويتجه القطار شمالًا على الخريطة، فتُكَبَّر الصورة على الوجهة النهائية وهي شيكاغو، ثم تتلاشى الخريطة مع القطار ليختفيا، وها هي المدينة تظهر: مبانٍ شاهقة، وأضواء لامعة، ومَعْمَعة، وحريّة.

إذ تبدأ حياة آلن مجددًا، يُرَى للمرة الأولى يقف في الخارج قبالة مكتب توظيف شركة الولاية الثلاثية للهندسة Tri _ State Engineering (اتراي ـ استيت)، وقريبًا منه جسرٌ يُبنَى، وعلى الحائط لوحٌ إلى يسار آلن مكتوب فيه: مطلوب رِجَال. لقد كان هذا

نوع العمل الذي أراد أن يفعله عندما عاد إلى الوطن من الحرب، إنه العمل الذي بحث عنه ولكنه لم يجده، وها أنت تتوقع تمامًا أنه سيُرفَض في شيكاغو أيضًا، لا لسبب إلا لأنك صرتَ تنظر إلى آلن بوصفه ملعونًا، بوصفه رجلًا لا يمكن إلا أن تسوء الأشياء بالنسبة إليه، ولبَالِغ مفاجأتك، فإن الرجل خلف المنضدة في مكتب التوظيف يقول: أظن أنه يمكننا الاستفادة منك، حسنًا ـ هنا يتّقد الأمل فيك فجأة وتبدأ بالتفكير أنه لربما حالف الحظّ آلن أخيرًا. يسأله الرجل: ما الاسم؟ فجيب آلن دون تفكير: *آلن*، ولكن عندما يسأله الرجل إن كان هذا اسمه الأول أو الأخير، يتردد آلن لحظةً مدركًا أنه قد مُنِح فرصةً حتى يعيد ابتداع نفسه، وأن يتخذ هُوية جديدة، فيقول إنه *الاسم الأول*، وإن اسمه الكامل *آلن* جيمس. تُفكّر في البداية أن هذه ليست حركة ذكية كثيرًا، فبإمكان أي أحد أن يكشف عن حقيقة هذا العَكس الواضح، ولكنك عندما تستمر بالتفكير في الموضوع أكثر، مستحضِرًا في ذهنك أشخاصًا آخرين تتكون أسماؤهم الكاملة من اسمين أوّلَيْن، تتساءل إن كان هذا لن يفي بالغرض في النهاية. لو حوَّلت هنري جيمس إلى جيمس هنري، فهل سيفكر أحد في السيد جيمس إن قُدِّم باسم السيد هنري؟ لعل هذا مستَبعد، مع هذا فضَّلْتَ تحوُّلًا أكثر جذرية، شيئًا مشابهًا لإعادة ولادة إدمون دونتيس بالاسم كونت مونت كريستو كمثال، وهذه قصة أخرى عن رجل سُجِن ظلمًا ثم هرب (لقد قرأت الرواية وكان الكونت مألوفًا لديك)، ولكن دونتيس حاز حظًّا حسنًا لا يُصدَّق يوم اكتشف كنزًا، وعندما عاد إلى عالم الأحياء كان أغنى رجل في فرنسا. آلن شخص مُدقع الفقر، رجل لا يملك شيئًا. أراد دونتيس الانتقام، ولكن آلن لا يريد غير بناء الجسور.

يُخبر الرجل الواقف وراء المنضدة آلن أن يقدم إلى العمل في الصباح التالي الساعة الثامنة. ينتهي المشهد بلقطة مقرَّبة بإطار كامل لبطاقة توظيف آلن: التاريخ: 1924، رتبة المهنة: عامل، الراتب لكل يوم: أربعة دولارات.

لقد مضى الوقت دون أن يتضح مقدار ما مضى، ولكن آلن يُرَى تاليًا يكدح خارِجًا مع طاقم من الرجال في حرّ شمس ما بعد الظهر يحفرون مجارِيَ، والأداة التي في يده الآن مِعوَل، فتوقف عن تحطيم الصخور إذن، ولا يعمل باستخدام إرزَبّة، ولكن باستثناء غياب السلاسل فإن المشهد مألوف لديك بنحو مُحزِن، فهو كَدْحُ السجن ولكن بشكل

جديد، فلا توجد سِيَاط أو بنادق، ولا يوجد حراس حاقدين، غير أنه يُدفَع القليل جدًّا للعامل، والعمل يقصم الظهر، لذا تبدأ بالشعور باليأس من أن آلن سيقدر يومًا على رفع نفسه من الطين، فكذا بدا ما كان يخبرك الفلم به: العالم سجنٌ لهؤلاء الذين لا يملكون شيئًا، فليس هؤلاء المُعْدِمون في قاع الرُّكام بأفضل من الكلاب، وسواء أكان الرجل يعمل في سجنٍ للمُسَلْسَلِين أم موَظَّفًا بأجر في شركة اتراي ـ استيت للهندسة، فإنه لا يملك تحكُّمًا بحياته. بهذا أوحت اللحظات الأولى من المشهد، ولكنك اكتشفت سريعًا أنك مخطئ، وأن مجرى الأمر أشبه بالمَكِيدة، فبعد لحظة من خُلُوصك إلى هذا التفسير البائس للحوادث يقدِم كبير العمال إلى آلن: أنتَ يا جيمس، لقد كانت فكرتك رائعة بخصوص المنحنى هناك، وقد أخبرت المدير بأنها كانت من اقتراحك. يرد آلن: حقًّا؟ هذا لطيف جدًّا، فيُردِف كبير العمال: لا أظنك ستظل تلوِّح بمِعوَل لوقتٍ طويل. ينتقل المشهد إلى لقطة مقربة إلى بطاقة عمل آلن التالية: التاريخ: 1926، رتبة الوظيفة: كبير العمال، الراتب لكل يوم: تسعة دولارات.

إن رتبته ترتقي في العالم، ففي السنة التالية، 1927، يُرَقَّى إلى ماسح أراضٍ ويحصل على اثني عشر دولارًا لكل يوم، ويصير في 1929 مساعد مدير تنفيذي بأربعة عشر دولارًا لكل يوم، وثم يصير ـ بعد وقت ما (التاريخ والراتب غير محددين) ـ واحدًا من أفضل مسؤولي الشركة، مشرفًا ميدانيًّا عامًّا، رجلًا يُكتَب اسمه ورتبته بحروف منقوشة مُذَهَّبة على باب مكتبه الخاص. من الأسمال والذل إلى الملابس المتأنِّقة والاحترام العام، وأخيرًا باني جسور، وهذا مثال خالص على قصة النجاح الأمريكي، ودليل حيّ على أن العمل المثابر والطموح والذكاء يمكنها أن تدفعك إلى عالم من الإنجاز البَنَّاء والثروة. هنا كان على القصة أن تنتهي ـ فقد كُوفِئت الفضيلة وهُدِّئ مِكْيَالَا العدالة المرتعشان فصارا في اتزان مثالي ـ ولكن ماضي آلن سيظلّ ماضيه دائمًا، ومن هنا تبرز مشكلة، عقبة في طريق السعادة تُشَكِّلها طبيعة آلن الميّالة إلى الثقة بالآخرين أكثر من اللازم (فما الذي كان قد يمنعه من الذهاب خارجًا للحصول على سندويشة الهمبرغر تلك مع بِيت وهو الرجل الذي سطا على عربة الغداء مُسَلَّحًا؟)، ولذا يتجمع البلاء حوله، ودائمًا ما يوجد مزيد من البلاء، فيكون في هذه المرة بشكل امرأة تُدعى ماري، وماري هذه شقراء توَّاقة إلى الجنس وجَشِعة أجَّرته غرفة في عام 1926 ثم صارت

بسرعة شريكته في الفراش، ثم إنها تتعرَّف الشيء الجيد عندما تراه، ولذا ماذا يكون آلن الوسيم والمُجِدّ غير رهان جيد؟ تستمر العلاقة لثلاث سنوات وآلن يشقّ طريقه مرتقيًا سُلَّم شركة اتراي ـ استيت، ولكنه عادَ لا يشعر بشيء تجاهها، لا حبَّ ولا عاطفة، ونيران الرغبة الجسدية طُفِئت منذ عهد بعيد، ويجيء اليوم الذي يقرر فيه آلن أخيرًا أن ينتقل إلى عنوان آخر، تدخل عليه ماري وهو يَحْزِم أمتعته، ومع أن آلن أطيب من أن يخبرها بأنه يريد انفصالًا نهائيًا، فإنه يتَمَلَّك الشجاعة ليذكّرها (مجددًا) بأنه لا يحبّها: لا يمكنني تغيير مشاعري تجاهك أكثر من قدرتي ألبتة على تغيير لون عيني، فترد ماري (يداها على خصرها، ناظرةً إليه بعداء): وهذه علَّتك الوحيدة للمغادرة؟ يجيب آلن: إنها علَّة وجيهة جدًّا، أليس كذلك؟ ماري: لا ليس كثيرًا. وبالطبع، عندما يريد رجل أن يهجر فتاة، فإنه سيفعل أي شيء تقريبًا، بشرط أن لا يحطّ به هذا مجددًا إلى سجن المُسَلْسَلين ـ وهو المكان الذي لعله ينتمي إليه.

إن السر مكشوف، مستحيل استيعاب هذا، ولكن السر مكشوف فعلًا، حتى لو كان آلن الآن في إلِنوي، وهي بعيدة عن الولاية التي كان مسجونًا فيها آلن بمئات الأميال، في الشمال، حيث لم ينبس بكلمة على طول خمس سنوات عن ماضيه لأي شخص، ولكن السر الآن عاد لا يكون سرًّا، وماري المُزْدَراة هي من كَشَفت عن سر آلن، كيف هذا؟ لأن ماري تملك البنسيون الذي يعيش فيه آلن، ولأنها تستطيع الوصول إلى بريد آلن قبله، ولأن أخيه اكلنت، «التقيّ المبجل» الأبله، كتب إليه رسالة يقول فيها: *أعتقد أن عليك معرفة أن الشرطة ما زالت تحاول العثور عليك. عندما أفكر أن الإمساك بك قد يعني ثماني سنوات أخريات مروِّعات في سجن المسلسلين يتجمَّد دمي. سأظل على تواصل بك. بكلّ حُبّ، اكلنت*. والآن ما دامت ماري اعترضت الرسالة، فإن مصير آلن بين يديها. أتراها انقلبت عليه إلى هذه الدرجة حتى تكون راغبةً في الكشف عن الحقيقة؟ لكنها تجيب بالنفي، بخاصة إنِ امتلكت سببًا لحماية آلن، يسأل آلن: ما الذي تعنيه بهذا؟ إنها تعني أنها لن تفشي السرّ إنْ كانَ زوجَها، وتخرج ماري من الغرفة قبلَ أن يستطيع آلن الإجابة عن هذا التهديد بالابتزاز، لقد أجبرته على الاستسلام دون حتى أن ترفع إصبعها، فيَبهت آلن للحظة ويرجع القهقرى كما لو أنه ضُرِبَ فعلًا، وبينما يتحسس طريقه إلى الكرسي، تجعلك النظرة في عينيه تفكِّر في رجل رأى توًّا مدينة

تحترق حتى تُسَوَّى أرضًا، لقد كان تعبيره غريبًا وفظيعًا، فهو يكاد يبتسم، ولكن بغرابة وبفظاعة، كأنها ابتسامة شخص سُحِق، لا يبتسم إلا لمعرفته أنه مقدَّر له أن يُسحَق، ثم تتلاشى الابتسامة فيجد نفسه على شفا إهراق الدموع، لقد تَدَاعَت عزيمته تمامًا، وهو على وشك الانهيار والبكاء، فهو يعلم بأنه محصور، محصور لباقي حياته، ومهما مَلَأه اليأس فإنه لن يفرّ أبدًا.

لا ريب أن الزواج تهريجٌ تَعيس، فزوجته تخونه، وتكذب عليه، وتسرف في إنفاق أمواله، وليس لآلن الحيلة على إيقافها. إنه يزدهر في عمله، وسمعته تنمو، وها هو الآن يُعَدّ واحدًا من أفضل مهندسي المدينة، ولكن حياته الشخصية ليست حياةً، وعندما يعود إلى المنزل في شقته الجديدة تكون مهمته الأولى أن يفرِّغ المنافض الطافحة ويرمي بقناني مشروب الْجِن الباقية من حفلة ماري الأخيرة. ثم في اجتماع فاخر يُنَظِّمه رئيس شركة اتراي ـ استيت (وهو اجتماع لا تحضره ماري لأنها خارج البلدة تزور «ابنة عمها»)، يقابل آلن امرأة تُدعى هِلِن، وهي روحٌ أخرى ضائعة ووحيدة، مع أنها مبتذلة نوعًا ما في ذوقك، للأسف، فإنها كريمة الأصل ورقيقة (على عكس ماري الفظَّة) وحسنة المعشر. تمرُّ شهورٌ أخرى (تُفَضُّ صفحات أخرى من الرزنامة الموضوعة فوق صورة موقع بناء، ترافقها أصوات حفر)، والآن لمّا وقع آلن في حبّ امرأته الجديدة وتبدَّلَت حياته فجأة إلى الأفضل، يشعر بالجرأة على مواجهة ماري وسؤالها الطلاق، ويعد بأن يعطيها أي شيء وكل شيء تريده، ولكنها تخبره بهدوء (وهي متمددة على الأريكة تُدَخِّن سيجارة، ولعلها ثَمِلة قليلًا) أنها راضية بمجرى الأمور كما هو، وأنها سعيدة، وأنه ما من فرصة لتتركه، تقول ماري: إنك ستصبح ذا شأن كبير يومًا ما مع الكثير من المال، وأنا سأكون إلى جانبك، آلن: ولكنني أحب امرأة أخرى، ماري: هذا أمر مُخْزٍ، آلن: لماذا لا تتصرفين بنزاهة؟ ماري: بنزاهة! حتى تتجاهلاني أنت وحبيبتك تمامًا على هواكما؟ إنْ كنتِ لا تستمعين إلى المنطق، فسأجد طريقة أخرى، ماري: افعل هذا وسوف تهدر وقتك، آلن: ليس هذا أسوأ من إهدار وقتي معكِ، ماري (غاضبةً): ستندم على قولك هذا! آلن (ممسكًا بها): اسمعي الآن، لقد هدَّدْتني طويلًا بما يكفي، وقد حان وقت إيقاف هذا، لقد كنتِ تخدعينني، ولقد كنتُ من الحُمق والجُبن الكافي حتى سَايَرْتُ هذا، ماري: يا لكَ من مُتَّهِمٍ قذرٍ عديم النفع، أخدعك؟ سترى.

هنا يبدأ الفصل الأخير من حكاية «الهارب». يصل المحققان إلى مكتب آلن وهو في اجتماع مع وَفْد من غرفة التجارة، إذ يريد دعوته ليكون المتحدث الرئيس في المأدبة التي سيقيمونها، وذلك *لعمل آلن الباهر على الجسر الجديد*. لقد قطع الطريق كله إلى القمة ـ والآن ها هو السقوط الطويل في القاع مرة أخرى إذ تفي ماري بوعدها القاسي، مع هذا فليس الأمر بمسألة بسيطة تتعلق بإعادة إرسال آلن إلى براثن نظام دكسيلاند الجزائي، إذ توجد بروتوكولات مقرَّرة لتنظيم نَقْلٍ كهذا، قوانين ترحيل مجرمين ينبغي اتِّباعها، وإن حاكم إلِنُوي والوكيل القانوني لمقاطعة شيكاغو يرفضان ترك آلن يذهب، فتملأ عناوين الصحف الشاشة: «شيكاغو تحارب لتَجْنِيب آلن سجن المُسَلْسَلين»، يتبعه الردّ الجنوبي: «مسؤولو سجن المسلسلين المحلي حانقون لرفض شيكاغو مساعدتهم»، وهذا ما يستثير مقالة افتتاحية دفاعًا عن آلن: «أهذه هي الحضارة»، «أعلينا أن نظل وُقوفًا في حين أن رجلًا أصبح مواطنًا محترمًا في المجتمع يشهد ظِلَّ عذابٍ من القرون الوسطى يزحف عليه؟ أعلى جيمس آلن أن يُرَدَّ إلى جحيمٍ حيَّة؟»، وهذا ما يستفزُّ بدوره ردًّا آخر، «ما الذي حَدَث بحقوق الولاية»: «الوضع سيئ حقًّا عندما يرفض حاكم ولاية ما أن يعترف بحقوق ولاية أخرى». لو أن آلن يصمد، فالجدل سيخمد في النهاية ويُنسَى، وسيقدر على البقاء في إلنوي كرجل حرّ، ويتزوج هِلِن، ويبني مزيدًا من الجسور، ولكن الهارب عظيم الشرف، وصَلَاحُه يتجاوز الحدّ الذي يكون فيه صالحًا له، وعندما يعرض عليه مسؤولو الجنوب اتفاق تَسْوية، يقبل به حتى يطهّر اسمه مرةً وإلى الأبد، يدّعون أنهم لا يريدونه إلا لتسعين يومًا، وهو عدد الأيام الأقل المفترَض عليه أن يخدمه حتى يُمنَح عفوًا، ولا، بالطبع ليس عليه أن يعود إلى سجن المسلسلين، فهذا ما يؤكّدونه له، ولكنه سيُمنَح عَمَلًا إداريًّا في أحد السجون كبديل. لم تكن إلا في الرابعة عشرة، ولكن حتى أنتَ قدرت على الكشف عن هذه الأكاذيب، وأحسست بالوَيْل الذي كان يحلّ به، ولكن آلن مُصِرٌّ على أن يمضي قدمًا ويغامر، ولذا تشاهد بكلّ كآبة الهارب يودِّع هِلِن ويصعد على قطار يتجه جنوبًا، وعندما يصل يقابل المحامي الذي يدير قضيّته، وهو السيّد رامزي، والذي لم يهمّه أول شيء إلا أن يدفع آلن سُلفة مقدَّمة مباشرة كجزء من أجرته، وعندما كتب آلن الشيك فقط أعلمه رامزي بأن *هذه حال مضحكة، والحاكم غريب الأطوار قليلًا*، ما يعني أن العمل

الإداري غير محدد، وربما يريدونه ليعمل لنحو ستين يومًا، فيبتسم آلن السيئ الحظ واحدةً من ابتساماته الصغيرة والساخرة، ابتسامة رجل حُشر في الزاوية، رجل ليس له خيار إلا قَبول هزيمة أخرى. ستون يومًا. يمكنه فعل هذا إن لَزِم عليه، ما دام هذا سيُنهي هذه المعاملة الشنيعة، سيستحق هذا ستين اليوم.

ثم شيئًا فشيئًا، وبزيادات متصاعدة عبر الأيام والأسابيع والشهور التالية، ينتهي كل وعد قُطِع لآلن في الشمال إلى أن يُخلَف في الجنوب. الخطوة الأولى: يُوضع في معسكر اعتقال إقليم تَتِل (Tuttle)، وهو أقسى معسكر في الولاية، ويَدفَع آلن بعنف إلى غرفة الأسِرَّة أحد الحراس في حين يخبره الآمر أنه سيُطلَق عليه النار إن حاول الهرب مجددًا، ولم يكن لآلن عزاء غير أن صديقه القديم بمبر وِلز واحدٌ من زملائه السجناء، ولكنه عندما يحاول شرح اتفاق العفو الذي عقده مع مأمورية السجن، يخبره بمبر بنحو قاطع: هؤلاء الأولاد هنا لم يسمعوا بهذه الكلمة [العفو] قطّ من قبل. آلن: إنهم يريدون تصعيب الأمور علي لا أكثر، كما أظن، فسأحصل على هذا العفو دون شك. بمبر: اسمع يا فتى، إنهم لا يفكرون في توزيع أعفاء عندما تحلُّ هنا، هذه نهاية الكلام، ويمكنك أن تقول إن الأمر هو *هكذا*.

ينتقل المشهد إلى لقطة واسعة للتلال، وزُمَرٌ من الرجال يعملون في أرض شاسعة من الحجر والسماء، يُلَوِّحون بمطارقهم ونشيد روحاني للسود تُغَنِّيه جَوْقَة من أصوات الرجال السود، وهذه أول مرة منذ بدء الفلم تتوقف القصة عن أن تكون عن آلن ومعاناته، بل هي عن نظام كامل من العقاب والوحشية البربريَّيْن، وإذ ترتفع أصوات النشيد الروحاني من التلال، يستحيل أن لا تتَذَكَّر حقيقة أن الحرب الأهلية آنذاك انتهت قبل سبعة وستين عامًا فقط، وأنه لأكثر من قرنين ونصف عمل الرجال والنساء كعبيد في العالم الجديد، والآن بانقضاء تسعة وعشرين عامًا أخرى والسنة 1961، فإنك تفكر بحقيقة أن هتلر حاز السلطة في غضون شهور فقط بعد صدور الفلم، ولذا من المستحيل لك النظر إلى معسكر الاعتقال هذا من أمريكا 1932 ولا تفكر فيه كمبشِّر بمعسكرات الموت في الحرب العالمية الثانية ـ فهكذا يبدو العالم عندما تديره وحوش.

الخطوة الثانية: جلسة استماع مجلس السجن. يقدم المحامي رامزي والأخ اكلنت جانب آلن من القضية. وبينما تُمَجَّد فضائل آلن، تجيء لقطة فاصلة قصيرة لسجن المسلسلين، حيث يُظهَر آلن وهو يعمل مع إرزَبَّته وجَوْقة أصوات الرجال السود تبدأ مجددًا. ثم بعد ثوانٍ يُرجَع إلى جلسة الاستماع، حيث يدافع القاضي بكل حماسة عن مؤسسة سجن المسلسلين، محاججًا (بمنطق كالكابوس) بأن الانضباط الذي يفرضه على السجناء يمكن أن يكون بانِيًا للشخصية ـ ومثال على هذا حال شخص يُدعى جيمس آلن. الخطوة الثالثة: يُرفَض العفو. عندما يذهب اكلنت ليخبر أخاه بالقرار، ينفجر آلن في فورة غضب وهو واقف في الجهة الأخرى من زنزانة قضيبية، حانقًا على الكذابين والمنافقين الذين سرقوا حياته منه. ثم يخبره اكلنت، هادئًا ومتعقّلًا وكاهنًا كما هو دائمًا، بأن اللجنة صوتت بأن تخرجه إن سلك سلوكًا حسنًا ليصير السجين النموذجي لمدة سنة. سنة ناقص ثلاثة الأشهر السابقة التي خدمها يعني بقاء تسعة شهور أخرى *فقط*. آلن: تسعة شهور! هذا تعذيب ـ لن أفعلها! أخبرك أنني لن أفعلها! سأخرج من هنا حتى لو قتلوني لمحاولة هذا. الخطوة الرابعة: إنه يفعلها، فلفقدانه أي خيار آخر يوافق على البقاء لتسعة شهور أخرى. تتساقط مرة أخرى الأوراق من الرزنامة بمرور الشهور، ووراء هذه الأوراق توجد التلال، ولقطة واسعة لمئتي رجل يحطّمون الصخور بمطارقهم، وتستمر جوقة أصوات الرجال السود. الخطوة الخامسة: جلسة استماع أخرى لمجلس السجن. رامزي (يقول للقاضي): وأخيرًا، لم يكن جيمس آلن فقط سجينًا نموذجيًا لسنة كاملة، ولكنني قدمتُ رسائل من منظمات وأشخاص نافذين لا عَدّ لهم يلتمسون منك اقتراح العفو عنه. ينتقل المشهد إلى غرفة الأسِرَّة، إذ يدخل الآمر ويقول لآلن: لقد حصلتُ توًا على تقرير نهائي عن جلسة الاستماع الأخيرة بحقِّك. ينهض آلن من السرير ويبدو محطَّمًا، ونصف ميت، ونصف مجنون، ولا تفصله إلا خَفقَتا قلب حتى يصير إلى النسيان: حسنًا؟ الآمِر: عُلِّق القرار إلى أجل غير مسمّى.

وجه آلن. ما الذي يحلّ بوجه آلن في تلك اللحظة؟ تُسَلَّط لقطة مقربة على وجه آلن وهو ينهار ويتداعى، والدموع تبدأ بالتجمع في عينيه. يرتعش فمه، ويهتزّ جسده، فيخفض نفسه على السرير بيدين مقبوضتين. إنه الآن لا يرى أي شيء، وعاد لا يكون

جزءًا من هذا العالم. يلكم بقبضتيه الهواء، موجِّهًا إياهما نحو لا شيء، ضاربًا لا شيء. ثم تُسَوَّد الشاشة.

في هذه المرة يهرب هو وبمبر معًا. سيُطلَق على بمبر النار ويموت، ولكن ليس قبل أن يساعد آلن على سرقة قَلَّاب (شاحنة تفريغ)، وليس قبل أن يرمي ديناميتًا على الطريق ليعيق تقدم السيارات الملاحقة لهم، وليس قبل أن يضحك للمرة الأخيرة، وبعد أن يموت المُسِنّ يحرِّر آلن نفسه بقطع سلاسله عن طريق الأتراس التي تتحكم بظهر الشاحنة، ومن ثم يفجر بحزمة ديناميت أخرى جِسْرًا ويُنهي المطاردة. كنتَ مُفْحَمًا بالحوادث حتى إنك لم تتوقف عن التفكير بأن آلن، باني الجسور، قد فَجَّر جسرًا ليحفظ حياته.

سلسلة من عناوين الصحف والمقالات، مع صفحات أخرى تتساقط من الرزنامة في الخلفية. يقول العنوان الأخير كذا: ما الذي حلّ بجيمس آلن؟ أهو، أيضًا، رجل آخر منسيّ لا أكثر؟ «لقد هرب جيمس آلن قبل أكثر من سنة بقليل هروبه الثاني المدهش من سجن المسلسلين، ومُذ ذاك لم يُسمَع عنه شيء».

تتخيله يعيش مستريحًا في مكان ما على الساحل الشرقي أو الساحل الغربي، بل لربما في مدينة جنوب أمريكية أو في أوربا، مؤسِّسًا نفسه مجدّدًا تحت اسم جديد وأكثر خِدَاعًا، ناجِيًا من الظلم الذي ارتُكِبَ في حقه، فمهما كانت قساوة ما عُرِّض له من ضرر، قد أثبت آلن نفسه شجاعًا ومبدعًا، رجلًا استثنائيًا فعل المستحيل بالهرب مرتين من أعمق دائرة في الجحيم. حتى إن لم يكن بطلًا مطلقًا، فإنه بُطُولي، وكان في خبرتك المحدودة حتى ذلك الوقت أن الرجل البطولي دائمًا ما يفوز في الأفلام أخيرًا. ولكن الشاشة الآن عادت سوداء، وتلاشت آخر مقالة في الجريدة من الشاشة، وعندما يُواصَل العرض على الشاشة مجددًا يكون الليل، وهي ليلة مظلمة في إحدى نواحي أمريكا، وتوجد سيارة تصطفّ في المرأب، ثم تخرج امرأة، وبينما تتقدم في الممر المظلم الإضاءة ترى أنها هِلِن، ثم تسمع هلن صوتًا وتتوقف، إذ يوجد أحد مختبئ في الظلال، لقد كان يوجد رجل ينتظرها، وها هو الآن ينادي عليها بِرِفق: هِلِن، هِلِن، هِلِن، ثم تستدير الكاميرا إليه، إنه آلن، أشعث وغير حليق، ومع أنه ليس قريبًا من النسيان فإنه

مُنْدَرِس، إنه شخص آخر غير الأخير الذي رُؤِيَ يهرب من السجن قبل سنة. تُسرِع هِلِن نحوه، وتلمسه، وتنطق باسمه. تسأله: لِمَ لمْ تأتِ؟ يجيب آلن: لأنني كنتُ خائفًا، تقول له: ولكن كان يمكنك أن تكتب لي، تتحرك الكاميرا نحو وجه آلن، وهو الآن ليس الوجه اليائس والمُمَزَّق الذي يملكه سجين، بل وجه رجل مُطَارَد، وجه هارِبٍ، وكُلّه الآن توتُّر وهَلَع، ولا يَتَبَدَّى في عينيه غير الخوف، يقول: ليس الوضع آمنًا، فما زالوا يلاحقونني. كان لدي أعمال، لكنني عجزت عن الاحتفاظ بها، إذ يحدث شيء ما، أو يظهر شخص ما، أختبئ في غرف طوال اليوم، وأتنقّل في الليل، لا أصدقاء، ولا راحة، ولا سلام، سامحيني يا هِلِن، لقد كان ضروريًّا أن أستغل هذه الفرصة كي أراكِ مجددًا ـ كي أقول وداعًا. ثم يصمت. ترمي هِلن نفسها في ذراعيه ناحِبَة، فتقول: كان كل شيء سيكون مختلفًا، فيقول آلن: نعم، كان سيكون مختلفًا، ومن ثم يردف ومرارة وحشية تملأ صوته: *لقد جعلوه مختلفًا*.

ثم يُسمَع صوتٌ فجأة في الظلام، لعله باب سيارة يُطرَق، أو أحد الجيران يمشي نحوهم؟ ينزع آلن نفسه من ذراعي هِلن، وينظر عاليًا، ثم ينظر حوله، وعيناه متَّقدتين بالهَلَع، يهمس إليها: عليَّ الذهاب، هِلِن: ألا يمكنك أن تخبرني أين أنت ذاهب؟ يهزّ آلن رأسه وهو يتراجع بعيدًا عنها الآن، مختفيًا في الظلال، هِلِن: أستكتب لي؟ يهزّ آلن رأسه مجددًا مستمرًّا في التراجع، هِلِن: كيف تعيش؟ عند هذا السؤال يكون قد ابتلعه الظلام ـ ما زال موجودًا، ولكنه غير مرئي، يقول صوته: أعيش *بالسرقة*.

لا شيء الآن غير الظلام، وصوت خطواته وهو يفرّ في الليل.

من الصعب نسيان هاتين الكلمتين الأخيرتين. ـ

من الصعب النسيان، ولمّا كنتَ صغيرًا جدًّا عندما شاهدت الفلم، فقد مرَّت كثيرٌ من السنوات الآن وما زلتَ لم تَنْسَ.

كبسولة زمنية

لقد ظننتَ أنك لم تترك أي أثر، فقد تلاشت جميع القصص والقصائد التي كتبتها في صِبَاك وبُلوغك، ولم يبقَ إلا بضع صور من صِبَاك المُبَكِّر وحتى منتصف ثلاثينياتك، لقد نُسِيَ تقريبًا كل ما فعلته وقلته وفكَّرت فيه عندما كنتَ يافعًا، وحتى لو وُجِدَ الكثير من الأمور التي تتذكرها، فإنه توجد أشياء أكثر، أكثر بألف مرة، لا تتذكرها. لقد اختفت الرسالة التي كتبها إليك أوتو اچرام عندما كنتَ تنتقل إلى سنّ الثامنة، واختفت البطاقة البريدية التي أرسلها إليك استان اميوزْيَلن، واختفى كأس كرة القاعدة الذي مُنِحته عندما كنتَ في العاشرة، ولا رسوم، ولا أمثلة على خطّ كتابتك المبكر، ولا صور صفِّيَّة من المدرسة الابتدائية، ولا تقارير مدرسية، ولا صور لأيام المخيَّمات الصيفية، ولا أفلام منزلية، ولا صور للفِرَق، ولا رسائل من الأصدقاء، أو الوالدين، أو الأقارب. بالنسبة إلى شخص مولود في منتصف القرن العشرين، وهي حقبة الكاميرا الرخيصة، أيام ازدهار ما بعد الحرب عندما كانت كل عائلة أمريكية من الطبقة المتوسطة مأخوذة بحُمَّى المُصَوِّر - لشخصٍ مولود في حقبة كهذه، فإن حياتك الأقل توثيقًا من أي شخص عرفته. كيف لكل هذا أن يضيع؟ لقد عشتَ مع عائلتك في منزلين فقط من سنّ الخامسة إلى سن السابعة عشرة، وكان ما يزال غالب هذه الأغراض المتعلقة بالطفولة سليمًا، ولكن بعد طلاق والديك عُدِم وجود عناوين ثابتة، وقد تنقَّلتَ كثيرًا وسافرتَ بقليل من الأمتعة من سنك الثامنة عشرة إلى بدايات ثلاثينياتك، ساكنًا في اثني عشر مكانًا مختلفًا لستة شهور أو أكثر، هذا دون أن أذكر أماكن أخرى كثيرة لا تُعَدّ سكنتها لفترات أقصر تمتد من أسبوعين إلى أربعة شهور، ولمّا لم تستقرّ في هذه الأماكن وكان مجالك غالبًا ضيّقًا، تركتَ كل آثار ماضيك مع والدتك، والدتك التي لا تستقرّ أبدًا كأن هذا مُزْمِنًا فيها، فقد عاشت مع زوجها الثاني في نصف دزينة من شققٍ ومنازل في انيوجرسي من منتصف الستينيات إلى أوائل السبعينيات، وبعد الرحيل إلى جنوب كاليفورنيا صارت تتنقل كل ثمانية عشر شهرًا في نَوْبة دائمة من الشراء والبيع على طول العقد التالي ونصف عقد آخر، فقد كانت تشتري مجمعات سكنية حتى تصلحها ومن

ثَم تبيعها بربحٍ ثابت (كانت مهاراتها في الديكور الداخلي بَدِيعة)، ومن ثم مع كل هذه الترحُّلات، وكل هذه الكراتين التي تُحزَم مرة ثم تُفَكّ أخرى عبر السنين، كان محتّمًا أن تُتَجاهَل بعض الأشياء أو تُنسَى، وشيئًا فشيئًا مُسِح كل أثر لوجودك المبكر. تتمنّى الآن لو أنك دَوَّنتَ مذكِّرات، أو سجلًّا متواصلًا لأفكارك، وتحركاتك في العالم، وأحاديثك مع الآخرين، وردودك على الكتب، والأفلام، واللوحات، وتعاليقك على الناس الذين قابلتهم وعلى الأماكن التي رأيتها، ولكنك لم تُطَوِّر قطّ عادة الكتابة عن نفسك. لقد حاولت البدء بدفتر يوميات عندما كنتَ في الثامنة عشرة، ولكنك توقفت بعد يومين فقط، شاعرًا بعدم الراحة وبالوعي الذاتي وبالحيرة من غرض اتخاذ شيء كهذا. وحتى آنذاك، كنتَ عَدَدْتَ فعل الكتابة بادِرَة تتحرك من الداخل إلى الخارج، محاولة تواصل مع الآخر. لقد حُتِّم على الكلمات التي كتبتها أن يقرأها شخص آخر غيرك، كرسالة يقرؤها صديقك مثلًا، أو ورقة مدرسية يقرؤها أستاذ قرّر عليكم واجبًا كتابيًّا، أو في حال قصائدك وقصصك أن يقرأها شخص غير معروف، شخص مُتَخَيَّل. كانت المشكلة مع دفتر اليوميات أنك لم تعرف من كان مفترَضًا منك مخاطبته، أكنتَ تتحدث مع نفسك أم مع شخص آخر؟ وإن كانَ مع نفسك، فما أغرب وأربك ما بدا هذا، فلمَ قد تزعج نفسك بإخبارها أشياء تعرفها أصلًا؟ لمَ قد تتغلب بإعادة زيارة أشياء اختبرتها توًّا؟ وإن كانَ المخاطب شخصًا آخر، فمن كان هذا الشخص إذن وأَنَّى لمخاطبة شخص آخر أن تُؤَوَّل على أنها كتابة دفتر يوميات شخصي؟ لقد كنتَ صغيرًا جدًّا آنذاك لتستوعب مقدار ما ستنساه لاحقًا، وكنتَ جِدَّ محصور بالحاضر لتدرك أن الشخص الذي كنتَ تكتب له هو في الحقيقة نفسك المستقبلية. لذا وضعتَ دفتر يومياتك، ثم فُقِد كل شيء تقريبًا شيئًا فشيئًا على طول دَرْبِ سبعة وأربعين عامًا.

بعد نحو شهرين من بدئك كتابة هذا الكتاب، تلقَّيتَ مكالمة هاتفية من زوجتك الأولى، زوجتك السابقة على طول أربعةِ وثلاثين العام الماضية، وهي كاتبة الخيال والمترجمة لِيديا ديفس. مثلما يحدث للأشخاص الأدبيين عندما يقتربون من سن معينة، كانت ليديا تتجهَّز لتنقل أوراقها إلى مكتبة بحثية، أعني واحدة من الأرشيفات حسنة التنظيم حيث يمكن للباحثين التمعُّن في المخطوطات وأخذ ملاحظات للكتب التي يؤلِّفونها عن كتب أشخاص آخرين، بل حتى أنت أيضًا خلَّصْتَ نفسك

من عبء الجبال الشاسعة من الورق بفعل الشيء نفسه ـ وكنتَ سعيدًا بالتخلص منها، ولكنك سعيد أيضًا في الوقت نفسه بأنه يَعتني بها بكلّ حرص أشخاص طيبون يُديرون مجموعة بيرج في مكتبة نيويورك العامة. أخبرتك ليديا حينها أنه من بين الأوراق التي كانت تُخَطِّط لإدراجها جميع الرسائل التي كتبتها إليها، ولما كانت الكلمات في هذه الرسائل تخصُّك، حتى لو كانت الرسائل المادية نفسها تخصها هي، فإنها أرادت أن تصنع نسخًا من الرسائل وترسلها إليك لتنظر فيها، مريدةً بهذا أن تعرف إن كنتَ تشعر بوجود أي شيء فيها شخصيّ كثيرًا أو محرِجٍ حتى يُوضَع تحت النظر العام، وستستبقي أي رسالة تسألها أن تستبقيها، وإن كان احتمال الكشف عن المجموعة يثير فيك هاجسًا، فإنها ستختم عليها كلها بالقفل حتى عدد محدد من السنين، لعشر أو عشرين أو خمسين سنة بعد موتكما معًا. كان هذا معقولًا، وقد عرفتَ أنك كتبت لها كثيرًا عندما كنتَ يافعًا، بخاصة في أثناء انفصال طويل لأربعة عشر شهرًا في ما بين 1967 و1968، عندما كانت في لندن وكنتَ أنتَ في باريس ومن ثم في نيويورك، ولكنك جهلتَ كم مرة كتبتَ لها، وعندما أخبَرَتْكَ مرة بوجود نحو مئة رسالة وأنها امتدت لأكثر من خمسمئة صفحة، شُدِهْتَ بالأرقام وبُهِتَّ من أنك كرَّسْتَ كثيرًا من الوقت والجهد لهذه الرسائل القديمة والمنسية تمامًا التي حلَّقَت فوق البحار والقارات وها هي الآن موضوعة في صندوق في شمال نيويورك. لقد بدأت مجلدات مانيلا بالظهور في البريد، هو من عشرين أو ثلاثين صفحة لكل مجلد، وتعود الرسائل إلى صيف 1966، عندما لم تكن إلا في التاسعة عشرة، واستمرت بعد هذا لسنوات كثيرة، حتى بعد انتهاء زواجك في نهاية السبعينيات، وبينما استمررت في العمل على هذا الكتاب مستكشفًا المشهد العقلي لمرحلة صِبَاك، كنتَ تزور نفسكَ أيضًا وأنت شاب، قارئًا كلمات كتبتها قديمًا جدًّا حتى إنك شعرتَ كما لو كنتَ تقرأ كلمات شخص غريب، فكان بالغ البُعد عنك هذا الشخص الآن، وبالغ الغرابة، ومفتقرًا إلى النضج كثيرًا، وخطّه مضطرب ونَزِق لا يشابه الطريقة التي تكتب بها اليوم، وإذ استوعبت المادة ببطء ورتبتها ترتيبًا زمنيًّا، فهمتَ أن هذا الركام الهائل من الورق هو دفتر اليوميات الذي لم تستطع كتابته عندما كنتَ في الثامنة عشرة، وأن الرسائل لم تكن شيئًا يقل عن كونها كبسولة زمنية

لآخر سنوات بلوغك وبداية رشدك، وهي صورة ثاقبة ومركَّزة كثيرًا لفترة شُوِّشَت كثيرًا في ذاكرتك ـ ولذا فهي نفيسة بالنسبة إليك، والباب الوحيد الذي وجدته يُفتَح مباشرة على ماضيك.

أكثر الرسائل التي أهَمَّتك هي الرسائل الأولى، الرسائل التي كُتبت بين سِنَّي التاسعة عشرة والثانية والعشرين (1966 ـ 1969)، ففي الرسائل التي كتبتها بعد عيد ميلادك الثالث والعشرين تبدو أكبر من ما كنتَ عليه في السنة الماضية، نعم ما زلتَ يافعًا، وما زلت غير واثق بنفسك، ولكنك تُدرَك كتجسُّدٍ مُبَكِّرٍ[1] للشخص الذي صرته الآن، وبحلول شتاء السنة التالية، أي بعدما صرتَ في سنّ الرابعة والعشرين، صرتَ بشكل واضح ما أنتَ عليه وتكوَّنت نفسك، وصار خط يدك ونوع عباراتك النثرية شِبه مطابق لما هو عليه اليوم، لذا انْسَ الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين، وكل السنين التي تلتهما، فما يثيرك هو الغريب، هذا الصبي ـ الرجل المتخبِّط الذي يكتب رسائلَ من شقة والدته في نيوآرك، من نُزُل كَلَّف ست دولارات في اليوم في مَيْن (Maine) الريفية (والوجبات مشمولة)، ومن فندق بدولارين لليوم في باريس (دون شمول الوجبات)، ومن شقة صغيرة على الشارع 115 الغربي في مانهاتن، ومن منزل أمه الجديد في غابات مقاطعة مورِس ـ يثيرك هذا الغريب لأنك فقدتَ الاتصال به، وبينما تستمع إليه يتكلم على الصفحة بالكاد تتعرَّف إليه بعدُ.

آلاف من الكلمات مُوَجَّهة إلى الشخص نفسه، المرأة الشابة التي ستصير زوجتك الأولى. لقد تقابلتما في ربيع عام 1966، عندما كانت طالبة سنة أولى في كلية برنارد وأنت طالب سنة أولى في كولومبيا ـ وكنتما نِتَاجَيْ عالمين مختلفين جذريًا. صبي يهودي بشعر أسود من انيوجرسي خاض تعليمًا في مدرسة عمومية، وامرأة بيضاء شقراء الشعر برتستانتية أنجلوسكسونية من نورثامتن (Nothampton)، ماساشوستس، انتقلت إلى نيويورك في العاشرة أو الحادية عشرة وتَلَقَّت تعليمًا في أفضل المدارس الخاصة، لسنوات عديدة في مدرسة ابريرلي للبنات في مانهاتن، ثم انتقلت إلى بَتْنِي (Putney) في ڤِرْمانت (Vermont) للمدرسة الثانوية. كان أبوك رجل أعمال مُجَاهِدًا

(1) يقول التعبير الأصلي: تجسُّد فَرْخِيّ، وهو صغير الطائر. [المترجم]

ويعمل لحسابه الخاص بلا تعليم جامعي، أما أبوها فكان أستاذًا جامعيًّا وناقدًا محترمًا دَرَّسَ في جامعتي هارڤرد واسمث وكان الآن عضوًا في قِسم كولومبيا. لم تُعتِّم أنتَ أن أُعْجِبْتَ بها تمامًا، أما هي فمع أنها لم تبادلك إعجابًا كبيرًا كهذا، فإنها كانت فضولية. ما تشاركتماه: الشغف بالكتب والموسيقا الكلاسيكية، والعزم على أن تكونا كاتبين، والحماسة للإخوة ماركس وأشكال أخرى من الصخب الهزلي، وحب للألعاب (من الشطرنج إلى البِنج ـ بونج والتنس)، والاغتراب عن الحياة الأمريكية ـ وبخاصة حرب ڤيتنام. ما فَرَّقكما: انعدام التوازن في كيمياء عواطفكما، والتقلبات في الرغبة، وعَزْم غير مستقرّ. لقد كنتَ في غالب الوقت أنتَ الساعي وراءها، وقد تَرَجَّحت هي بين مقاومة مبادراتك والرغبة في أن يُسعَى وراءها وتُمْسَك، وهذه حال قادت إلى صَخَب شديد في السنين ما بين 1966 و1969، فكانت توجد الكثير من الانفصالات والكثير من التصالحات، الكثير من الدفع والسحب الذي وَلَّد سعادةً وتعاسةً معًا لكما، وغنيّ عن البيان أنك في كل مرة كتبتَ لها كنتما مفترقين، منفصلين ماديًّا لسبب أو لآخر، وقد كرَّسْتَ في رسالة بعد رسالة الكثير من الوقت لتحليل الصعوبات التي توجد بينكما، أو لاقتراح طرقٍ لتحسين حال هذه الصعوبات، أو تفكِّر في تخطيطات لرؤيتها مجددًا، أو تخبرها بمدى حبك لها وشوقك إليها. ويمكن اعتبار الرسائل بوجه العموم رسائل حبّ، ولكن ما يعنيك ليست تقلُّبات هذا الحب الآن، ولا تنوي أن تحول هذه الصفحات إلى إعادة صَوْغ للتمثيليات الرومنسية التي عشتَها قبل خمسة وأربعين عامًا، إذ توجد أشياء أخرى كثيرة مُناقشة في الرسائل أيضًا، وإنما هذه الأشياء الأخرى هي التي تخصّ المشروع الذي شُغِلْتَ به في الشهور العديدة الماضية، وهي التي ستستخلصها من الكبسولة الزمنية التي وقعت بين يديك، وستسمح لك بمواصلة الفصل التالي من هذا *التقرير من الداخل*.

صيف 1966. لقد مرت سنتك الأولى في كولومبيا. كانت هذه الكلية هي التي أردتَ الذهاب إليها، ليس لأنها كانت جامعة ممتازة فيها قسم لغة إنچليزية قوي، ولكن لأنها كانت في نيويورك، مركز العالم بالنسبة إليك آنذاك، وما زالت مركز العالم بالنسبة إليك، وكان احتمال أن تقضي في المدينة أربع سنوات جاذِبًا إليك أكثر من أن تُحْصَر في حَرَمٍ جامعي بعيد، عالِقًا في مكان ريفي معزول لا شيء فيه تفعله غير

الدراسة وشرب الجعة. إن كولومبيا جامعة كبيرة، ولكن كلية الطلاب الجامعيين غير المتخرجين صغيرة، فاحتوت حينها على ألفين وثمانمئة طالب فقط، وفي كل شعبة سبعمئة طالب من الذكور، وكان من منافع برنامج كولومبيا أن المواد كلّها دَرَّسها أساتذة (إما متفرِّغون، وإما مشاركون، وإما مساعدون) بدلًا من طلاب متخرجين أو مساعدين، وهي حال غالب الكليات الأخرى، لذا كان أستاذك الأول للغة الإنچليزية آنچس افلِتشر (Angus Fletcher)، وهو التلميذ اللامع الشاب لنورثرُب افراي، وكان أول أستاذ للفرنسية دونَلْد افريم (Donald Frame)، وهو المترجم وكاتب السيرة الشهير لمُنْتاني، وقد دَرَّس افلتشر صُدْفَةً صَفَّيْن من صفوفك في الخريف، كان الأول مادة «الإنسانيات لطالب السنة الأولى» (وهذا كان مسارًا مكوَّنًا من كتب عظيمة كان على جميع الطلاب أخذها)، والثاني مسار مُكَرَّس لقراءة كتاب واحد، وتَبَيَّن أن الكتاب كان *اترِسْترِم شاندي*.[1] أما مسار «الإنسانيات لطالب السنة الأولى» فكان بلا شكّ أحفَزَ تحدٍّ فكري في حياتك حتى آنذاك، كأنه كان غوصًا من مكان مرتفع في كونِ الأعاجيب، ولحظات الإلهام، والمرح الغامر ـ وهو مرح ما زلت تشعر به متى ما رجعت إلى الكتب التي قرأتها في تلك السنة، بدأ الفصل الأولى بهومِرُس وانتهى بڤِرْجِيلِيُس، وبين هذين كان آيسخولُس، وسوفوكليس، وأورِپِديس، وأرسطوفانِس، وأفلاطون، وأرسطو، وهرودوتس، وثوكديدس، وانتقلت في الفصل الثاني من القديس أوغسطينُس ودانتي ومُنتاني وثِربانتس وعلى طول الطريق إلى دستوييّفسكي، لقد كان الصف صغيرًا، وكان الجميع يدخن السيجارة وراء الأخرى وينفض الرماد على الأرض، والمناقشات التي قادها افلتشر كانت وَقّادة ومُثِيرة معًا، وعادت حياتك لا تكون كما كانت ألبتة. وأعترف أنه كان لتجربة الكلية جوانب أقل بعثًا على الحماسة بالنسبة إليك، كالأوقات المُوحِشة من التفكير الكئيب، وبشاعة مهجع الطلاب، والفُتُور المؤسسي الذي تميَّزت به إدارة كولومبيا، ولكنك كنتَ في نيويورك، ولذا أمكنك أن تهرب متى ما لم تكن قاعدًا في الصف. وكان بدأ واحد من أصدقاء صِبَاك الدراسة في كولومبيا أيضًا، ولمّا كان مطلوبًا من كل طلاب السنة الأولى القادمين من بلدات

(1) العنوان الكامل: حياة وآراء السيد اترسترم شاندي The Life and Opinions of Tristram Shandy, Gentleman، للورنس استيرن (1713 ـ 1768). [المترجم]

أخرى أن يعيشوا في مهاجِع، تشاركتَ أنت وإياه غرفةً في الطابق الثامن من مهجع «قاعة كارمَن». جاء صديقك هذا من عائلة غنية، وبدلًا من أن يلتحق بالمدرسة الثانوية العمومية المحلية مثلما فعلتَ أنت، فإنه أُرسِلَ إلى مدرسة داخلية تقدمية في ڤِرمانت، وهي مدرسة بَنْنِي التي تخرَّجَت فيها ليديا، وهكذا قابلتها عن طريق رفيقك في الغرفة، وعن طريق ليديا قابلتَ خرِّيجًا آخر من بتني، بوب ب.، وكان طالب سنة أولى في كلية في شمال نيويورك، ولكنه كثيرًا ما نزل المدينة في ذاك الربيع حتى أمكن لكما أن تصيرا صديقين. كان بوب هذا، وهو شاعر مستقبلي وزميلك، ولدًا ذا ثمانية عشر عامًا، يحوز ذكاءً عظيمًا وعقلًا ثاقبًا، وبعد انتهاء السنة الأكاديمية، قرَّرتما الاجتماع معًا للصيف، مسافِرَيْن إلى جبال كاتسكل (Catskills) لتعملا كبستانيَّيْن أو حارسي أرض في فندق كومدور (وقد كانت هذه مغامرة غريبة سُرِدت بنوع من الإسهاب في *عيش الكفاف*)،[1] وعندما اسْتَقَلْتَ من هذه الوظيفة لتَدَنِّي الراتب كثيرًا ولعجزه عن إطعامك بما يكفي، ذهبتَ إلى بلدة بوب الأمّ في ينغزتاون، أوهايو، حيث عشتَ على طول الشهر التالي أو ستة الأسابيع في منزل والديه حَسَن التجهيز وذي العمارة التيودورية، وعملتَ في مستودع والده التابع لعمله في الأجهزة الكهربائية، فحصلتَ على أجرٍ أعلى وطعام أفضل، ولم يكن العمل صعبًا، إذ كنتَ قويًّا جدًّا في التاسعة عشرة، فسَهلَتْ عليك كثيرًا مهمة تحريك صناديق كبيرة وثقيلة، وبخاصة لما كنتَ عملتَ من قبل لجزء من الصيف قبل سنتين في متجر عمتك وخالك[2] للأجهزة في وستفيلد انيوجرسي (كان مشروعًا أصغر لكنه مماثل، ناقشته أيضًا في *عيش الكفاف*)، وها أنت الآن تعمل الشيء نفسه، ثماني ساعات في اليوم في مبنًى مبنيّ بطوب خرساني وبأرضية إسمنتية، وكان عبر الساعات هذه كلها يوجد راديو يدمدم في الخلفية، مالئًا الهواء الميت لفضاء المستودع بالأغاني الرائجة في 1966، وما كان من أغنيّة أرْوَج من «غرباء في الليل» التي يغنّيها افرانك سِنَاترا، ولا بد أنها أُذِيعَت ألف مرة عبر الأسابيع التي قضيتها في المستودع، وكانت أغنية سمعتها كثيرًا فكرهتها كثيرًا حتى إنك الآن، في سن الخامسة والستين، لا

(1) كتاب سيرة ذاتية آخر لبول أوستر، عنوانه الكامل: Hand to Mouth: A Chronicle of Early Failure. [المترجم]

(2) أي زوج عمته. [المترجم]

تحتاج إلا إلى سماع بارَيْن[1] من هذه الأغنية الرومنسية الرديئة حتى يُدفَع بك مجددًا إلى حرارة صيف ينغزتاون، أوهايو. قِيدَ بكما أنت وبوب في وقت ما من بداية شهر آب إلى الشرق مجددًا، وبعد وقفة وجيزة عند شقة والدتك في نيوآرك انطلقتما مرة أخرى، وفي هذه المرة بشيفروليه البيضاء التي امتلكتها منذ سنتك الابتدائية في المدرسة الثانوية، متَّجِهَيْن شمالًا إلى غابات ڤرمانت وشُطآن كيب كاد (Cape Cod)، ولا تتذكر سبب رغبتك في الذهاب إلى هذه الأماكن، ولكنك استمتعتَ بالقيادة آنذاك، وتَلَذَّذْتَ بالرحلات الطويلة بالسيارة، ولعلك ذهبت إلى هذه الأماكن لا لغاية إلى للذهاب. من ناحية أخرى، لديك ذكرى باهتة عن أن ليديا ذهبت إلى كيب كاد مع والديها، إلى بيت يوجد في مكان ما في وِلْفليت (Wellfleet)، وأنك وبوب قررتما المُثُول على بابها فجأة وإلقاء التحية، فهكذا كانت الشهامة البلهاء التي تُمَيِّز الأولاد المراهقين. إن كنتما بحثتما عنها فعلًا، فإنكما لم تجداها بالتأكيد، وبعد ليلة قضيتماها في النوم خارجًا على الشاطئ، تحرَّكتما. كُتِبَت أول رسالة موجودة من الكبسولة الزمنية في شقة والدتك في نيوآرك في الخامس عشر من آب، بعد عودتك بالضبط، وتبدأ كما يلي: «نعم، لقد عدنا. ولا، لم تكن الرحلة ممتعة كثيرًا. أرأينا المحيط؟ نعم. أرأينا كيب كاد؟ نعم ـ حتى آخره. أرأينا بوسطن؟ نعم، مرتين. أرأينا بتني؟ نعم. أرأينا منزل الخِرِّيجين؟ نعم، وكان مملوءًا بالطلاب الأفارقة. وهل كانت الرحلة مريحة؟ لا. أقدنا بعيدًا؟ نعم، لأكثر من ألف ميل. أنحن متعبان؟ نعم، كثيرًا. هل مرّ الكثير على وصولنا إلى نيوآرك؟ لا، فقد وصلنا منذ ساعات عديدة. أنحن مشغولان الآن؟ نعم، فبوب يستَحِمّ، وپول على الأريكة، يكتب رسالة إلى ليديا. ما كانت غاية الرحلة؟ حكاية بائسة عن مغامرة سيئة التخطيط. أكانت مُثَقِّفة؟ ربما. أمررنا من وِلفليت؟ نعم. وبمَ فكَّر پول؟ بمقدار ما أحَبّ ليديا. وهل كان موضوعيًّا في التفكير فيها؟ ليس موضوعيًّا إلا بالمقدار الذي يسمح به الحب. وما كانت طبيعة أفكاره؟ حزينة. حزنٌ لا متناهٍ. شوق لا متناهٍ».

ثم بعد أسبوع (الثاني والعشرون من آب)، وما زلت في شقة والدتك في نيوآرك، وكان بوب قد غادر بالتأكيد الآن، تبدأ رسالة مشتتة من ست صفحات بغرابة وبغرور،

(1) البار Bar وَحْدة موسيقية. [المترجم]

مع عدد من الجمل المُقَطَّعة: «هنا، إنني هنا، قاعدٌ. سأبدأ، ولكن ببطء، إذ أشعر أنني أخبر نفسي بأن عليّ الاستمرار لفترة ما، بل ربما لفترة طويلة... ستسمعين، هنا، قبل قول ما أريد قوله، شيئًا عن هذا وشيئًا عن ذاك، أشياء متنوعة، أو ما يدعوه المرء أخبارًا، أو دردشة، ولكنني أدعوه، ولعلك تفعلين هذا أيضًا... ‹إحماءً›، وهذا ما أؤكّد لك أنه استعارة، فأنا جِدّ دافئ[1] فعلاً (إنه الصيف كما تعلمين)». وبعد تعليقات سقيمة عن هَوْل وحتمية الموت، حَوَّلْت مسار الرسالة فجأة وأعلنت عن نيَّتك الحديث عن أشياء مبهجة فقط. «وأنا نازل من جبل بتني منذ وقت ليس ببعيد كثيرًا، بعد أن تسلَّقت قمته، خَطَر لي فجأة، أعني في غضون وَمْضة، أو أدركت الشيء الهزلي الوحيد في العالم، وليس يعني هذا عدم وجود الكثير من الأشياء الهزلية، ولكنها ليست هزلية وكفى، فكلها تملك جانبًا مأساويًّا يخصّها، أما هذا فهزلي دائمًا دون أن يفشل في كونه هذا ألبتة. هذا الشيء هو الضُّراط. اضحكي إنْ أرَدْتِ، ولكن هذا يُعزِّز حُجَّتي لا أكثر. نعم، إن هذا الشيء مضحك دائمًا، ولا يمكن أخذه جديًّا أبدًا. إنه أَلَذ مَعَايب الإنسان». ومن ثم بعد تحوُّل مفاجئ آخر في الكلام: «(توقفتُ لأشعل سيجارة ـ من هنا الانقطاع في خطّ تفكيري المنتظم أبدًا)»، وتعلن لها أنك اشتريت مؤخرًا نسخة من *مأتم فينِجِن*.[2] «مفكِّرًا في أنني قد لا أقرؤها أبدًا، أمسكتها وبدأت القراءة، فواجهت مشكلة في وضعها مجددًا، ولا أعني بهذا أنها سهلة الفهم، ولكنها ممتعة حقة. لقد قرأتِ جزءًا منها، أليس كذلك؟ فيها الكثير من الأشياء». ثم بعد بضع جُمَل: «ينتظرني الكثير لأشتغل عليه من أجل هذه المسرحية. لقد بدأت الكتابة مجددًا أمس، بعد أسبوعين دون النظر فيها، فأخبَرَني هذا أن علي الكثير لأشتغل عليه». لقد ضاعت مخطوطة هذا الجهد المبكر، ولكن التصريح هذا دليل على أنك كنتَ تكتب بجِدّ آنذاك، وأنك فكَّرتَ في نفسك فعلًا

(1) إحماء مقابل Warming up، ودافئ مقابل Warm، وهذه كلمة لَمَّاحة يحاول أوستر باستخدامها الإشارة إلى معانٍ ضمنية أخرى يصعب نقلها في الترجمة. [المترجم]

(2) لجيمس جويس، Finnegans Wake. وكلمة Wake هذه في العنوان صعبة النقل في الترجمة، ويوجد أخذ ورد في الآراء في ما يتعلق بمقصد جويس من الكلمة: فقد تعني يَقَظَة من الموت أو إعادة بعث، وقد تعني مأتمًا أو كل ما يقام من طقوس للميت ومرافقة له في نعشه، ولكنها طقوس مرحة لا ناحبة وحزينة، وهي أَخصّ بإيرلندا، وبعضهم يجعل Wake فعل أمر من يصحو أو يستيقظ، إلخ، ولا يعنينا هذا كثيرًا، فقد اخترنا الكلمة التي قد تكون وسطًا. [المترجم]

ككاتب (أو كاتب مستقبلي). ومن ثم كتبْتَ لا شك كجوابٍ عن سؤال طرحته ليديا في رسالة ترد على رسالتك السابقة: «شمال اترور (North Truro) هو الشاطئ الذي ذهبنا إليه. لقد وصلنا في السادسة، أي في الوقت المطلوب. أحببتُ بخاصة الظلال في آثار الأقدام». وجدتَ نفسك بعد قليل تقترح نصيحة، معلِّقًا على شيء لا بد أنها قالته في رسالتها: «... كي تستمر مجددًا، كي تكتب مجددًا، عليك بالتأمل بالمعنى الحقيقي للكلمة. فعلٌ صادق ومؤلم. ومن ثَمّ سيُكْشَف عن الأشياء الخفية. عليكَ أن تنسى ليديا اليومية، وليديا أختك، وليديا والديك، وليديا پول ـ ومن ثم ستقدر على العودة إليهم دون خسران ‹الإلهام› في المرة القادمة. ليس يعني هذا أن العالمين متعرضان، بل ما يعنيه أن عليك إدراك تداخلهما». وإذ تقترب أخيرًا من نهاية الرسالة، تخبرها أنك تعبّر عن نفسك بنحو سيئ: «الأمر صعب كثيرًا. كما تَرَيْن، أنا مشوَّشٌ تمامًا في ما يتعلّق بشأن الحياة بأكمله، فحالي حال مقلوبة، ومهزوزة، ومُهَشَّمة. أعلم أن هذا التشوُّش سيظل أبدًا. وما أشدّ ما كان كرهي لنفسي عندما أخبرتك عن خَيْر الحياة... عندما ناديتني هنا في الليلة التي كنتِ فيها مريضة. ما الغاية؟ لِمَ علينا أن نعيش؟ لا أريد أن أعبث أو أُصَعِّب الأمور. أعتقد في النهاية، أكثر من اعتقادي أي شيء آخر، أن الحب وحده هو المهمّ. آه! الكليشيهات القديمة... ولكن هذا ما أعتقده. أعتقده، نعم، إنني أعتقده، وسأضيع دونه. الحياة نكتة رديئة بنحو تَعِس إن كانت دونه».

كنت مُخَبَّأً مؤقتًا في منزل شقة والدتك لأن عقد الإيجار الذي وقعته لشقة في نيويورك (311 غربًا الشارع 107) لن تبدأ مدته حتى أول أسبوع من أيلول. وفي الثلاثين من آب تُخبِر بأنك تخلَّصت من مسرحيتك ـ «مئة وأربعون صفحة كلها» ـ ولكن ليس من الفكرة، وأنك بدأتَ بشيء نَثْرًا، «مستخدمًا عناصر من المسرحية كنَوَاة». أما في ما يتعلق بحالك العقلية، فقد كنتَ تذوي في اكتئاب عميق عادةً ما كان يحلّ بك في أثناء أيامك كطالب جامعي. «العيش هنا في نيوآرك في هذه الشقة المعدومة الهواء لا يُحتَمَل. عادةً ما أكون صامتًا، وفي أحيان أخرى حادّ المِزَاج. لا سلام في داخلي، لا شيء غير الدمدمة (هذه الكلمة ‹يدمدم›[1] واحدة من أجمل كلمات الإنكليزية)...

(1) قد يقصد التذمر أو التململ بدلاً من الدمدمة، والكلمة المقصودة هي «murmur». [المترجم]

إن حواسّي بخاصة مُرْهَفة الآن، فكلّ شيء يُدرَك بحدَّة أكبر. كان أكلي قليلًا على طول الأسابيع العديدة الماضية... سوداوية فظيعة، ولكن أشياء غريبة كانت تضطرم داخلي. أشعر كما لو أنني أستوعب جذور شيء بالغ الأهمية». للأسف لم يُوَضَّح ما كان هذا الشيء، وانتقلت في الأسبوع التالي إلى شقة جديدة تشاركتها مع صديقك پيتر شوبرت ـ وهذه كانت أول شقة تسكنان فيها وحدكما، ما يعني أنها الخطوة التالية إلى الاستقلال والرُّشد. لا يوجد رسائل بعد هذا حتى حَزِيران المقبل، وهي فجوة قدرها تسعة شهور في سِجِلّ الحوادث...

تتذكر سنتك الثانية في كولومبيا باعتبارها وقتًا من الأحلام والصراعات، مطبوعة باعتقاد متنامٍ باستمرار أن العالم كان يتداعى قبالة ناظرك. لم يكن الأمر متعلّقًا فقط بحرب ڤيتنام، التي صارت حينها كبيرة ومُهْلِكة جدًّا حتى مرَّت أيامٌ صعب التفكير في أي شيء آخر غيرها، بل كان متعلّقًا أيضًا بالقَذَر والتحلل اللذين كانا في حَيِّك السكني، والأناس المجانين والشُّعث الذين تَمايلوا على طول الأرصفة في مورننچسايد هايتس في نيويورك، ولقد كانت المخدِّرات أيضًا تدمِّر حياة القريبين منك، وأول هؤلاء رفيقك السابق في الغرفة، تبعه موت صديق آخر منذ أيام المدرسة الثانوية بجرعة زائدة من الهروين، ومن ثم فورًا بعد انتهاء فصل الربيع الجامعي بدأت حرب الأيام الستة في الشرق الأوسط التي أقلقتك بعمق، بعمق حتى إنك في الفترة القصيرة التي كانت فيها نتيجة الحرب مشكوكة رحَّبت بكل نشاط بفكرة الانضمام إلى الجيش الإسرائيلي، فلم تكن إسرائيل حينها بلدًا إشكاليًّا بالنسبة إليك، وكنت ما تزال تعدّها دولة علمانية اشتراكية لا تحمل على يديها أثر الدماء. ومن ثم انطلقت بعد هذا بأسابيع أعمال الشغب في نيوآرك، وهي المدينة التي وُلِدتَ فيها، والمدينة التي كان ما يزال يعيش فيها أمك وأختك وزوج أمك، وكانت أعمال الشغب هذه نشوبًا عفويًّا لحرب عرقية بين السكان السود وقوات الشرطة البيض التي قتلت أكثر من عشرين شخصًا، وجرحت أكثر من سبعمئة، وقادت إلى اعتقال ألف وخمسمئة، وحرقت مبانِيَ حتى سُوِّيَت بالأرض، وسببت الكثير من الضرر حتى إن نيوآرك إلى الآن، بعد خمسة وأربعين سنة لاحقة، لم تتعافَ تمامًا من الغضب الذاتي التدمير الذي ولَّدته هذه الصدامات العنيفة. نعم، لقد كافَحْتَ لتظل واقفًا على رجليك عبر تلك السنة بأكملها، فقد كنتَ في خطر مستمر من

أن تخسر توازنك، ولكنك مع هذا ظللتَ تتقدم ببطء شديد، مواصلًا تحقيق الأفضل في واجباتك المدرسية والكتابة بقدر ما تستطيع. غالب ما كتبته لم يسفر عن أي شيء، ولكن لم يشمل هذا كل كلمة وكل جملة، وكانت 1967 أول سنة أنتجتَ فيها سطورًا وأشباه جمل وفقرات وجدت طريقها أخيرًا إلى عملك المنشور، كانت قِطَعًا ظهرت في كتاب قصائدك الأول مثلًا (نَبْش،[1] تمَّ في 1972)، ومن ثم رأيتَ بعد فترة طويلة عندما كنتَ تجمع *قصائدك المجموعة* (2004) أنه من الملائم إدراج نصّ نثري قصير كُتِبَ عندما كنتَ في سن العشرين، وهو «ملاحظات من دفتر تدوين»، سلسلة من ثلاث عشرة قضية فلسفية تقول أولها كذا: *العالم في رأسي. جسدي في العالم*. ما زلتَ تلتزم بهذه المفارقة التي كانت محاولة للإمساك بالازدواجية الغريبة التي يتصف به كون المرء حيًّا، والوَحْدة التي لا تَلِين بين الجوّاني والبرّاني التي تصاحب كل خفقة من خفقات قلب الإنسان من ميلاده إلى موته. 1966 ـ 1967: كانت سنة مملوءة بالقراءة، ولعلك قرأتَ فيها أكثر من ما فعلتَ في أي لحظة ماضية من حياتك، ولم تقرأ الشعراء فقط، بل الفلاسفة أيضًا: باركلي وهيوم من القرن الثامن عشر، على سبيل المثال، إلى جانب ڤتچنشتاين ومرلوبونتي من القرن العشرين. إنك ترى آثارًا من هؤلاء المفكرين الأربعة في تلكما الجملتين الخاصتين بك، ولكن فنومينولوجية مرلوبونتي كانت الأكثر تعبيرًا والأزخر بالمعنى بالنسبة إليك، وما زالت رؤيته عن الذات المتجسِّدة تعني لك الأكثر مقارنةً بغيرها.

لقد كنتَ تَوَّاقًا إلى الهرب. حالما انتهى فصل الربيع الجامعي، صار آخر مكان تريد أن تكون فيه هو نيويورك الحارة ونتنة الرائحة، ولمّا كنتَ ادَّخرتَ بعض المال من عملك الجزئي كعامل في مكتبة بتلر في كولومبيا، امتلكتَ ما يكفي منه لتمتنع عن العمل صيفًا وتسلك طريقك الخاص وحدك. بدت مَيْن (Maine) رهانًا جيدًا بالنسبة إليك، ولذا فتحت خريطة لمين وبحثتَ عن أبعد نقطة يمكنك إيجادها، وتَبَيَّن أنها بلدة تُسَمَّى دينِسڤيل، وهي بلدة صغيرة تبعد عن بانچور ثمانين ميلًا شرقًا وثلاثين ميلًا غرب إيستپورت (وهي المدينة الواقعة أقصى شرق أمريكا، محاذية

(1) Unearth.

لخليج كندا). اخترتَ دينِسڤيل لأنك علمتَ بوجود إسكانات ملائمة يمكن العثور عليها في نُزُل نهر دِنِس، وكانت تكلِّف ستة دولارات في اليوم (ويتضمن هذا ثلاث وجبات ساخنة)، استغرقت الرحلة ثماني عشرة ساعة بالحافلة، وقد تصفَّحْتَ كتبًا كثيرة في أثناء فترة القيادة الطويلة والاستراحة الطويلة في بانچور وأنت تنتظر حافلةً مُوصِلَة، كان من بينها رواية كافكا *أمريكا*، وهذه كانت آخر عمل له لم تقرأه، وهي رفيق مثالي لرحلتك نحو المجهول. لقد أردت عَزْلَ نفسك بأعمق ما تقدر عليه، ذلك لأنك بدأت بكتابة رواية، وقد كان اعتقادك الصبياني (أو اعتقادك الرومنسي، أو اعتقادك المساء فهمه) أن على الروايات أن تُكتَب في انعزال. هذه كانت محاولتك الأولى لكتابة رواية، بل الأولى من محاولات أخرى عديدة ستشغلك حتى نهاية ستينيات القرن وحتى غالب السبعينيات، ولكنك بالطبع لم تكن قادرًا على كتابة رواية عندما كنتَ في سنك العشرين، أو الحادية والعشرين، أو الثانية والعشرين، كنتَ صغيرًا جدًّا ومفتقدًا الخبرة، وكانت أفكارك ما تزال في طور النموّ ولذا كانت حالها حال تبدّل مستمر، لذا فشلت، ثم فشلتَ وفشلت مجددًا، ومع هذا عندما تنظر إلى أمثلة الفشل تلك الآن، فإنك لا تعدّها مضيعة للوقت، ففي مئات الصفحات التي كتبتها في تلكم السنين، بل لعلها بلغت ألف صفحة (كلها خُرْبِشَت باليد على مُفَكِّرات، بخطّ شبابك غير المقروء تقريبًا)، كانت توجد النواة الناشئة لثلاث روايات تمكنتَ من إنهائها لاحقًا (*مدينة الزجاج*، وفي *بلاد الأشياء الأخيرة*، و*قصر القمر*)، وعندما عدتَ إلى كتابة الخيال في أوائل ثلاثينياتك، عدتَ إلى دفاتر المفكِّرات تلك القديمة ونَهَبْتها بحثًا عن مادة، فاستخرجتَ أحيانًا جُمَلًا وفقرات كاملة برَزَت لاحقًا ـ بعد سنوات من وقت كتابتها الأصلي ـ في تلك الروايات التي أُعيدَ تشكيلها، لذا كذا كنتَ في حَزِيران عام 1967، في طريقك إلى نُزل نهر دينِس في دينِسڤِل، مَيْن، تكاد تعزل نفسك في غرفة صغيرة مع اكْوِن،[1] وهو بطل كتابك، مع البيت القديم الأنيق الأبيض ذي الألواح الخشبية حيث عشتَ لثلاثة أسابيع تالية، وهو البيت الذي حُوِّل إلى نُزُل، ولم يكن فيه أحد غيرك وغير مالكيه، وهما زوجان

(1) يختلف عن اكْوِن Quinn الذي صار بطل رواية *مدينة الزجاج*، فهو اكْوِن آخر، كان حقيقةً نسخة مبكرة من فُوچ Fogg، الراوي في *قصر القمر*. [المؤلف]

متقاعدان في منتصف سبعينياتهم من اسپرنچفيلد، ماساشوستس، السيد والسيدة چودفري، ومن بداية إقامتك وحتى مغادرتك، كنتَ الضيف الوحيد.

كان نهر دينِس كما يبدو معروفًا في دوائر صيادي السمك باعتباره النهر الوحيد في أمريكا حيث يمكن ممارسة صيد السلمون في مياه عذبة في وقت معين من السنة (صارت التفاصيل مبهمة بعض الشيء لك الآن)، ومع أن زيارتك تصادفت مع هذا الوقت من السنة، وهو عادةً موسم الذروة لنُزُل نهر دينس، فإن السمك لم يَجْرِ في 1967، لذا ظل صيادو السمك في منازلهم. كان السيد والسيدة چودفري كلاهما ودودين معك، وفعلا كل ما كان في وسعهما حتى يُشْعِرَاك بأنك مُرَحَّب بك. كانت السيدة چودفري المُكْتَنِزة والبهيجة وكثيرة الكلام طباخة من الدرجة الأولى، فأجزلت لك الطعام كثيرًا، ودائمًا ما عرضت عليك الأكل ثانيةً، وثالثةً إنْ طَلَبْت، أما السيد چودفري فاصطحبك في جولات إلى إيستپورت والمحمية الهندية المحلّية وأخبرك قصصًا عن خدمته في الجيش الأمريكي في عام 1916، يوم كان مُعَيَّنًا على الحدود المكسيكية حتى يُحَامي ضدّ غارات خوسيه بانشو ڤِيَّا الذي لم يظهر قطّ، وهذا ما حَوَّل مهمة السيد چودفري كعسكري إلى «عطلة حقيقية». نعم، لقد كانوا أناسًا طيِّبين وودودين، ولو وجدتَ نفسك أبدًا في وضع مشابه اليوم لربما اغتَبَطْتَ به واستغرقتَ في عملك، ولكن العزلة الشديدة كانت شيئًا لا يكاد يحتمل لك وأنت في سن العشرين، فلم تقدر على التعامل معها، وكنتَ وحيدًا وضَجِرًا (مُفَكِّرًا في الجنس)، ولم تجرِ الكتابة جيدًا، وفوق كل هذا كان الوقت وقت حرب الأيام الستة، وبدلًا من القعود في غرفتك في الطابق العلوي والعمل على كتابك الذي أُجهِض بعد قليل، مَرَّت عليك أوقات مساء كثيرة لم تستطع فيها مقاومة النزول إلى غرفة المعيشة لتقعد قبالة التلفزيون مع السيد والسيدة چودفري وتشاهد التقارير الأخيرة عن الحرب. لم ينجُ من الرحلة إلى مَيْن إلا أربع رسائل، وما من رسالة منها طويلة جدًّا، فكلّهن كُتِبْنَ بجُمَلٍ قصيرة وتلغرافية ـ أنباء وجيزة من المكان القَصِيّ المعزول الذي كنتَ فيه.

السابع من حَزيران: العودة إلى الصفر. تخلَّصْتُ من خمس عشرة صفحة ـ وهي كل ما كتبته حتى الآن... يأس شديد. بدأتُ مجددًا من حيث كنتُ قبل شهور عديدة ـ

مُسَوِّدًا قصة طويلة (رواية قصيرة؟)... آمل فقط أنني أهلٌ لها. سيكون صعبًا كثيرًا أن أنجح ـ وكذا الحال في غالب الأشياء. ليسَ فيّ الآن إلا قليل من التفاؤل.

إنني مُمَزَّق بسبب مَعْمَعة الشرق الأوسط ـ لقد كنتُ أشاهد بَثَّ التلفزيون الكندي عن الأمم المتحدة ـ إنه مشهد فظيع من الدبلوماسية الخرقاء والنفاق الأبله. إنني أفكر حقًّا في الذهاب إلى إسرائيل، ولكن البلوى قد تنتهي قبل أن أتمكن من المغادرة. لا يمكنها أن تستمر كثيرًا، إلا إن صارت حربًا عالمية...

لقد كان الطقس هنا باردًا وعاصِفًا. لقد بدأت أحب التنزه حول المقبرة، وهي موجودة على تلّة تُطِلّ على حقل، وما بعد الحقل غابة كثيفة ـ ويوجد شاهد قَبر غريب: هاري ك. وزوجته لولو. وبينما أمشي اليوم رأيتُ شيئين فَجَآني: حصانين أسودين في حقل، يقفان قريبين بعضهما من بعض، ويملأهما الحب. كما يكتب رايت: «لا وَحْدة كوحدتهما». ومن ثم بعد مسافة قصيرة: شجرتان كانتا من القرب بعضهما من بعض بحيث إن واحدة منهما تستند إلى الأخرى من بين غصنين وتبدو كما لو أنها كانت في عناق...

الثامن من حَزِيران: إنني مسرور لأنك أحببتِ *تيرلِس*.[1] ولكن لا تشعري باليأس من كونك امرأة. إنها حِرْفَة حَسَنة. كنتُ أقرأ في الليلة الماضية ابليك (Blake)، فقال: «الغِيبَة، والتقويض، والحيلة، وكل ما هو سلبي رذيلة. ولكن أصل خطأ لاڤاتار (Lavater) ومعاصريه، أنهم يفترضون أن حبّ المرأة خطيئة، وبهذا يصير كل حبّ وكل بهاء معهنّ خطيئة».

ثم اقترحتَ بعد هذا، كجواب لا شكّ عن طلبها أن تزوّدها بقائمة قراءة لكتب فرنسية، بعض الروائيين: پَنْجيه، وبِكِت، وساروت، وبوتور، روبچرِيِّيه، وسِلين،[2] ولكنك أردفتَ أن عليها قراءة واحد أو اثنين فقط من هؤلاء ومن ثم تنتقل إلى الشعر الفرنسي: «... اشترِ نسخة كتاب البطريق[3] من الشعر الفرنسي للقرن التاسع عشر،

(1) *تيرلس الشاب* Young Törless لروبرت امْيُوزل. [المؤلف]

(2) Pinget, Beckett, Sarraute, Butor, Robbe _ Grillet, and Céline.

(3) دار نشر البطريق Penguin المعروفة. [المترجم]

واشترِ أيضًا القرن العشرين، واقرَئِي: ڤِنِي، ونِرْڤال، وبودلير، وملارميه، ولوترَيامون، ورامبو، ولافارچه.[1] ومن ثَم اقرئي في كتاب القرن العشرين: ڤالِري، وجاكوب، وأپولِنير، ورڤيردي، وإلْوار، وابريتون، وأراچون، وپونج، وميشو، ودِسْنوس، وشار، وبونفوا.[2] في رأيي أن الفرنسيين ساهموا في الشعر أكثر من الرواية، باستثناء افلوبير وابروست».[3]

الرابع عشر من حَزِيران: غريب جدًّا، بالغ الغرابة. لقد ذهبتُ أخيرًا إلى إيستپورت أمس... عليك أن تَرَيْ هذه البلدة ـ فلا شيء مثلها ـ إنها مدينة أشباح حقيقية، وفيها مبانٍ مهَدَّمة كثيرة جدًّا، وكلها قديمة، بل إن بعضها من الأزمان الثورية ـ ويعيش ثلاثة أرباع الناس على إعانة الحكومة ـ وها هو الخليج، والنوارس ـ وهي هي كندا قريبة جدًّا. مبانٍ قديمة من الطوب ـ متاجر للبيع... وكان أكبر متجر[4] يُدعى «بِكِت» (BECKETT). واسم الشخصية الرئيسة في ما أكتبه الآن اكْوِن ـ وكان يوجد بالتأكيد منزل يُدعى «آل اكْوِن»...

أعتقد أن كتابتي ستُواصَل الآن، بعد كثير من التخبُّط ـ لقد حصلتُ على بعض الأفكار الجيدة ـ سيكون العمل بطيئًا ومؤلمًا...

الثامن عشر من حَزِيران: شذرات. أشعر أنني غير متحضِّر. إن صوتي يدوِّي في داخل جمجمتي. أريد أن تكوني هنا. كل ما لديّ هو عملي ـ النموذج الأمثل للوَحْدة. نعم، من الأفضل بالطبع أن يكون المرء وحيدًا ـ والعمل أفضل، نعم إنه أفضل، الريح القديمة الجنوبية[5] تعصف وتُطَقْطِق ـ الهواء يغرس أفكارًا تُبَرْعِم من أطراف أصابعي يوميًّا ـ نعم، إن العمل أفضل، والرواية التي أكتبها غريبة... نعم، أمورها حسنة ـ

(1) Vigny, Nerval, Baudelaire, Mallarmé, Lautréamont, Rimbaud, and Lafargue.

(2) Valéry, Jacob, Apollinaire, Reverdy, Éluard, Breton, Aragon, Ponge, Michaux, Desnos, Char, Bonnefoy.

(3) ستترجم ليديا الراشدة *مدام بوڤاري* و*من ناحية منزل سوان*. وسيُحَرِّر پول الراشد أنثولوجيا للشعر الفرنسي في القرن العشرين، وفيه تظهر ليديا كواحدة من المترجمين. [المؤلف]

(4) حرفيًّا متجر خمسة وعشرة سنت five and ten. [المترجم]

(5) لا شك تقريبًا أنها إشارة إلى اسمك الأخير الذي يعني *ريحًا* جنوبية في اللاتينية. [المؤلف]

ولكنكِ عندما تكتبين رسائل تجعلينني بها حزينًا جدًّا فإنني أشعر برغبتي في العودة إلى نيويورك لأخلع ملابسي وأرقص رقصة بلهاء لإضحاكك ـ لا تقرئين كتبًا كثيرة ـ ستصبحين باحثة مُسِنَّة ـ وستتكلمين بلسان مُشَوَّه. أَلِّفي موسيقا ـ غَنِّي أغانيَّ للشمس ـ ولكن غَنِّي ـ دعي صوتك يُحَوِّل الهواء الذي تتنفسينه ـ *أَلِّفي* شيئًا ـ قصيدة، قطعة موسيقية ـ إن خَلاص الإنسان أن يؤَلِّف *بِحُبٍّ*. ـ

ستذهب في الأول من آب إلى باريس، وكان مؤكَّدًا تمامًا حتى نصف حَزِيران أن ليديا ستذهب أيضًا. التَحَقَ كلاكما ببرنامج كولومبيا لسنة ابتدائية خارجية (خارج البلد)، ولمّا كان موعد المغادرة يقترب بدأت معنويَّاتك بالارتفاع، فقد كنتَ تتطلَّع بفارغ الصبر لإمضاء عشرة أو اثني عشر شهرًا في محيط جديد، وتتساءل الآن إن لم تكن هذه المعنويات المرفوعة مسؤولة عن الفَرَح غريب الأطوار في رسالتك الأخيرة من مَيْن. لم يُنْجَز في واقع الأمر شيءٌ كما توقعته أن يُنْجَز. غادرت متجهًا إلى باريس في الوقت المحدد، مريدًا أن تتوطَّن مبكِّرًا وتُكَيِّف نفسك مع المدينة قبل بدء السنة الأكاديمية، ولكن خطة ليديا تغيرت في آخر لحظة، فهي أيضًا كانت تعاني في الشهور الماضية، وقد قرر والداها أن عليها أخذ إذْنٍ إجازة بالغياب من برنارد لتذهب إلى لندن وتسكن مع أختها المتزوجة غير الشقيقة التي كانت أكبر من ليديا بأربع عشرة سنة وتعيش في منزل كبير ومريح قريب من تيرنهَم اجرين (Turnham Green). وهنا بدأ الانفصال الطويل ـ الذي استمر بنحو مؤلم حتى الأسابيع الأخيرة من الصيف التالي.

لقد كتبتَ من قبل عن بعض الأشياء التي حدثت معك على طول الشهور القليلة التالية (في *عيش الكفاف*)، واصفًا نزاعك مع مدير كولومبيا في باريس، وعن قرارك المتهور أن تترك البرنامج وتنسحب من الكلية، وعن مكالمات الهاتف المهتاجة في منتصف الليل من والدتك وزوج والدتك وخالك، مُلِحِّين عليك بمراجعة قرارك، بأن تُبْطِل قرارك الانتحاري بسبب خدمتك العسكرية وتأجيلها كطالب، وعندما أجبتهم بالرفض وبأنك لن تراجع قرارك، بلغتك مكالمات أخرى في منتصف الليل تترجَّاك أن تعود إلى نيويورك و«تناقش الوضع»، وكتبتَ أيضًا عن كيف أنك استجبتَ في النهاية لمناشداتهم وذهبت إلى نيويورك ظانًّا أنك ستبقى بضعة أيام، فقد كنتَ عازمًا على العودة إلى باريس والاستمرار بحياتك المستقلة والمبلبلة، ولكنك لم تعد إلى باريس،

وستمضي أكثر من ثلاث سنوات قبل أن تحطّ قدمًا في باريس مجدَّدًا، وكل هذا بسبب رجل واحد، وهو عميد الطلاب غير المتخرِّجين، فقد كان راضيًا لك أن تعود إلى كولومبيا، حتى مع أنه فاتك جزء مُعتبَر من الفصل، وقد كَفَتْ لَطَافة وتفهُّم هذا الرجل الوحيد، العميد ايْلَات، لتجعلك تدرك مدى غباء تصرُّفك، ولذا بقيتَ في نيويورك وصرتَ طالبًا مجدَّدًا. لقد تطرَّقت إلى كل هذه الحوادث من قبل، ولكن الرسائل لم تكن متوفرة لك آنذاك، وقد وُجِدَ الكثير من الأشياء التي نسيتها أو أخطأت تذكرها عندما قعدتَ لتكتب تلك الصفحات عام 1996، وقد شمل هذا حتى أشياء مهمة مثل تاريخ عودتك إلى نيويورك (إذ اعتقدتَ أنه كان في منتصف تشرين الثاني، ولكنه كان واقعًا في يوم ما في النصف الثاني من تشرين الأول)، وما دمتَ الآن تملك الدليل قُبَالَتك، فإنك قادر على رؤية أنك كنتَ في حال أسوأ بكثير من ما تَذَكَّرته نفسك الكبيرة ـ لقد كنتَ حائرًا بشِدَّة من كل شيء، بل لعلك كنت نصف مجنون. لم تكن كذلك في البداية، ولكنك بَدَوْتَ بعد أن قررت الانسحاب من الكلية ضائعًا، مندفعًا أولًا في اتجاه ومن ثم في اتجاه آخر، مرتَدًّا من حماقة إلى حماقة تالية، محاولًا بين كَرٍّ وفَرٍّ الحفاظ على نفسك متماسكًا وأنت تتفَسَّخ ببطء.

الثالث من آب: قابلتُ يهوديًّا مصريًّا يملك عربة سكاكر قبالة ميدان القديس جرمان دي اپريه (Saint ـ Germain ـ des ـ Prés) حاول الحصول لي على شقة... ولكن الشقة هنا غالية الثمن بنحو فظيع ـ إنها مضيعة للمال. لذا سأظل في غرفة فندقية ـ مشمسة، وحَسَنة الموضع، وهادئة. إنني سعيد جدًّا بها. كنت حتى الآن أطارد من مكان إلى آخر عاملًا ألف شيء عملي ـ وقد انتهى هذا أخيرًا وسأكون أخيرًا قادرًا على الكتابة والشعور ببعض السلام.

العاشر من آب: كنتُ سعيدًا جدًّا لتَسَلُّم رسالتك ـ في هذا الصباح، في نحو الساعة الثامنة والنصف، في المقهى الصغير في الطابق السفلي، إذ كنتُ أشرب «قهوتي الصباحية»، ظهرت المرأة، مالكة الفندق، قبالة عينيّ المغلقتين وحشرت الرسالة تحت ذقني (وشعر قصير نامٍ منها) وقالت بصوت غير معروف بموسيقيَّته: «هاك يا سيد، هذه لك». يا لها من بهجة...

باريس

تتوقف مدامٌ بفستانها المُخْمَل قبالة الرجل رَثّ الهيئة النائم على المقعد فتتنهَّد قائلة: «جَذَّاب»، ولكن لم يكن أحد قريب حتى يُقَدِّر تعليقها الوُدِّيّ.

توجد غرفتي أعلى دَرَجٍ دَوَراني، وهي عالية جدًّا حتى إن أصوات الشارع تبدو كالهمسات...

الفتيات يلبسن فساتين قصيرة، تنانير قصيرة فوق الركبة، فيقابل الرجال المُسِنُّون هذا ـ بنحو مفاجئ ـ باستياء. «لقد تجاوزن الحدود كافَّة»،[1] كذا قال العجوز البولّندي. ولكن لِمَ علينا أن نُغَطِّي عُرِيّ الشباب؟

وعندما تمطر فغالبًا ما ترقص الشمس على خَيْطِ يويو هيراقليطيّ.[2]

«ولكن يا سيدي، في حقيبة كهذه ظننتها قمامة».[3] هكذا رُمِيَ بحبوب الدواء التي كنتُ أحارب بها العدوى التي عانيتُها.

تُصبح الكلمات متعذّرة التمييز من الإيماءات، ويلتحم المُمثل الصامت (المُحَاكِي) بالخَطِيب، والكاتب، إذ يُسَوِّد صفحاته بالحبر، يصير رَسَّامًا...

تُدَوِّي أجراس القديس جرمان دي ابريه في كل ساعة في الشوارع. «سِنِّي ألف سنة، وسأكون موجودًا هنا حتى بعد موتك».[4]

الحادي عشر من آب: إن الطابق الذي أعيش فيه في هذا الفندق ـ تحت المَنوَر[5] الرمادي ـ مسكون برجال مسنِّين يعيشون هنا دائمًا. قبل نحو خمس دقائق وأنا أكتب هذه الرسالة، طرق على بابي رجل مُسِن، من البيت المحاذي لي، يجيء في كل ليلة ورائحة النبيذ تفوح منه (قابلته في أثناء قدومه مرّات عديدة)، وكانت بين شفتيه سيجارة

(1) Elles ont passé toute les bornes.

(2) إشارة إلى أكثر شذرة معروفة من شذرات هيراقليطس: «إن الطريق عاليًا وسافلاً واحدٌ، وهو الطريق نفسه» [المؤلف]. كلمة «يويو» ترجمة مباشرة لـyoyo، اللعبة المعروفة. [المترجم]

(3) Mais monsieur, dans le sac comme ça j'ai pensé qu'ils étaient les ordures.

(4) J'ai mille ans, et je serais ici après vous êtes partis.

(5) أو القَمَرية، وهي سقف زجاجي يسمح بمرور الضوء. [المترجم]

محترقة، ويلبس روب حمام رَثًّا، فسأل عن الساعة بصوته الفظّ، مالئًا كلامه بالأعذار، فأجبته: «الحادية عشرة إلا عشر دقائق».[1]

الثاني عشر من آب: أدخِّن سجائر «پاريزيين» (Parisiennes)، تشتريها بثمانية عشر سنتيمًا بأغلفة زُرق فيها أربع سجائر ـ فتدفع تسعين سنتيمًا لعشرين سيجارة. أما سجائر «چُلْوَاز» (Gauloises)، وهو الأرخص بعد پاريزيين، فتُكلف فرنكًا وثلاثة وخمسين سنتيمًا.

إن استيقظتِ باكرًا بما يكفي، كما فعلتُ اليوم (في الساعة 7:45) ـ الجوّ رمادي وبارد وممطر مطرًا يستمر طوال اليوم ـ وإنْ نزلتِ إلى الطابق السفلي حيث المقهى، فيمكنكِ أن تحتسي قهوتك مع رجال المتجر، ورجل الثلج، ورجل القمامة. الشيء الوحيد المثير للفضول في هذا أن هؤلاء الرجال يتشرَّبون كل أنواع المشروبات الكحولية المجلوبة، وفي الغالب النبيذ، بدلًا من أن يحتسوا القهوة صباحًا (فتذكَّري أنها الساعة الثامنة فقط). يبدو هذا عُرْفًا معتادًا بين المُسِنِّين. إن فكرة كهذه (شرب الكحول في الثامنة صباحًا) شيء يتجاوز قليلًا ما يمكنني استيعابه.

وَقْعُ المطر على الشوارع الضيقة في بَرْد الصباح الباكر... يبدو أنه يُقَرِّب كل شيء ـ يُقَرِّبنا بعضنا من بعض، ويقرب كل شيء مِنِّي... حتى الأصوات تكتسب سِمَة مختلفة. يبدو راديو الرجل المسنّ، وعزف موسيقا الأكورديون في البيت المجاور، أوضح وأَحْزَن. آه! لقد توقف المطر الآن. ينتشر فراغٌ صغير للحظة في الجوّ ـ بل في أُذُنيّ فعليًّا... وفي ذهني.

الثامن عشر من آب: اعذري تأخُّري. أعلم أنني وعدتك بالكتابة أمس، غير أن هذا استحال علي كثيرًا... أكملت بحلول منتصف ما بعد الظهر نصف الرسالة، ثم خرجت وعدتُ على عكس نِيَّتي بعد منتصف الليل بكثير. لستُ أعني بهذا أن عودتي متأخِّرًا منعتني من إكمال الرسالة ـ ليس الأمر هكذا ألبتة. إنني معتادٌ جِدّ الاعتياد السهرَ لساعات متأخرة، وكنت في الظروف المعتادة لِأُكمل الرسالة بمجرد عودتي إلى غرفتي، ولكني وجدتُ نفسي في هذه الليلة بالذات، أعني ليلة أمس ـ الليلة التي تعنينا

(1) Onze heures moins dix.

هنا ـ، في حالٍ غير أدبية، في حال رافضة للتراسل، في حال الثَّمل الشديد. مع هذا كنت مقرِّرًا بقوة أن أكمل الرسالة، وأن أفي بكلمتي، بل إنني اشتريتُ جريدة إيطالية آملًا أنه بقراءتها لبرهة سيُفيقني من ثَمَالتي الإرهاق العقلي الذي تسببه قراءة هذه اللغة، ولكن يا لَلأسف، فقد كانت الجريدة سهلة القراءة، وكنت أعرف الإيطالية أكثر من ما ظننت، ومن ثم بعد قليل، وأنا فوق سطح سريري الأفقي والناعم بنحو مبهج (هذا إن تكلَّمنا عمومًا، أي بنحو شِعريّ، دون ذِكر النتوءات والانحناءات والانحدارات)، أَغْلَقَتْ عَيْنايَ الصغيرتان البريئتان أنفسهما ضدّ إرادتي فصرتُ (ولتشهد هذه الجدران عليّ) *نائمًا*. مع أنني حلمتُ بالنوم على سرير كبير ودائري، بمُلاءة خضراء ولِحَاف ثقيل جليديّ، وأن توقِظني الكلمات الرقيقة والعَبِقة لـ... خادمة، يافعة وجميلة، خُضتُ معها علاقة سِرِّية، ومع أنني حلمتُ بالاستيقاظ على رائحة حُلوة للعطر والأنوثة، فإنني لم أجد في غرفتي عندما استيقظت غير رائحة قدمين قذرتين، ولمّا كنتُ أعيش وحدي هنا، عملتُ أن هاتين القدمين (والجَورَبَيْن اللذين كانا يكسوانهما لأيام كثيرة) لي، وفوق هذه الخيبة الشديدة، وهذا النقض الوقح لأحلامي، فإنني عانيتُ صداعًا من النوع الذي غالبًا ما يلي «الليلة السابقة». إنك تعلمين هذا النوع من الصداع، يشعر المرء فيه أن غوريلا تُمسك برأسه وتضربه بمطرقة خشبية عظيمة متى ما تَحَرَّك حتى أدنى حركة، وما زلتُ أعاني هذا الصداع للأسف، وها هو يتبعني في كل مكان، وفيًّا لي كوفاء ظلّي.

ولكنني لن لا أطيل الحديث عن تفاصيل حالي الجسدية. الشمس مشرقة، واليوم بَهِيّ. لقد بدأت باريس، بعد عطلة الخامس عشر من آب الطويلة، تَحْيى مجدّدًا ببطء، وأنا متأكد أنه في غضون أسبوعين سيعود كل شيء إلى وضعه الطبيعي.

لقد أملت أن أكتب لك عن السياسة ـ وهي شيء شغل أفكاري كثيرًا في هذا الصيف ـ ولكنني أجد نفسي فاقدًا الطاقة لفعل هذا الآن ـ سأدعه للرسالة التالية.

أخبار سارَّة. كانت توجد في صندوق بريدي رسالة من پيتر. إنه في باريس وسيجيء هنا مساءً ـ في غضون ساعة ونصف.[1]

(1) كان پيتر هذا پيتر شوبرت، صديقك الذي شاركك شقة في نيويورك في السنة الأكاديمية السابقة. لقد

الحادي والعشرون من آب: بيتر وسو هنا، إلى جانب بوب ن... سيعزفون الليلة موسيقا الكَمَان في مقهى. أقلّ ما يُقال إن هذا سيكون ممتعًا كثيرًا.

لقد بدأت شيئًا فشيئًا بالكتابة مجددًا... وقد كنتُ أقرأ كتبًا عن السياسة والماركسية...

أُرْبَكُ كثيرًا عندما أفكر في مستقبلي. لا أملك أدنى فكرة ما الذي سيحلّ بي بعد هذه السنة. أسأظل في فرنسا، أم في مكان آخر في أوربا، أم سأعود إلى أمريكا؟ وأي كلية في أمريكا، أهي كولومبيا؟ وبعد هذا، هل سألتحق بكلية الدراسات العليا؟ أسأجد وظيفة؟ (فأنا متأكد أنني لن أجني الكثير من المال عبر الكتابة). أسأكتب المراجعات، أم سأنشر ترجمات؟ هل سأتضوّر جوعًا وأكتب ببساطة؟ ماذا عن السياسة؟ إن جوابي لكل سؤال من هذه الأسئلة: «لستُ أدري». أفترض أن أفضل

التحق أيضًا ببرنامج باريس، وانتقل في غضون أيام بعد وصوله هو وحبيبته إلى فندقك الصغير في شارع اكلمنت، وهو مقابل مباشرة لسوق القديس جرمان. لم يملك أحد منكم كثيرًا من المال، وكل ما استطعتم دفعه تقريبًا هو الإيجار الشهري البالغ ثلاثمئة فرنك (دولاران يوميًّا). كان الفَكِه دائمًا والموهوب كثيرًا بيتر موسيقيًّا، وكان يأمل الإفادة من وقته في باريس بالدراسة مع ناديا بولونجيه (Nadia Boulanger)، إمبراطورة أساتذة الموسيقا الفرنسيين، وأن يواصل في الوقت نفسه إنجاز الساعات المعتمدة لنَيْل درجة البكالوريوس. نالَ في النهاية أمنيّته وظلّ في باريس لسنتين يعمل مع ناديا، ثم عاد إلى نيويورك وأنهى درجته في كولومبيا، وظل في غالب حياة رُشْدِه في مونتريال، حيث يدرِّس في جامعة مكغيل ويدير أوركسترا وجَوْقة تختصّ في موسيقا عصر النهضة والموسيقا المعاصرة. لقد كان بيتر الرائع وحبيبته الرائعة، سُو (Sue H.)، أقرب أصدقائك في أثناء الشهور التي قضيتها في باريس، لقد كانا جارَيْك، ورفيقيك الدائمين، وعائلتك، ويُشَكُّ تمامًا إن كنتَ ستتجاوز اضطراباتك محافظًا على تماسكك دونهما. ولكن لبيتر دور آخر مهمٌّ أدّاه في جانب آخر من القصة أيضًا، بخاصة لمّا كان الشخص الذي عرَّفَك إلى زوجة منتج الأفلام ألكساندر سالكايند (Alexandre Salkind)، وهي امرأة اسمها بِرْتَا دومنچث (Berta Domínguez D.) قابلها في أثناء سنة أمضاها في باريس بين نهاية المدرسة الثانوية وبداية الجامعة. إن برتا هي «المرأة المكسيكية» التي بدأت بالإشارة إليها في رسالة مؤرّخة بالخامس والعشرين من أيلول، وهي الشخص المسؤول عن إشراكك في مشروع الفلم الذي ناقشته في رسائل مختلفة مكتوبة في الأسابيع الأخيرة من وقت مكوثك في باريس. بقيتَ على تواصل معها بعد عودتك من نيويورك، وقد وَظَّفَك زوجها عندما عدتَ إلى العيش مجددًا في باريس بعد سنين عديدة (شباط من عام 1971) للعمل معه في مناسبات عديدة، وزوجها هذا هو منتج *المحاكمة*، و*المسكيتيون الثلاث*، و*سوبرمان*. لقد سردتَ هذه التجارب في *عيش الكفاف*، حيث أشرتَ إلى سالكايند وبرتا بالسيد والمدام إكس. لقد كانا حيَّيْن عندما نشرتَ ذاك الكتاب، فأردتَ أن تحمي اسميهما، وما داما ميتين الآن، فلا تجد سببًا يحملك على تركهما مجهولين، إنهما شبحين الآن، ولا يخصّ الشبح شيءٌ إلا اسمه. [المؤلف]

شيء هو العزفُ سَمَاعًا، كما يقولون، مع أنني عاجز، كما تعلمين، عن فعل هذا بمهارة لوقت طويل.[1]

حلمتُ في الليلة الماضية أن جدتي ماتت. كنتُ في شارع لِسْكرُوكْري l'Escroquerie (ومعناه النَّصْب، الابتزاز)،[2] وهو مكان مظلم ورطب ـ كأنه منتجع ـ ولكنه مُنشَأ من الخشب، مثل حصنٍ كوخيّ مصنوع من جذوع الشجر في الأفلام عن الجيش الأمريكي في سبعينيات القرن التاسع عشر، فيه الكثير من المحتالين واللصوص ـ وقد ظلت ساعات اليد تظهر على معصميّ ـ وقد ارتديت في إحدى المرات ستّ ساعات ـ ثلاث ساعات على كل معصم، كنتُ مع سُو نبحث عن پيتر... وعن أمي التي كانت غاضبة مني، وأتذكر الحديث مع طبيبين ـ كان واحدًا منهما ثملًا كثيرًا ـ بشأن جدتي. هذا غريب جدًّا.

تحطُّ الحَمَامَات على السطح فوق نافذتي التي أرى عبرها سقوف السوق المغطاة بالحجارة الحُمر في الأسفل، ويوجد إلى اليمين بُرْجَا كنيسة سان سولبيس. عندما تشرق الشمس بعد الظهر بقليل تُلقي الحمامات التي طارت عن السطح بظلالها على أرضية غرفتي. يبدو الأمر كما لو أنهن هنا معي. أشعر كأنني القديس فرنسيس.[3]

لقد كنت أكتب في الفترة الماضية. يجعلني هذا أشعر بأنني إنسان.

يوجد إلى جانب الفندق مركز طعام مجاني للفقراء. يوجد من هذه المراكز عشرون في المدينة، مركزٌ في كل منطقة إدارية. لقد أُغلِقَ في أثناء الصيف، ولكنني واثق بأنه سيُفتَح مجددًا قريبًا. يوجد في داخله طاولات وكراسيّ غير مدهونة.

تمشَّيتُ قبل ليلتين أنا وپيتر وبوب ن. من مقهًى إلى مقهى عازفين الموسيقا: يعزف پيتر الكمان، وبوب الغيتار، وأنا أمسك زجاجة (لجَمع المال) ولديّ صوتي. جمعنا في ساعة ثلاثين فرنكًا. كان الوحيدين... الذين سَخِروا وضحكوا وبالطبع لم يعطونا

(1) العزف سماعًا أو بالأذن تعبير يعني ترك قرار ما للظروف أو السنين، دون محاولة بَتِّه بالتخطيط وما شابه هذا. [المترجم]

(2) يقصد معنى اسم الشارع بالفرنسية. [المترجم]

(3) معروف بحُبّه الحيوانات واعتنائه بهم وبِكَرْزِه حتى للطيور. [المترجم]

أي شيء، ثُلةٌ من الألمان، كدتُ أتقاتل مع واحد منهم. كنا مستعدين للتوقف بعد جمع عشرين فرنكًا، ولكن بوب أراد جَنْيَ أربعة وعشرين حتى يحصل على مال الإيجار البالغ ثمانية فرنكات. وجدنا أنفسنا في كارفور الأوديون ـ وهو ميدان كبير فارغ، بدأنا بالمشي صاعدين الرابية نحو مسرح الأفلام (كان يديره جان لوي بارو Jean ـ Louis Barrault)، فنادت علينا فتاة من مقهى صغير جدًّا بلهجة إيطالية (متحدِّثةً الفرنسية): «لا تذهبوا. نريد أن نسمع الكمان». عدتُ وقدَّمتُ اقتراحًا... بأننا سنغني أربع أغنيَّات إنْ ضَمِنَّا أربعة فرنكات في الأقل. عاد بيتر وبوب. تحدَّثنا معهم بسرور كبير، وكان جيدًا أننا خرجنا من الشوارع الكبيرة وبدأنا العزف. جمعنا بعد الأغنية الأولى أربعة فرنكات تقريبًا، وحالما بدأت الأغنية الثانية قادت ببطء شاحنة شرطة للسجناء ـ مملوءة بالشرطيين ـ إلى الميدان، قُلت: «الشرطة»،[1] بدت الخيبة على وجه بيتر، وتوقف عن العزف. طلبنا السماح بالمغادرة في هَيَجان وبدأنا بالهرب، ولمّا هممنا بالهرب أخذ الجميع مالًا من جيوبهم، بل حتى الجرسون أعطانا فرنكًا، وشجّعونا على المغادرة حفاظًا على سلامتنا، وشكرونا، وتمنّوا لنا الحظ... فركضنا كأننا لصوص يائسون إلى أقرب مترو، لقد كانا مخرجًا ونهاية دراميَّيْن كثيرًا، ولكنني لا أريد فعل هذا مجددًا، فالشِّحَاذة أولًا ليست شيئًا ممتعًا كثيرًا، إذ كنتُ أنا الذي جمعت المال وتحمَّلت الناس ورددت عليهم، إلخ، وهذا ما ترك فيّ شعورًا سيئًا، ثم إنني ثانيًا لا أتضور جوعًا، فمن النفاق أن أشحذ وآخذ ـ كما يتراءى لي ـ من الشحاذين الحقيقيين الذين يكتسبون معاشهم بهذه الطريقة، ولكن عليّ الاعتراف بأنني لست نادمًا على مروري بهذه التجربة.

الثالث والعشرون من آب (رسالة ثانية): أقضي أيامي غالبًا كذا: أستيقظ مبكرًا ـ بين الثامنة والتاسعة والنصف. أنزل إلى الطابق السفلي لأُفطر، وأقرأ رسالتك إن كنتِ كتبتِ شيئًا لي، أصعد إلى الطابق العلوي مجددًا، وأكتب لك، ثم أذهب وأُودِع الرسالة، وأتمشّى، ثم أعود وأكتب. (كنتُ أكتب أشياء قصيرة ـ نثرًا ـ أو مقطوعات مُفرَدة تمتد كل واحدة منها على طول خمس أو عشر صفحات يمكن

(1) Les flics.

قراءتها على حِدَة. لا أخالني قادرًا على العمل على أي شيء طويل في هذه اللحظة، لمّا كان الباقي من الوقت قصيرًا جدًّا قبل دوام الكلية). ينهض پيتر وسو في نحو الساعة الواحدة (إنهما يعيشان في فندق حتى يجدا شقة، هذا إن وَجَداها)، فأنزل معهما للإفطار، ثم قد أخرج معهما أو مع پيتر وحده ـ وترى سو نانسي أحيانًا ـ أو وحدي، وقد أعود إلى الطابق العلوي وأكتب، على سبيل المثال، خرجتُ أمس مع پيتر واشتريتُ بنطلونًا... إنها السادسة الآن، أقضي أوقات المساء في العادة بأكل وجبة في مطعم، ومن ثم أقعد هنا وهناك أو أذهب إلى السينما، ثم أعود إلى غرفتي التي أقرأ فيها عادةً، وقد أكتب أحيانًا مرةً أخرى إنْ شعرتُ بقدرتي على هذا، ثم أنام، ويبدأ كل شيء مجددًا.

لقد كانت حياةً مثالية من كل ناحية تقريبًا: حرية تامة في تلك الأسابيع التي سبقت بداية فصل الخريف، وحظّ الانتقال إلى باريس، حظٌّ من جميع الجهات، لقد كنتُ ولدًا بُورِك بكلّ مَكْسَب، إذ تعشيت مع أصدقائي، وشاهدت الأفلام في دار السينما، وقطعت مشيًا مسافات طويلة عبر المدينة، ومع ذلك كان يملؤك الاشتياق على طول أسابيع البطالة الهنيئة هذه لحبيبتك الغائبة في الجهة الثانية من القناة الإنكليزية، وكنتَ معذَّبًا بمعرفة أنك أحببتَ أكثر من ما أُحْبِبْتَ، وأنك لربما لم تكن مُحَبًّا ألبتة، فضلَّلْتَ نفسك بمخططات غير عملية تتعلق بالهروب إلى لندن حتى تكتشف ما كنتَ تعنيه لها، ولكن السفر لم يكن ممكنًا، فقد كنتَ تعيش عيشَ كفافٍ تام ولم يكن لديك أي عمل ترفع فيه مقدار دَخْلِك، قائمًا بأود نفسك اعتمادًا على إعانة مقدارها مئة وأربعون دولارًا شهريًّا وافق والدك على إرسالها إليك، وهذه بادرة لطيفة منه، فأنى لك أن لا تشعر بالامتنان له لمساعدتك، ولكن حتى في ذلك الوقت الذي كانت فيه تذكرة السينما بأربعين سنتًا والوجبات بدولار، لم تكن مئة وأربعون دولارًا إلا أجرًا زهيدًا، فبإنقاصك ستين دولارًا شهريًّا منها إيجارًا للغرفة، يظل لك ثمانون دولارًا للطعام وسائر الضروريات الأخرى، ما يعني ثلاث دولارات يوميًّا لكل شيء، وها أنت تكتب في الثامن والعشرين من آب أنك تملك ما يعادل سبعين دولارًا في جيبك، وكتبتَ في يوم ما لاحقًا (بالفرنسية لأسباب تجهلها الآن) أنك لا تملك إلا دولارين: «هذا مُحبِط، إنه مضحك، لكنني لا أملك في هذه اللحظة إلا

عشرة فرنكات، أعني دولارين. ليس هذا بكثير. لستُ أدري ما سأفعل بعد اليوم. آمل أن يرسل والدي المال قريبًا».[1]

الأسبوع التالي (الخامس من أيلول)، رسالة أخرى تبدأ بالفرنسية: «لا أعرف ما أقول. يتساقط المطر باستمرار، كأنه رملٌ يتناثر على وجه الماء. المدينة بشعة، فهي باردة، وقد بدأ الخريف. لن يكون شخصان معًا أبدًا ـ فالبَدَن مخفيّ، وأبعد بكثير من أن يمكن لمسه. الكل يتحدث دون أن يقول شيئًا، دون كلمات، دون أي معنًى. تمشي الأرجل بثمالة، وترقص الملائكة، والروث في كل مكان.

لا أفعل أي شيء. لا أكتب، ولا أفكر. أصبح كل شيء ثقيلًا، وصعبًا، ومؤلمًا. لا توجد بداية للبدء ولا نهاية للانتهاء. متى ما حُطِّمَت تبزغ مجددًا من حطامها. عدتُ لا أحتَجّ، فمتى ما انتهيت أعود وأبدًا مجددًا. أقول لنفسي: أكثر قليلًا، لا تتوقف الآن، أكثر قليلًا وكل شيء سيتغير، وأستمر، حتى لو لم أعرف الغاية، أستمر مُفَكِّرًا أن كل مرة ستكون الأخيرة. نعم، إنني أتحدث، وأجبر الكلمات على إحداث أصوات (لِمَ؟)، هذه الكلمات القديمة التي عادت لا تكون لي، هذه الكلمات التي تسقط إلى الأبد من فمي...».[2]

***

(1) C'est moche, c'est drôle, mais à ce moment j'ai seulement dix francs. C'est à dire, j'ai deux dollars. Pas beaucoup. Après aujourd'hui je ne sais pas ce que je ferai. J'espère que mon père envoyera l'argent bientôt.

(2) Je ne sais plus quoi dire. La pluie tombe toujours, comme une chute de sable sur la mer. La ville est laide. Il fait froid _ l'automne a commencé. Jamais deux personnes ne seront ensemble _ la chair est invisible, trop loin de toucher. Tout le monde parle sans rien dire, sans paroles, sans sens. Les mouvements des jambes deviennent ivres. Les anges dansent et la merde est partout.
Je ne fais rien. Je n'écris pas, je ne pense pas. Tout est devenu lourd, difficile, pénible. Il n'y a ni commencement de commençant ni fin de finissant. Chaque fois qu'il est détruit, il paraît encore parmi ses propres ruines. Je ne le questionne plus. Une fois fini je retourne et je commence encore. Je me dis, un petit peu plus, n'arrêtes pas maintenant, un petit peu plus et tout changera, et je continue, même si je ne comprends pas pourquoi, je continue, et je pense que chaque fois sera la dernière. Oui, je parle, je force les paroles à sonner (à quoi bon?), ces paroles anciennes, qui ne sont plus les miennes, ces paroles qui tombent sans cesse de ma bouche ...

ترجع بعد سبع ساعات وبعد منتصف الليل إلى غرفتك وتواصل كتابة الرسالة، مُخَلِّفًا وراءك النحيب المتشائم الذي ميّز المساء المظلم والمكدِّر وبادئًا خطابًا طويلًا وطليقًا عن السياسة والثورة، وهذا تحول مفاجئ ومطلق تمامًا في النبرة حتى إن تأثيره مزعج كثيرًا. إنك تنظر إلى هذه الرسالة المتشعِّبة شعبتين كعلامة على تزعزعك المتنامي، إنها أول دليل ملموس على الانهيار العقلي الذي سيهدِّدك في الأيام المقبلة. تبدأ الرسالة كذا: «لن أذهب إلى الوضع الحالي في أمريكا، فكل هذا واضح وتمكن قراءته في الجريدة في صباح كل يوم، المهمّ أن المرء يستوعبُ شيئًا من بين البلبلة هذه. (إن أفكاري نفسها مشوَّشة كثيرًا، حتى إن المرء لا يعرف من أين يبدأ...)». تبدأ بالاستطراد في هذه اللحظة، تستطرد حتى قبل أن تبدأ، مفكِّرًا مَلِيًّا إن كان يمكنك تَبَنِّي الأسس الفلسفية للماركسية، ومتسائلًا إن كان للتاريخ نمطٌ، ومُشَكِّكًا إن كانت طبيعة الديالكتيك الماركسي الثنائية صالحة، ومختتمًا أنها ليست كذلك، ومن ثم تناقض استنتاجك عندما تتساءل إن كان الصراع الطبقي واقعًا أم خيالًا، فتؤكِّد: «لعله حقيقي». وتطلق هجومًا في الفقرة الثانية على ما تدعوه *الفلسفة البرجوازية*: «قادت النزعة الشكّيّة إلى تبجيل مناهج موضوعية بنحو متزمِّت لوصف الكون، كالهندسة والمنطق: فكِّري بديكارت، واسپينوزا، وليبنتز، وكانط ـ إنه تعظيم للعلم تترتب عليه ثنائيات كالذات/ الموضوع، والشكل/ المضمون، إلخ، وكلها غير موجودة حقيقةً. قاد هذا إلى فصل *الفكر والعمل*... وكذا الأمر في العالم الاقتصادي... إلى فكرة *العمل* من حيث *كونه معدودًا آلة*. اختُزِلَ عقد العامل إلى عقد *رأس المال*، بدلًا من أن يكون عقدًا بين *رجال*، كما هو في واقع الأمر. لقد حصل هذا لأن الناس كانوا (وما زالوا) يُعَلَّمون أن يفكروا بلغة الأفكار المجردة. مثال على هذا أنه يمكن اليوم إجراء دراسات اجتماعية بالغة العلمية تقرر فعالية العمال في أثناء أوقات محددة من اليوم، إلخ. إن هذا *نازِعٌ لصفة الإنسانية*، فالآن لا يملك واحدنا إنسانًا لساعات كثيرة، بل ساعات كثيرة من الإنسان، كما لو كان آلة. إن العالم الرأسمالي عالمٌ من الأشياء لا عالم من الناس». ليس الأمر بالضبط أن هذه الكلمات مفككة، أو أنك لا تعرف عما تتحدث، إنما الأمر ببساطة أنك متعجِّل كثيرًا، محاولًا كتابة حُجَّة طولها طول كتاب ولكن في صفحات قليلة، لعلك كنتَ مرهقًا، وربما ثملًا قليلًا، ولا شك أنك كنتَ تعيسًا ووحيدًا، وبعد أن

تقضي الفقرتين التاليتين في شرح أن الطبقات المضطهَدة في أمريكا لم تهبّ ثائرة لأن أسطورة القومية خدعتها حتى تفكِّر بأنها غير مضطهدة، تختم تأملاتك بدعوة الطبقة الوسطى إلى خوض عملية من التدمير الذاتي بإرادتها: «بدعوة شباب الطبقة الوسطى (نحن على سبيل المثال) إلى نقض المجتمع الذي تربَّينا فيه، إلى تجاوز طبقتنا خِزْيًا من ما تُمَثِّله والانضمام إلى صفوف الأعراق الفقيرة والمضطهدة». تختم الرسالة موقِّعًا: «بول حزينٌ وشبه مشلول».

لا بد أن الرسالة التالية التي تَسَلَّمتها كانت كالعاصفة، خيبة أمل، صدمة من نوع صعب عليك احتماله. عندما تكتب في مجددًا لها في الحادي عشر من أيلول، تبدو مُعَاقَبًا ومُحْبَطًا، لست شاعرًا بالمرارة بقدر ما كنتَ مستَهْلَكًا عاطفيًّا. «لا يُعادل صراحة رسالتك إلا صراحة أفكاري المُكْتَشَفة حديثًا الذي سببها دون شك الاكتئاب الفظيع الذي أعانيه. إن كل ما تقولينه صحيح بالطبع. كان تجنُّب الحقائق في محادثتنا (قبل إلغاء رحلتي) مجرد وهم، حجابًا غَطَّيْتُ عيني به حتى أحجب ضوء الأشياء الحقيقية فأراقب بنحو أفضل الخيالات التي دارت في عقلي، ولكن الحجاب بدأ بالانقشاع دون أن يُلْحَظ، وها هو الآن يقيِّد قدميّ (حول الكاحل) فتُسْقِطُني كل خطوة أخطوها سقطة مباشرة على وجهي. إن تمنَّيْتُ الآن أن أمشي، فعليّ أن أكون مهيَّأً كي أسقط سقطات تعادل كل خطوة أخطوها. سيُشَقّ الحجاب في النهاية وسوف أكون حرًّا، أو قد أقرر أن لا أنهض بعد إحدى السقطات، وهو أمر محتمل أيضًا، فأظل على سقطتي ببساطة... دون أي رغبة في النهوض مجددًا».

الخامس عشر من أيلول: يبدو أن الطقس أمرضني (وهو طقس تعيس، أيامه بشعة وممطرة على طولها، والخريف قادم، والأشجار بدأت بتغيير لونها)، إذ أعاني من حلق ملتهب وزكام وقشعريرة. مع هذا كنتُ مشغولًا بالتحضير للتسجيل للمواد والامتحانات. علي أن أخبرك... أن صديقك الأستاذ «إل» كسول جدًّا ونذل جدًّا ـ وهذا ما يجعل رؤيته أمرًا صعبًا، ولا يقدم إلا قليلًا من المساعدة في هذا، ويبدو أنه ضَلَّلنا (أيضًا) نحن الذين في نيويورك عن البرنامج ـ إذ سيُقْضَى جزء كبير من هذا البرنامج في أخذ مقررات دراسية لغوية في القسم الأجنبي من السربون. لا يبدو هذا جذَّابًا كثيرًا. حتى بيتر، الذي جاء لدراسة الموسيقا، سيُضطرُّ إلى تكريس معظم وقته لمقررات اللغة...

كنتُ أفكر متحمِّسًا في الأفلام ـ «الفلم» = **السينما**.[1] بدأت بكتابة سيناريو، سأعلّق على هذا أكثر في رسالة مستقبلية...

لقد كانت أحلامي واضحة على طول الليالي الماضية بأكملها تقريبًا: رُشِقت في أحد الأحلام برصاص على يد النازيين، ولم يكن الموت لبالغ مفاجأتي كريهًا، فقد طُفْتُ مستلقيًا وغير مرئيّ في الهواء. وفي حلم آخر: كنتُ عريانًا مع امرأة جميلة في أماكن عامة، ومن ثم في دار أفلام مغلقة. المنظور المزدوج: كان عُرِيُّها فاتنًا ـ سواء في نظري أو موضوعيًّا.

لقد بدأت المعركة المحبِطة مع الأستاذ «إل». لعلكَ دُلِّلْتَ في السنتين الأوليين في كولومبيا على أيدي الرجال المُلهَمِين والمُلهِمِين الذين درست معهم كطالب سنة أولى وسنة ثانية في نيويورك، فلم يكن من ضمنهم فقط آنچس افلتشر ودونلد افريم المذكوران سابقًا (الشعر الفرنسي في القرن التاسع عشر في السنة الأولى، وحلقة نقاشية (سمنار) عن مونتاني في الثانية)، بل كان إلى جانبهم من بين آخرين: إدورد تَيْلر (مِلْتِن) ومَيْكل وُدْ (سمنار ثنائي اللغة عن الرواية: جورج إِلْيِت، وهنري جيمس، وجيمس جويس بالإنگليزية، وافلوبير، واستندل، واپروست بالفرنسية)، وحتى مستشارك كِنْت هَيِت (A. Kent Hiatt) المختصّ بالعصور الوسطى، وهو السيد اللاذع اللسان والدَّمِث الذي قابلته كل فصل لمناقشة أي المقررات ستدرس، عاملك دائمًا بتعاطف وتشجيع، ما يعني أنك اجتزت نصف مسارك الأكاديمي دون أن يعترضك أي متحذلقين أو متغطرسين، ودون أشخاص يملؤهم الشرّ أو نفوس ناقمة تفرض تعاستها عليك، ومن ثم اصطدمت بالجدار الآجُرِّي الذي كان الأستاذ «إل»، الإداريّ الضَّجِر الأستاذ «إل»، فتضاربتما. لقد كانت فرنسيتك آنذاك جيدة بما فيه الكفاية حتى تكون مستعدًّا لمنهاج جديٍّ أكثر من مُقَرَّر بيرلتز (Berlitz) الذي أصرّ عليك أن تدرسه. وكان الوضع مع پيتر أكثر منافاةً للعقل، إذ كانت أمه فرنسية وكان هو طَلِق اللسان تمامًا، لكن طباع پيتر كانت أقلّ حِدَّة منك، وكان مستعدًّا ليُسَلِّم للبرنامج من أجل دراسته مع بولونجيه. أعلنت رسالتك في الخامس عشر من أيلول عدم رضاك

(1) فلم مقابل Film، والأفلام مقابل movies، وهذه تعني في الأمريكية «السينما» أيضًا. [المترجم]

تجاه الأستاذ «إل»، لكن الأكيد أن الخلاف تصاعد سريعًا، إذ بعد خمسة أيام فقط كنتَ على شفا ثورة شعواء.

العشرون من أيلول: لم أعرف من قبل قطّ تشوُّشًا أطغى من هذا... يا لها من نوباتٍ عنيفة من الاكتئاب! إنني الآن على ما يدعى مفتَرق طُرق ـ وهو الأهم في حياتي. سأعرف غدًا شيئًا تمامَ المعرفة عندما أقابل الأستاذ «إل» ـ بقائي في كولومبيا من عدمه. إنني أفكّر جديًّا في هذه اللحظة بالانسحاب. سأفعلها إن لم يتحسَّن البرنامج. إن الأستاذ «إل» يقرّزني... سأفضل البقاء طالبًا هذه السنة حتى يُتَاح لي الوقت كي... أفكر بما سأفعله بعدها (لدي أفكار عديدة). ولكنني لن أدرس قواعد الفرنسية لخمس عشرة ساعة أسبوعيًّا حتى يتوفر لدي هذا الوقت.

بدلًا من مواصلة السعي إلى دراسة جامعية لن تقود إلى شيء بالطبع غير مزيد من الدراسة، ولربما في النهاية إلى التدريس (ما أسهل الانقياد لهذه الحياة!)، قررتُ ـ قرارًا مثيرًا وغريزيًّا ـ أن أدخل سلك الأفلام، في البداية ككاتب سيناريو ومن ثم... في النهاية كمُخرِج. سيصعب التكيف في البداية، ولربما يطول هذا نوعًا ما: قضية كتابة السيناريوهات (إنني أكتب واحدًا الآن)، والتعرف إلى الناس، والحصول على وظائف كمساعد، إلخ. سأقابل غدًا مُنتِجًا وقد أعمل في ترجمة بعض النصوص، ومقابل هذا يمكنني أن أحصل على مئات الدولارات... إنْ قُطِعت عني الأموال من أمريكا، أعني إنْ تمنَّى والدي وَقْفَ إرسال مال إليّ، وهو ما أتوقعه، إلى جانب كونه مبرّرًا تمامًا، ولن يُثير فيَّ ضغينة تجاهه، فإنني سأبعث بطلبٍ إليه أن يرسل إلي ثلاثة آلاف الدولار التي أملكها في البنك وسأستقلّ بنفسي.

إن تَبِعات الانسحاب من كولومبيا جدّيّة كثيرًا ومتشابكة، إذ سأخسر وضعي كطالب في ما يتعلق بالتجنيد العسكري الإلزامي...

لعل أهم وأول خطوة مهمة ستُتَّخَذ غدًا. إن ما سأقترحه على الأستاذ «إل» كما يلي: سأدرس لامتحانات الدرجة الأولى والثانية وحدي، وأحضر المقررات في السربون كمُسْتَمِع فقط دون احتسابها في الخطة، وأعمل مشروع التخرُّج المطلوب. يعني هذا في حقيقة الأمر أنني لن آخذ مقررات اللغة التي ستُجَهِّزني بنحو غير مباشر للامتحانات

(وهي كما يظهر أهم عنصر في البرنامج ـ هي التي تجعله «رسميًّا»)، وبدلًا من هذا سآخذ مقرراتٍ حقيقية في السربون... لا أظن مع هذا أن الأستاذ «إل» سيتقبل تغيُّرًا كهذا، وفي هذه الحال سأُوَدِّعه وأستقلّ وحدي تمامًا.

جرى الأمر كله بنحو محزن. أعطاني الأستاذ «إل» رسالة قال لي فيها إنها ستكفي للحصول معها على بطاقة إقامة مؤقتة، لذا انتظرتُ على الدور لثلاث ساعات اليوم شاعرًا بالمرض حقًّا (عليك سماعي وأنا أكحّ) لا لشيء إلا لأُخْبَر أنني لمّا كنتُ قاصرًا بعدُ فإنني محتاجٌ إلى رسالة مُصَدَّقة من والدي. كان هذا مُغْضِبًا حقًّا. إنك تعلمين رأيي بالبيروقراطيات ـ إنها أسوأ هنا...

الخامس والعشرون من أيلول: شكرًا لك على الرسمات وعلى دعمك. لم يستقرّ كل شيء. عليّ اليوم إجراء اتصال طويل المسافة بكولومبيا لأخبرهم عن خططي وأسأل إن كان ممكنًا استرداد القسط الدراسي (أو في الأقل جزء منه). لا، لم يحبّ الأستاذ «إل» فكرتي ـ ولكن ليس في متناوله الكثير ليعمله بخصوص هذا.

إلى جانب مسألة الكلية هذه كلها، كنتُ مشغولًا كثيرًا... ثم إنني... ترجمتُ عشر قصائد لجاك دوبا (Jacques Dupin)[1] وسأرسلها إلى آلن[2] في نيويورك الذي قال

(1) شاعر فرنسي (1927 ـ 2012). اكتشفتَ عمله في نيويورك في الربيع الماضي ـ كانت ثلاث أو أربع قصائد موجودة في كتاب أنثولوجي للشعراء الفرنسيين المعاصرين ـ وبعد وصولك باريس تتبعتَ كتبه وبدأت بترجمتها، ولم تفعل هذا إلا للذّة ترجمتها لا أكثر ـ لأنك وجدته أفضل شاعر فرنسي من بين الشعراء الجُدُد وأكثرهم أصالة. تقابلتما في عام 1971 وبقيتما صديقين مقرَّبين حتى موته في تشرين الأول هذا الماضي. ثم نُشِر في عام 1974 كتاب لترجماتك عن دوبا تحت العنوان *مقتطفات* Fits and Starts (دار نشر لِڤنج هاند Living Hand)، وظهر كتاب آخر من الترجمات، *قصائد مختارة*، في عام 1992 (الولايات المتحدة: مطبعة جامعة ويك فورست؛ المملكة المتحدة: ابلدآكس Bloodaxe). وتوجد في كتابك *النثر المجموع* كتابتان مخصَّصتان لدوبا: إنه نص كتبته في 1971 عن شعره وسلسلة من الذكريات المكتوبة في عام 2006 كمفاجأة أثارها عيد ميلاده الثمانون، عنوانها «تاريخ صداقة». ثم إن دوبا وزوجته اكرستين مذكوران في كتابك الأخير: *مذكِّرات الشتاء* Winter Journal (الصفحة السادسة والسبعون): «أفضل وألطف الأصدقاء ـ عَسَى أن يُقَدَّس اسْمَاهُما أبدًا». [المؤلف]

(2) آلن ماندلباوم Allen Mandelbaum: إنه خالك بالزواج (يعني زوج أخت أُمِّك). إنه مترجم مُشَاد به لڤرجيلِيُس، ودانتي، وهومرس، وأوڤيدِيُس، ومترجم لإيطاليين من القرن العشرين (جوزِبّه أونچاريتّي Giuseppe Ungaretti، وسَلْڤاتوره اكوازيمودو Salvatore Quasimodo، وآخرون)، وشاعر،

إنه سيكون قادرًا في الأغلب على تحويلها إلى شِعْرٍ. قد أحصل على خمسين دولارًا مقابل هذا.

لا أتوقع من والدي أن يمنحني المزيد من المال. تجبرني رؤية أنني لا أملك إلا ثلاثة آلاف دولار على الحفاظ على مصدر دَخْلي بنحو ما، مهما كان دخلًا زهيدًا.

إني أعيد كتابة سيناريو هذه المرأة المكسيكية،[1] زوجة المنتج الذي أنتج *ثربانتس*، حيث كان لصديقي المُلَحِّن المُسِنّ دور.[2] عندما يُصَوَّر السيناريو سأكون موجودًا ـ حائزًا الخبرة التي أريدها. تريدني هذه المكسيكية أيضًا أن أترجم واحدة من مسرحياتها إلى الإنكليزية ـ وسيُدفَع لي مقابل كل هذا. إنها سمراء، وساحرة، وجميلة ـ ولكنني لا أثق بها، وأظن أن وعودها فارغة قليلًا، ولكننا سنرى. يوجد احتمال أنها ستقدر على منحي غرفة الخادمة في مبنى سكنها دون مقابل. عليّ الانتقال، إذ عدتُ عاجزًا عن دفع ثلاثمئة الفرنك إيجارًا في هذا الفندق. سيتبيَّن لي في غضون أيام قليلة إن كان بإمكاني الحصول على الغرفة. سيكون هذا عونًا كبيرًا، إذ لا تهمنّي الكماليات (إن غرف الخادمات حسب التقليد صغيرة جدًّا وليس فيها ماء، ودائمًا ما تكون في الطابق العلوي، ويُصعَد إليها عبر درج خلفي).

خطتي كما يلي: أن أظل في باريس لبعض الوقت، وأكتب سيناريوهاتي (مواصلًا كتابة أشياء أخرى أيضًا)، وأترجم، وأحصل على كل الخبرة التي أستطيع حيازتها...

السابع والعشرون من أيلول: لن أقول الكثير الآن، فالوقت متأخر، وما زلت أنتظر ردك على رسالتي الأخيرة.

مع هذا سأقول بعض ما جرى. اتصلت على العميد في كولومبيا (تسعون فرنكًا:

وأستاذ، وعَلّامة أَلْسُن (الإغريقية القديمة، واللاتينية، والعبرية، والعربية، وكل اللغات الأوربية الرئيسة)، إنه بلا شك ألمع وأشْغَف عقل أدبي عرفته قطّ. لقد كان صديقك، ومرشدك، ومُخَلِّصك في سنين الكتابة المبكرة، وأول شخص آمن بما كنتَ تفعله ودعم طموحاتك. عَسَى أن يُقَدَّس اسمه أبدًا. [المؤلف]

(1) يقصد بِرْتَا دومنچث التي ورد ذكرها سابقًا. [المترجم]

(2) ألكسندر اشپنچلر، الذي قابلته في رحلتك الأولى إلى باريس عام 1965. له دور رئيس في الجزء الثاني من *اختراع العزلة* [كتاب آخر للمؤلف] باسم «إس». [المؤلف]

نحو عشرين دولارًا) وسوَّيْت كل شيء معهم. يمكن استرداد قسط الفصل بأكمله. لقد كتبت رسالة رسمية إليهم، وكتبت إلى والدي أيضًا: لوالدي ووالدتي، فلديّ فضول يتعلق برد فعلهم...

في ما يتعلق بالفلم: أنا مساعد ولست المخرج الرئيس. والآن أنا منهمك في مهمة جسيمة هي إعادة كتابة السيناريو ـ بأكمله تقريبًا. أُخبِرتُ أن سلڤادور دالي راغبٌ في أحد الأجزاء. قد يَثْبت أن هذا مثير للاهتمام. يجري معظم الفلم في المجاري، إذ سأنزل غدًا بعد الظهر أنا والمرأة المكسيكية لرؤيتها. يظهر أن بعض الأشخاص مهتم بإنتاج الفلم، إذ يريد شاب يملك كثيرًا من الأموال إنتاجه. سنرى غدًا أيضًا الفنّيّ الرئيس. مع هذا ما أزال غير متفائل كثيرًا، وأشعر أن كل شيء سيُخفق. مع هذا سنرى ما سيحدث. من الغريب أن تعيد كتابة عمل شخص آخر، لكنه يبدو تمرينًا جيدًا.

أشعر بالتحرر قليلًا، فليس لدي كُلِّيّة أقلق بشأنها...

الثالث من تشرين الأول:... إن الأمور بعيدة عن أن تكون مثالية، والحق أنها مُشوِّشة تمامًا وغالبًا ما تكون مُكْئِبة بشدّة. (أكتب بخط صغير جدًّا لأن هذه آخر ورقة لديّ). تلقيت قبل نحو أربعة أو خمسة أيام مكالمة في منتصف الليل من أمي وزوجها... بَدَوَا قلقين كثيرًا علي، وطلبا مني العودة إلى نيوآرك لثلاثة أو أربعة أيام «لمناقشة الأمور»، فأجبت بأنني سأفعل لأتجنب جدالًا لا معنى له على الهاتف، ثم كتبتُ في الصباح التالي بلاغًا خاصًا بأنني لا أريد العودة أبدًا. العودة هناك مجددًا ستدمّر معنوياتي تمامًا، وبخاصة لوقت قصير. لم أسمع شيئًا منهم بعد. لا أريد أن أثير مشاعر سيئة، ولكنني سأفعل إن اضطُرِرْت. لقد بَدَوَا قلقين كثيرًا بخاصة بشأن التجنيد العسكري الإلزامي.

أرى صديقي الملحن المُسِنّ كثيرًا. لقد كان مريضًا، ولا يملك المال. أشتري له طعامًا عندما أستطيع.

أُوقِف العمل على الفلم حتى يوم الاثنين بسبب مسألة متعلقة بالمال، ليَروا إن كان سيتلقى دعمًا ماليًّا. ما أشد كرهي نحو الطريقة التي يناقش فيها «المخرج» المال... متملِّقة وبغيضة جدًّا. إنه يدعو الجميع «عزيزي السيد فلان» بأشد الأساليب المقزِّزة والمُدَاهِنة التي يمكن تصوُّرها. كتبتُ نحو ثُلث نَصِّ الفلم ـ والآن توقفت. بدت المرأة

المؤلِّفة مسرورة. سأقرأ النص اليوم للمخرج، اسمه أندريه إس، وهو واحد من أفضل فنّيي العالم، فهو الذي أخرج مشاهد الصحراء في فلم *لورنس العرب*. سيكون هذا أول عمل له كرئيس إخراج، وأؤكِّد لكِ أن هذا الفلم إن أُنْتِجَ فعلًا فإنه لن يكون ألبتة كفلم *لورنس العرب*... كل شيء في هذه اللحظة غامض ـ إنني شديد التشاؤم.

مع هذا فإنني سأكون قادرًا على جَنْيِ آلاف عديدة من الدولارات إن نَجَح. لديّ حاضرًا عمل ترجمي آخر، لمسرحية، سأجني منه نحو مئة دولار كما أظن.

إنني أذكر كل هذه الشؤون المتعلقة بالمال لأن كل شيء يدور وأنا وحدي ـ وهذا شعور جديد.

أكتب سيناريو لفلم قصير... لـ«court ـ métrage».[1] سأنتهي منه في غضون خمسة أيام أخرى أو أسبوع... سأرسل إليك نسخة. أودّ أن أكون قادرًا بطريقة ما على الذهاب إلى إنچلترا أو إيرلندا في غضون شهور قليلة. إنها مسألة تعرُّف إلى بعض الفنيين، والممثلين، وجَنْيِ المال...

ثم إنني أكتب أيضًا سلسلة من القصائد النثرية، تُدعى «مُرَاجَعات»، وأعني بها إذا جاز التعبير تأمُّلًا عن ماضِيَّ.

كل هذا يجعلني أبدو... مشغولًا كثيرًا. لعلي أكون كذلك، لكنني لا أشعر بهذا. إنني وحيد تمام الوَحدة في غالب الوقت ـ في وَحْدَةٍ عميقة وفظيعة. شاعرًا بكثير من البرد، أو أعمل، أو أتمشى، أو مشلولًا من الاكتئاب ـ كذا أكون في غرفتي الصغيرة. أمشي مشياتٍ وحيدة جدًّا. ثم أرى الأناس الذين يعملون على الفلم، فيبدو لي هذا زائفًا. ولا آكل إلا مقدارًا يقرب من اللا شيء...

إنني قلق بما سيحدث لي، وبالتجنيد العسكري الإلزامي.

يكاد يكون أكثر شيء مثير فعلته أنني ذهبتُ إلى تجمع حزب شيوعي، كان احتفالًا بالذكرى الخمسين للثورة الروسية. كان يوري چاچارين، رائد الفضاء الأول، «عامل الجذب المميز». لم أسمع في حياتي من قبل ضوضاء وهتافًا وصراخًا وغناءً كالذي سمعته...

(1) معناها فلم قصير بالفرنسية، وكذا وردت. [المترجم]

التاسع من تشرين الأول: جوابًا عن سؤالك: نعم، لعلك صائبة، فإذا ظللتُ عنيدًا سيجيء والديّ، أو في الأقل أمّي، إلى باريس حتى «تعيدني إلى رُشدي قليلًا». ـ بائع البالونات بعيد، وما يزال الرئيس هنا، وأرى صديقي الملحِّن كثيرًا، ولكن الموضوع عكس في المعتاد، فأنا الذي أساعده لا هو الذي يساعدني... ما يزال بيتر وسو يعيشان في الفندق... ومع أن بيتر غير راضٍ عن البرنامج، فإنه يُسَايِره بسبب إمكانية الدراسة مع ناديا بولونجيه. ـ أرى بيتر وسو كثيرًا، إذ نأكل كثيرًا من الوجبات معًا في مطعم بولندي جيد جدًّا ورخيص كثيرًا، وألعب أنا وبيتر يوميًّا تقريبًا، في وقت من الأوقات، لعبة پِنْبُول (Pinball). توجد آلات في كل مقهى تقريبًا. ثم إنني إلى هذا حملتُ بيتر وسو على قراءة بِكِت، إذ قرأ بيتر *مورفي* ويقرأ الآن *واط*. وكمكافأة لي قبل أسابيع قليلة، مَثَّل لي بيتر وسو باللعب المباراة التي جرت بين السيد إندن ومورفي.[1] ـ أما في ما يتعلق بسائر الأشياء الأخرى، فالمفروض أن يَرِد لي خبر عن الوضع المالي للفلم اليوم. إنني محبَط قليلًا... من الأمر كله، لكنني ظللتُ مشغولًا بالسيناريو الخاص بي، إذ ها هو قد نَمَا ليصير بِطُولِ فلم تامّ. لقد كتبتُ حتى الآن خمسين صفحة تقريبًا، ما يعني أنني أنهيت ثلثه أو نصفه، ثم إنني إلى هذا مُصِرٌّ على أنني سأصوّره وأُصْدِره...

السادس عشر من تشرين الأول: لقد تلقيتُ أخبارًا غير سارّة. إن جَزَع والديّ يزداد كثيرًا... ما دفع آلن إلى الاتصال ـ ليطلب مني العودة إلى أمريكا لأيام قليلة «للتحدث» ـ قائلًا إنّ لديّ أفضلية عليهم غير عادلة في الرسائل ما دام وسيطي الذي أعتمده الكلمات. لم أفهم المقصود من هذا كثيرًا، لكنني رددت عليه... بأنني سأذهب. تلقيتُ بعد نحو يومين برقيّة من والدتي، قائلةً إن لديّ عند طيران فرنسا تذكرة غير مؤرَّخة. أدركتُ في اليوم التالي أنني لا أملك بطاقة الصحة الخاصة بي... فكتبت إليهما طالبًا أن يرسلاها. لذا لا أعرف متى سأغادر بالضبط، أخال أنني سأفعل في غضون أسبوع أو أسبوعين، ولكنني سأغادر في وقت ما. إنني مُحتَاطٌ قليلًا، إذ جعلتهما يَعِدانني في رسالتي بأنهما سيمنحانني تذكرة رحلة ذهاب وإياب.

---

(1) شخصيتان في رواية صموئيل بِكِت مورفي: مورفي ممرض في مستشفى للأمراض العقلية، وإندن Endon أحد مرضى مورفي. [المترجم]

نصيحتي أن لا تكتبي إليّ مجددًا إلا عندما تسمعين مني شيئًا مرة أخرى بسبب كل هذا التنقل المضطرب والوشيك، إذ لربما لن أحصل على رسالتك ما دمتُ سأنتقل من هنا قريبًا. عندما أعود إلى باريس مجددًا، سأكتب إليك بعنواني الجديد.

حتى أواصل الحديث عن الأخبار ـ قَبِلَ استديو باراماونت الفلم اعتمادًا على ردّ دالي، وسيُصَوَّر في آذار أو نَيْسَان. سيكون دالي في باريس في اليوم الخامس والعشرين، مع هذا يبدو كل شيء سخيفًا قليلًا بالنسبة إلي ـ والنصّ ليس جيدًا ألبتة.

لقد أنهيت السيناريو... لقد احتاج مني هذا الشيء اللعين إلى ثلاثة أيام لكتابته ـ سبعون صفحة دون سطور فارغة. لن أحاول تصويره مباشرة... أريد أن أعزل نفسي وأستمر بالكتابة ـ كل شيء: أفكار وكلمات... كلها تُقْبِلُ دون توقف. كل شيء مرتبط بكل شيء. إنه كَوْنٌ. أجد قدرتي الآن على العمل أكبر من أي وقت مضى، إذ لا أجد مشكلة في القعود في غرفتي طوال اليوم دون فعل شيء سوى الكتابة. إن لديّ حريّة الوَحْدَة، ولديّ بنحو ما الوضوح الذي يجيء كما أظن من عدم حاجتي إلى القلق بشأن الكُلِّيَّة...

ستسمعين مني في غضون أسبوعين أو نحوهما...

لقد حافظْتَ على وعدك وكتبت إليها في الثالث من تشرين الثاني، يعني بعد نحو أسبوعين، ولكن ليس من باريس كما توقعت، ولكن من نيويورك، حيث امتدت زيارتك «لأيام قليلة» إلى أكثر من ثلاث سنين. لقد عُدْتَ إلى مورننچسايد هايتس الكئيبة، عائشًا في الشارع المقابل لحَرَم الجامعة، الشارع الذي سيصير ميدان معركة الاعتصامات والتظاهرات والتدخلات الشرطية بحلول نهاية نَيْسَان، وعندما وقعت انتفاضات طلابية مشابهة في باريس بعد وقت قصير فقط، فهمتَ أنكَ أينما أمضيتَ السنة كنتَ لتجد نفسك في وسط عاصفة عنيفة. بعد خمسة شهور من ثورة كولومبيا التمردية، نشر فردريك وِلْكوكس دوبي مقالة مطوَّلة ومُفَصَّلة بعناية في *مجلة نيويورك للكتب* عن حوادث الانتفاضة، وهو أستاذ لغة إنكليزية رفيع القَدْر في الكُلِّيَّة (لم تدرس معه ألبتة، ولكنك عرفته بالنظر وبسُمْعَته). كان دوبي في سِنِّه الثالثة والستين آنذاك، وإنْ فضَّلتَ الاستشهاد بمقالته على الاستشهاد بواحد من التقارير الأخرى

الكثيرة التي كتبها معاصروك، فإنك لم تفعل هذا إلا لأنه لم يكن طالبًا بالتحديد، ولأنه لم يكن مشاركًا في الفوضى العارمة، ولذا أمكنه أن يراقب ما يجري ببعض الحكمة والهدوء المحايد، وفي الوقت نفسه سيصعب عليك أن تفكر في أي أحد آخر قدم تقريرًا أفضل عن الجو في حَرَم كولومبيا في الشهور التي سبقت الانفجار.

يكتب دوبي: «لقد كانت واحدة من فضائل كولومبيا أنها وفَّرت لمعلِّميها... وفرةً من الحرية الفكرية والاجتماعية ووفرةً من الطلاب الجيدين. صحيح أن انفصالي المعتاد عن سياسة الحَرَم حُلَّ عندما رأيتُ يأسَ الطلاب يزداد ويزداد تحت ضغوط **الحرب**. لقد كُتِب شَرُّ **الحرب** الكبير بحروف صغيرة في البُؤس الذي تأمَّلوا به ساعةً بعد ساعة قائمة خياراتهم التعيسة الصغيرة: ڤيتنام أو كندا... أو السجن! بالطبع كانوا مُنْفَعِلين، فانقطعوا عن صفوف المحاضرات حُشودًا ونظَّموا تظاهرات في الحَرَم. وقد ألحقت إدارة كولومبيا بكلّ هذا مزيدًا من التوتر، وبزيادة تقلُّبها في استخدام سلطتها ترجَّحت، بالنحو الأمريكي المألوف، بين البادرة المتسامحة والإجراءات الصارمة المُهَدِّدة.

لا يوجد حاضرًا إلا القليل من السلطة غير المُعَارَضة في أي مكان، وحتى في الڤاتيكان، بحيث إن هؤلاء الذين يظنون أنهم يحوزون سُلطةً يميلون إلى ‹القلق بشأنها قلقًا بالغًا›، وكثير من زملائي الأساتذة شاركوا الإدارة في ‹قلقها البالغ›. قال لي واحد منهم عن الطلاب المتمرِّدين: ‹كما الأمر مع الأطفال، يجيء وقتٌ ينبغي أن تقول لهم فيه لا›. ولكن الطلاب المتمردين لم يكونوا أطفالًا، وقد عَنَى القولُ لا تعريضهم لشيء يتجاوز كثيرًا ‹فَرْكَةَ الأُذُن›. لقد سببت الحرب ‹عنفًا أكبر› للجامعة بكثير من ما سبب الطلاب. ثم إن وضع كولومبيا بوجه الإجمال (وبخاصة الكلية التي أُدَرِّس فيها والتي فيها بدأت اضطرابات نَيْسَان الكبيرة) كان متكدِّرًا على طول السنة الدراسية، وبينما لم يتوقع أحدٌ ـ ولا حتى الطلاب الراديكاليون ـ انفجارًا مشابهًا للذي حدث فعلًا، فإنني لن أُفَاجَأ إنِ انتهتِ السنة بجائحة من الانهيارات العصبية».

هذا كان المكان الذي عدتَ إليه، مركز الانهيارات العصبية المحتملة هذا، ومهما كانت الصراعات الشخصية التي خضْتَها في تلك السنة، فإنه لا يمكن فصلها عن حِسّ الشُّؤم العام الذي طاف في الجوّ حولك...

تُورِد في الرسالة المكتوبة في الثالث من تشرين الثاني أنك عدتَ إلى الكلية، أُعِدْتَ طالبًا في كولومبيا، وأنك تكاد تنتقل إلى شقة جديدة (601 غربًا الشارع رقم 115) مع إيجار متواضع يبلغ ثمانين دولارًا في الشهر. كان الشخص الذي أقنعك بالتراجع عن خططك هو خالك آلن. قضيتَ بعد عودتك أيامًا عديدة في شقته في مانهاتن «مُتَحَدِّثَيْن عن أنواع الأشياء كافة»، وبخاصة الفوضى التي خلقتها لنفسك ولمستقبلك. تكتب في الرسالة حُسْنَ الحديث معه، وتمدح ذكاءه وتفهُّمه، وتعترف أنك كنتَ مخطئًا للانسحاب من الكلية ـ لا لأن الكلية مهمة بالنسبة إليك، بل بسبب الحرب ومعارضتك إياها، وهو ما كان سيقود إلى مشكلة كبيرة في ما يتعلق بالتجنيد العسكري الإلزامي. وبإعادة الدخول إلى كولومبيا، ستقدر على تأجيل هذه المعركة لثمانية عشر شهرًا أخرى.

«لقد عملتُ جدولًا من أربعة مقرَّرات دراسية: اثنان من الدراسات العليا، واثنان من البكالوريوس، ولا يوجد أسبوعيًّا إلا خمس محاضرات صفّيّة، وكلها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، وهذا ما يمنحني عطلة لأربع أيام. لقد تداركت فعلًا كل العمل المطلوب تقريبًا...».

السابع عشر من تشرين الثاني: كي أقول الحقيقة، إنني لا أمانع حقًّا أن أكون هنا. لقد اجْتَثَثْتُ جذوري كثيرًا... ولكنني حققت في السنين القليلة الماضية توازنًا مع بيئتي: اللا مبالاة، أو كي أقول ما أريد بشكل أفضل: الهدوء ـ فالأماكن كافة جيدة وسيئة، أما المهم فأن أشْرَعَ في مسألة الحياة، وأن أحقق واجباتي الداخلية التي تُحافظ على مُضِيِّ قُدُمًا. وفيما يتعلق بأمريكا، فالمكان عَدْوَى متقرِّحة، دُمَّلٌ من البلايا... من المثير جدًّا أن يكون المرء هنا.

أظل مستيقظًا حتى نحو الرابعة كل ليلة. ترجمتُ المزيد من دوپا (نحو عشرين قصيدة)، والآن مسرور كثيرًا، إذ سيعطي كل ما أترجمه لجيمس رايت ـ صديقنا ـ غدًا، وصديقنا هذا محرر مجلة *الستينيات*... أرجو أن أنتج في المستقبل القريب ترجماتٍ لشعراء آخرين عديدين. أجد هذا تمرينًا جيدًا. ثم إنني أراجع وأُطَوِّل السيناريو الخاص بي، كاتبًا تخطيطاتٍ أولية لأشياء أخرى، لأعمال خيال... والمزيد من الأفلام. وقد كنتُ على

اتصال بمنتج أفلام ـ صرتُ أعرف الآن أين أجد مصوِّرًا. يجب علي أن أعمل قريبًا على جَنْيِ المال، إلى جانب أنني سأذهب إلى الكلية بالطبع. لذا تَرَيْن أنني بالأحرى مشغول...

اقرئي قصائد لِپيير روڤردي (Pierre Reverdy)، وشاهدي فِلْمَيِ *الجوع*، و*تيرلس الشاب*...

الثالث والعشرون من تشرين الأول: بخصوص السيناريو. لقد حصلتُ توًّا على آلة كاتبة ـ إنها آلة ضخمة بإيجار ستة دولارات شهريًّا، ولم أبدأ بإعادة الكتابة بعدُ... كل ما أجريته هو مراجعة ذهنية، وإضافة. إن أكبر مهمة هي العمل الجسدي ـ الكتابة على الآلة ـ إذ توجد كثيرٌ من الصفحات، لذا لن أرسلها مباشرة في البريد مباشرة، بل سأجلب بالأحرى نسخة معي في عيد الميلاد المجيد... وسأجلب أيضًا ترجمات دوپا، وترجمات لشاعرين فرنسيين آخرين: جاكوتيه (Philippe Jaccottet) ودو بوشيه (du Bouchet). إنني أجهِّز كتابًا صغيرًا للشعراء الثلاثة للمقرر الفرنسي الذي سأدرسه ـ ترجمات (عددها نحو عشرين لكل شاعر)، ومقالة تقديمية عامة، ومقالة عن كل شاعر، وتعليقات. ما أشدّ أكاديمية ما أفعله! لكنه أفضل بكثير من كتابة بحث عادي. ولديّ رواية أكاد أبدؤها، وقد كتبتُ بعض القصائد أيضًا سأرسلها إليك في الرسالة التالية، فما زالت تحتاج إلى قليل من العمل.

أخبار سيئة: تلقَّيْتُ رسالة من المرأة المكسيكية. بينما كانت بعيدة عن باريس، سرق المخرج والمنتج نَصَّ الفلم مُعِيدَيْن كتابته كاملًا وجاعلانه فَجًّا وتجاريًّا، ووقعا عقدًا مع استديو پراماونت ودالي ليصنعا فلم مليون دولار. لقد استُبْعِدَت وعَزِلت، ولا حاجة إلى القول إنني استُبْعِدْتُ أيضًا. يا له من طَمَعٍ وغِشّ، فكلّ هذا جرى من وراء ظهرها. إنها تقول إن دالي غير مهتمّ إلا بالمال...لعلَّ الأمر بالنسبة إلي ذو نَفْعٍ في النهاية، إذ كذا أُترَك مستقلًا لأعمل على هواي، لكنني أشعر بالأسف عليها.

لا أريد أن أكون متحذلِقًا، ولكن جوابًا عن أسئلتك السابقة... اقرئي هذين الكتابين لماركس: *الإيديولوجيا الألمانية والمخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام 1844*. إنهما كتابان دقيقان ومُنوِّرَان جدًّا، وإيّاك أن تُفَوِّتي كتاب فانون *مُعَذَّبو الأرض* (*The Wretched of the Earth*).

إنكَ تتذكر كتابة النص السينمائي، أعني العمل الذي تشير إليه باسم *السيناريو*، وهو الذي كان بالأحرى طويلًا، قريبَ مئة الصفحة دون ترك سطور فارغة، ولم يكن نصَّ فِلمٍ حقًّا بقدر ما كان سَرْدًا بالزمن المضارع مملوءًا بتفاصيل دقيقة عن الأجواء وبأوصافٍ مُسْهِبَة للإيماءات والغلطات والتعابير الوَجْهِية، ولمّا كان الفلم مفترَضًا أن يكون صامتًا بالأبيض والأسود، أعني فلمًا دون حوار، فَلَمْ تَكُن فيه الفراغات التي يربطها المرء بالنّصّ العاديّ، وما زلتَ قادرًا في ذاكرتك على رؤية كيف بدت الصفحات: مكتظَّة بالكلمات، وتعجّ بالعلامات السود مع أجزاء قليلة فقط من البَيَاض تظهر خلسةً هنا وهناك، ما عنى أنه أطول ـ أطول بكثير ـ عمل مُكْتَمِل أنهيته آنذاك. كان عنوان الفِلم، إن لم تكن مخطئًا، ***Returns***، وهي كوميديا فلسفية خيالية عن مُسِنٍّ يتجوَّل في بيئة طبيعية غالبها غير مسكون يبحث عن منزل أيام صِبَاه ويواجه مغامرات مختلفة على طول تَجْوالاته. تتذكر اعتقادك أن الفلم كان جيدًا جدًّا، ولكن هذا لا يعني أن حكمك كان صائبًا، وحتى لو تمنَّيْتَ إنتاجه، فإنك لم تفكِّر فيه ألبتة كأكثر من عمل مبتدئ أو تجربة. إن ما يُدهشك الآن هو مدى وَهْمك عندما ظننتَ أنه بإمكانك الإشراف على الإنتاج وتنظيمه، ومدى جهلك بطرائق صنع الأفلام، ومدى سذاجتك السخيفة وتفاؤلك الغبيّ بخصوص الأمر كله. لم تكن تعرف شيئًا، لم تعرف شيئًا على الإطلاق، وما لم تُوهَب بثروة خاصة قليلة تُبَدِّدها على المشروع، كانت احتمالات إنتاج الفلم على يد وَلَدٍ ذي عشرين سنة تساوي صفرًا، صفرًا مطلقًا. على أي حال، بإكمالك النسخة النهائية كنتَ تفكِّر بالفعل في أشياء أخرى أردتَ كتابتها، وعندما لم تكن مشغولًا في هذه الأشياء، كنتَ مشغولًا بمُجَاراة واجبك في الكُلِّيَّة. ثم أعطيتَ المخطوطة بعد شهور إلى صديق قال إنه يودّ قراءتها، فَفُقِدَت. كانت آلات زيرُكس (Xerox) الناسخة جديدة آنذاك، ولم تكن قادرًا على تحمُّل تكلفة إنتاج نُسَخ، وإلى هذا كانت المخطوطة التي اختفَت النسخة الوحيدة الموجودة، وذلك أنك أهملتَ استخدام ورق كربونيّ عندما كتبتَ النسخة النهائية. جعلكَ هذا تعيسًا بالطبع، ولكن لم تشعر بتعاسة تخلو من الأمل، فلم تُسحَق ولم تَقْنط، ولم يمرّ إلا وقت قليل حتى توقفت عن التفكير في الأمر، وسيمرّ ما يقرب من خمس وعشرين سنة قبل أن تخطو بأطراف أصابعك مجددًا إلى عالم الأفلام.

الثالث من كانون الأول: أعيش وحيدًا وبالكاد أخرج من البيت. تمرّ الأيام دون أن أتحدث، وعندما أُجبَر على الحديث يبدو صوتي لي غريبًا، يُخَشْخِشُ كآلة. أذهب إلى المحاضرات خمس مرات في الأسبوع فقط: أقعد، وأستمع، وأغادر. أما العُطَل التي تستمرّ أربعة أيام فهي الأشدّ وَحْدَةً. ومن ثم عندما أخرج يكون هذا بعد منتصف الليل فقط، كي أسكر أو أشتري بعض المشتريات.

أعمل بِجِدٍّ شديد، مُطَوَّقًا باحتِجَابِك... إن الرواية عملٌ قاهِر... أما الشِّعر فيكاد يكون ترويحًا. الأفلام تستحوذ على الوقت، وواجب الكُلِّيَّة شيء يجب أن يُنتَهى منه.

لا أعرف ما الذي يقودني... إن عقلي أرْهَف، ولكنه أكثر تشوُّشًا. غالبًا ما أشعر بأنني أكاد أموت. استمعتُ الليلة الماضية إلى السمفونية الثالثة لبيتهوڤن لأول مرة منذ نحو سنتين. اهتزَّ جسدي، وارتَعَشْت، ومن ثم... بَكَيْت. لم أستطع فهم الأمر. كنتُ كما لو سقطتُ في الخواء.

إنها حياةٌ أَنَاوَحْدية،[1] حياةُ بلا أصحاب، وبلا جسد...

لاحقًا:

لقد حدث شيء لطيف اليوم. لقد أعطيتُ آلن قبل نحو أسبوع نسخةً من القصائد التي أرسلتها إليك، ومن ثَمّ نسيتُ أمْرَها، إذ كنتُ أفعل أشياء أخرى. يبدو أن آلن وضع القصائد في جيبه ونَسِيَها أيضًا، فاتصل اليوم وأخبرني أنه اختبَر رَدَّ فعلٍ متأخرًا ليلة أمس عندما وجدها في جيبه، أخبرني أنه أُعجِبَ بها كثيرًا، وأنه كاد يتصل بي في الثانية صباحًا من ليلة أمس ليخبرني. كنتُ بالأحرى مُشَكِّكًا، إذ لا أعتقد أن القصائد جيدة كثيرًا... لكنه قال: لا، لا، إنها جيدة حقًّا واستمرّ بالحديث عن التفاصيل، وقال إن عليّ إرسالها إلى مجلة *الشِّعر*، إذ تستحقّ القصائد أن تُنْشَر. مع أنني لا أعرف إنْ كنتُ سأفعل هذا، فإنني شعرتُ بالإطراء من تعليقاته، قال إنني أُحْرِزُ تقدُّمًا. من الجيد الحصول على دعم قليل كهذا، وبخاصة من آلن.

الخامس من تشرين الثاني: يبدو أن القَدَر يجري ضِدَّنا. من الصعب قول هذا،

(1) المقابل المعتاد لـsolipsistic. [المترجم]

إذ أتمنى لو كنتُ قادرًا على قوله، فلقد ثَملت قليلًا حتى يصير في وسعي مواجهة الصفحة. ببساطة، لن أقدر على المجيء في عيد الميلاد المجيد، ولهذا ثلاثة أسباب كلها تضغط عليّ معًا حتى تخنقني: مسؤوليات، ودُيُون، ونزاعات. إن والدي الذي ما زال يتحكم بحسابي البنكي حتى أصير في سنّ العشرين، وهذا اتفاق غبيّ رضيت به قبل سنين، لن يخفّف قبضته (أي أموالي!) بسبب الطيش الذي أتصف به كما يدَّعي. ويَدَّعي نورمَن أنه يريدك لتُطْلِقَ حملته الإشهارية ـ وما زالت أمرًا مبهمًا ـ إذ يجب إطلاقها قريبًا أو لن تُطْلَق بالمرة.[1] وتحتاج جدّتي التي تذوي بسُرعة، ومشاهدة هذا أمر فظيع، إلى العائلة لتكون من حولها، وكل شخص يؤدي ما عليه بقضاء وقت معها ـ وهذه مِحنة شاقَّة... ولمّا أخفق الفلم، فإن مُبَرّري للذهاب تلاشى، إذ إن أمور العاطفة بالنسبة إليهم أمر تافه وعابث بالضرورة. إنني عالق ـ لم أستقلّ بعد.

أنا آسف، أنا آسف ـ لقد اعتمدت على أمر الفلم كثيرًا ـ ولم أعش من أجل أي شيء آخر. أقعد وأنظر إلى صورتك وأحاول تذكُّر صوتك...

الثامن عشر من تشرين الثاني: تقولين إنك تريدين معرفة تفاصيل حياتي. سأحاول إخبارك...

عليّ أربعة مقررات: «الحكومة سي. سي.»،[2] وهذا ندرس فيه أشخاصًا كماركس ولينين وسوريل... نأخذه في يومي الاثنين والأربعاء من الساعة الحادية عشرة إلى الثانية عشرة وربع، وبالكاد أذهب إليه ـ المحاضرة مملة، لكن القراءة المقرَّرة جيِّدة. ثم ثانيًا في يوم الثلاثاء، من الثالثة إلى الخامسة، لديّ جلسة نقاشية (سمنار) يُدعى «الإنسانيات الشرقية»، ومجددًا القراءة المقررة جيدة ـ فلسفة شرق أوسطية وهندية، والدين والشعر ـ لكن المحاضرة مملة بقدر تعجز الكلمات عن وصفه، وللمحاضرة أستاذان لكنهما مغفَّلان، مع هذا فإن القراءة المقررة شيء لعلّي لم أكن لأفعله وحدي. يوم الأربعاء أفضل، إذ لديّ إلى جانب مُقَرَّر المدنية المعاصرة مُقَرَّران آخران في كلية الدراسات

(1) إنه زوج أمّك نورمَن شِف Norman Schiff، وهو محامي قضايا عمّالية وديمقراطي ليبرالي مُخْلِص، كان حينها يفكر في الترشُّح لمجلس الشيوخ، ولكنه تخلي عن الفكرة بعد هذا بوقت قصير. [المؤلف]

(2) المَدَنِيّة المعاصرة (Contemporary Civilization)، مُقَرَّر مطلوب للتخرُّج. [المؤلف]

العليا: الأول من الثانية إلى الرابعة تاريخ الفن ـ «الرسم المجرَّد» مع ماير شاپيرو (Meyer Schapiro)... إن كلامه واضح بنحو مدهش، وهو ذكيّ، وذو فكاهة، وواسع الاطلاع، والمحاضرة كبيرة (فيها نحو مئتي إلى مئتين وخمسين شخصًا)، وأنا لا أفعل شيئًا إلا القعود في الخلف لساعتين والاستماع إليه يتحدث ـ إنها متعة حقيقية. ومن ثم لديّ من الرابعة إلى السادسة مُقَرَّر الدراسات العليا الآخر، وهو عن الشعر الفرنسي في القرن العشرين. القراءة المقرَّرة بديعة ـ ولكن المحاضرة بالأحرى مُضجرة للأسف. مع هذا كنتُ أعمل بِجِدّ، فلقد أتممت بحثًا من خمس وعشرين ورقة عن قصيدة من خمسة عشر سطرًا لِبِكِت. لقد كان نافعًا النظر في شيء واحد فقط بمثل هذه العناية... ثم إنني أُنجِزَ بعض الترجمات كما أخبرتك من قبل لدوپا، ودو بوشيه، وبونفوا (Bonnefoy)، وجاكوتيه، وهم أربعة شعراء معاصرون. سأنتهي في وقت ما في أثناء العطلة التي تبدأ الأسبوع المقبل... كان بونفوا هنا قبل نحو شهر ونصف وألقى خطابًا بالفرنسية في البيت الفرنسي في كولومبيا عن بودلير ومَلَارميه، إنه رجل بمظهر يختلف عن ما تتوقعه ـ قزم ومقطّب الملامح ـ ولكنه شاعر عظيم وناقد فني مُجِيد... لقد كنتُ مبهورًا.

سيكون الفصل الثاني أفضل بكثير... من حيث الأساتذة وجودة المُقَرَّرات. لقد قبل أيام قليلة صديقي القديم إدورد تايلر لأسأل إن كان بإمكاني حضور سمنار للدراسات العليا المتقدمة معه («القصيدة الإنگليزية الغنائية»، الأعوام 1500 إلى 1650)، فقال: بالطبع، بالطبع، سيسرّني حضورك... تحدّثنا حديثًا ممتعًا جدًّا في حدود مكتبه لنحو نصف ساعة... يوجد مقرَّر آخر للدراسات العليا عن الإستطيقا والفلسفة يبشّر بأنه سيكون جيدًا، وآخر بالفرنسية عن افلوبير تقدمه إينِد استاركي (Enid Starkie)، السيدة الإنگليزية المُسِنَّة الرَّفيعة التي كانت في إجازة من كمبرج. ومن ثم في دراسات البكالوريوس: أدب القرون الوسطى الفرنسي، ومُقَرَّر عن الموسيقا المعاصرة من بِيزِن،[1] وهذا مقرَّر أرغب كثيرًا في أخذه. وأخيرًا النادي الرياضي. سيبقيني كل هذا مشغولًا، ولكنني لا أمانعه، فالغريب أنني أستمتع بالدراسة، وبخاصة الأشياء القديمة ـ العصور الوسطى والنهضة...

(1) لعله جاك بيزن Jack Beeson، كان أستاذًا فخريًّا للموسيقا في كولومبيا. [المترجم]

أكاد أكون وحيدًا دائمًا. أبقى في شقّتي لوقت طويل، وفيها ثلاث غرف: غرفة نوم صغيرة وحمام في الخلف... ويليه المطبخ. أحضّر القهوة والخبز المحمَّص (التُّسْت) ومن ثم أذهب إلى غرفة المعيشة الكبيرة ومكتبي، إلى العمل. أذهب أحيانًا في الليل المتأخر إلى الطرف الغربي[1] للحصول على جعّة چينِس (Guinness). أرى أحيانًا «إل .L» الذي أستمتع بصحبته، ومن آنٍ إلى آخر أرى الفتاة وزميلتها في السكن... وهما طالبتان سابقتان لآلن، إنهما يطعمانني أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى نتكلم فقط.

وقد عَرَفتُ من خلال آلن... روبي كُون (Ruby Cohn) الذي كتبَ كتابًا عن بِكِت وهو صديق جيد له، لقد تقابلنا في صباح أحد الأيام، قبل نحو أسبوعين، وتحدَّثنا حديثًا حُلْوًا لنحو ثلاث ساعات...

لقد كان آلن لطيفًا معي بثبات... ومُعِينًا: يقرأ ما تُرَادُ قراءته، ويساعدني في نشر الترجمات، ويشجّعني في إرسال أشياء أخرى. قد أقدر على جَنْيِ بعض المال بترجمة مسرحيات لكتاب عن الدراما الأوروبية الطليعية، ويُخَطِّط لنشر هذا الكتاب صديقٌ لآلن ـ إنه يرشِّحني له ويمدحني...

وكي أكون أكثر جدِّية... فإنني أعيش في كتابتي ـ إنه تستهلك أفكاري. لديّ تصوُّرات وخطط كثيرة تجري معًا ـ أفكِّر فيها كافة في أوقات فراغي، مُشَذِّبًا ومُراجِعًا إيَّاها، في حين أركّز على الشيء المعَيَّن الذي أعمل عليه في هذه اللحظة...

على الرغم من كل تشوُّشي الداخلي، ووَحْدَتي، فإنني استطعت في أثناء هذا اكتساب... ثقة بالكتابة، وثقة بقدرتي، فهذا وحده ما يمنحني الدوام الآن. إنني راهِبٌ مُخْلِص ـ بَتُولٌ وما إلى ذلك.

إن جدَّتي تنتكس بسرعة. لقد أُصِيبَت بالتهاب القصبات وهي الآن في المستشفى. بقيتُ أنا وأمي يوم الجمعة، لمّا لم نقدر على استئجار مُمَرِّضة ليلية لمهلة قصيرة، طَوَال الليل إلى جانب سريرها. لم تقدر جدتي على النوم حتى لدقيقة، فقد كانت معاناتها لا تنتهي، مستمرة دائمًا. إنها واهِنة تمامًا يا ليديا، وعاجزة عن الحركة بالكُلِّية،

(1) المعلوم أن الطرف الغربي West End منطقة في لندن. [المترجم]

وعمودها الفقري كالهُلَام (الجِلِي) ـ لا تقدر إلا على العويل والبكاء. لقد كانت ليلة فظيعة، أسوأ ليلة قضيتها قطّ ـ أن يكون عليك القعود عاجزًا بجانب عَجْزٍ كهذا، معاناةٍ كهذه. لقد كان الموت وشيكًا جدًّا. ومن النافذة، بطيئة وصامتة... تَحَرَّكَتِ القوارب على طول النهر الشرقي المظلم. لم أبدأ إلا الآن بالتعافي من الأرق والقنوط في تلك الليلة. بدأ التهاب القصبات لحسن الحظّ بالاختفاء، ولكن لم يظلّ لها كثير من الشهور لتعيشها. عندما غادرتُ المستشفى في ضوء النهار المبكر الرمادي، شعرتُ بفَرَحٍ مريرٍ جدًّا لكوني بين الأحياء...

سأذهب إلى حفلة قريبًا في ليلة رأس السنة، إنها ـ أتلعثم ـ حفلة ينظِّمها آلن. ستكون أول حفلة أذهب إليها منذ فترة طويلة. ما أغرب ما سيكونه شعور أن أكون في حَشْدٍ مجددًا. آمل أنني... لن أنزوي وأسكر، فهذا سلوكي المعتاد في مثل هذه التجمُّعات. لعل الحفلة ستكون من الاكتظاظ بحيث سأعجز عن الوصول إلى أي زاوية.

إن من ألطف الأشياء التي اختبرتها منذ عودتي هي صداقتي المستمرة مع پيتر ـ عبر البريد الإلكتروني ـ فرسائله تُدْفِئ قلبي بحقّ. إنني لا أستحقّ صديقًا صالحًا كهذا. لقد تكلَّف كل الوقت، مع لطافة وتضحية بالغتين، ليجمع كل أغراضي ويرسلها إلي. إن هذا عمل شاقّ حقًّا أنجزه پيتر بفُكاهة كبيرة. إن الأغراض الآن في المطار وستُوصَل غدًا. سيكون حصولي على آلتي الكاتبة ومُذَكِّراتي وكُتبي أمرًا لطيفًا... ثم إنني سأتمكن أخيرًا من تغيير سروالي.

الحادي عشر من كانون الثاني، 1968: لقد ماتت جدَّتي، وكانت الجنازة أمس. على الرغم من حقيقة أن الأمر كان متوقَّعًا، فإنني ما زلتُ... مهزوزًا. كانت الجنازة نفسها مزعجة ـ لقد تعامل معها جدّي بنحو سيئ وبَكَى كثيرًا... أحزنني هذا كله. مع هذا فلا شك أنه من الأفضل خُلُوصها من عناء العذاب البَشِع الذي كَانَهُ مَرَضُها.(1) ومن حسن الحظ أنها ماتت بهدوء في نومها ـ كان مَخُوفًا أنها ستموت اختناقًا...

لقد تَمَّت كتابة الترجمات على الآلة الكاتبة (مئة وستون صفحة). عملتُ نسخة واحدة بتكلفة كبيرة، وقد أكون قادرًا على عمل نسخة أخرى مجّانًا، فإن استطعت

(1) التصلب الجانبي الضموري. [المؤلف]

سأرسلها إليك مباشرة، وإن لم أستطع سيكون علينا الانتظار حتى الشهر التالي عندما تتوفر لي نقود أكثر...

إن أَرَدْتِ أن تضحكي ضحكًا جيدًا وعميقًا حقًّا، فعليكِ قراءة *سِبَاحة طائرين*(1) لافلان أوبرَيْن (Flann O'Brien). أرَشِّحُها جدًّا.

الثاني عشر من شباط: مرّ شهر كامل دون أي كلمة منكِ... اتصلتُ بأُمِّك حتى أرى إن كان حصل شيءٌ لك، فقالت إن عنوانك الجديد «London *W*. 6». كان العنوان الذي أعطيتني إياه «*N*. 6». لعل هذا سَبَّب التباسًا في غُرَف البريد.

ليس لدي الكثير لأقوله سوى أن عيد ميلادي الحادي والعشرين مَرَّ ومَضَى دون كثير ضَجَّة... لم أشعر من قبل قطّ أنني غير مرغوب ولا يُحتَاج إليّ إلى هذه الدرجة. إنني أعيش في خواء، فليس لديّ شأن مع أي أحد، وهذا ما يؤلمني. ليس يمكنني فعل شيء سوى مشاهدة الآخرين، إنني في حاجة إلى أحدٍ ما.

الثاني من آذار: رسالتك الأخيرة... أقول لك مجددًا لا تقلقي بشأني، إذ إنني حقًّا على ما يُرَام. لا تحملي أي شكوك تُجَاه نفسك في علاقتك بي. دعينا لا نُثِر أسئلة عن مشكلات يعلم كلانا أنه لا يمكن الإجابة عنها الآن. ببساطة، حاولي العيش بأفضل ما تستطيعين، الآن، مع أي شيء تتكون حياتك منه. أعتقد أن الإنسان يقترب أكثر ما يقترب من الشعور بالأبدية عندما يعيش في الحاضر...

أرتجف أحيانًا عندما أدرك أنني لستُ أهلًا كي يحبّني أي أحد، وأنه ما من شيء يبدو صالحًا في العالم، وهذا كما أخمِّن بسبب مثالية متأصِّلة فِيَّ، وأن وَحْدتي إنما هي رغبة مازوخية...

كل ما أراه حولي هو... التفاهة، والغباء، والنِّفاق... لذا أرى نفسي تزداد في قِلَّة احتمالها أو تسامحها ـ ولذا حتى لا أسيء إلى أي أحد، أنسحب من المجتمع. إنني أُبْغِضُ نفسي لما أراه منها من ما أشعر أنه انعدام صَبْرٍ مع الآخرين، ومع هذا لا يمكنني فعل شيء بشأن هذا...

(1) العنوان الأصلي At – Swim – Two – Birds. ترجمة العنوان بالعربية ليست حرفية، ولا هي دقيقة، لكننا أثبتنا العنوان كما يشيع، فنقله النقل الصائب المقصود يكاد يستحيل. [المترجم]

ومع هذا أَتُوقُ في الوقت نفسه إلى أن أُحِبَّ وأُحَبَّ، ولكن معرفة أن هذا مستحيل... أظن أنني فَرَرْتُ من ما هو حقيقي بنحوٍ عميق ما. إنني... أقضي معظم وقتي إما منخرطًا أو مفكِّرًا في كتابتي. لقد صرتُ شخصياتٍ ومواقفَ وكلمات ـ منتقلًا إلى عالم مُبهَمٍ من التحوُّل... ألوان، أصوات ـ خاوية من الكلمات والمعنى.

لكنني سأُوَاجَهُ قريبًا بقرار كبير ـ التجنيد العسكري الإجباري... إنْ ظَلَّت الأشياء على حالها... لربما سأذهب إلى كندا. أتوقَّع الكثير من الوَحْدة لنفسي ـ وَحدة أسوأ من أي شيء عرفته قبلًا.

يوجد فيَّ خجلٌ فظيع يجعل حتى أبسط المواقع الاجتماعية صعبة ـ تردُّد في الحديث، وعيٌ ذاتي يُضاعِفُ من وحدتي.

أقول هذه الأشياء عن نفسي حتى تعريفها ـ إذ بدا أنك تريدين معرفتها. لكن لعلك تعرفين هذا كله فعلًا. ـ لا علاج لتَفَكُّري المُوحِش وسَوْداوِيَّتي... مع هذا أشعر بنفسي قويًّا في دخيلتي ـ أنني لن أُكْسَر ألبتة مهما ساءت الأمور، لكن هذا أكثر ما يُخيفني...

لديّ عمل عليّ فيه ترجمة سلسلة من المقالات التي ستمنحني مالًا أعيش عليه على طول الصيف... عليّ التفكير في مكان جيد أبدأ منه...

الرابع عشر من آذار: أظنُّكِ تُبالِغين في تقدير مِثَالِيَّتي. إنني في حقيقتي أشعر كما تشعرين ـ وما الاختلافات إلا نتيجة الظروف أكثر من أي شيء آخر. من الصعب أن يريد المرء حمل العالم في داخله، هنا، في نيويورك، أمريكا، في حين ينادي الجميع بالكراهية، وعندما تستمر الحرب بالتصاعد بسرعة جنونية، وعندما يكون البديلان الفرديان الوحيدان للمستقبل السجن أو النفي. إنه الجنون الفظيع المحيط بي (أؤكِّد لك إنه خَبَل حقيقي) ـ وبالضرورة في *داخلي* أيضًا ـ الذي يجعلني قانطًا. مع هذا لا أتوقف عن التفكير في الناس كأفراد، فهذا ما لم أفعله ولن أفعله أبدًا. إنني لا أصدق بالتجريدات، فهي قاتلة ومشوِّهة للعقل...

إني حياتي مشوّشة، ففيّ بغض تجاه الكُلّية، وتقزز من الكتب. إن عقلي مبعثر، إنني في حاجة إلى هواء صافٍ، إلى مساحة أفرِّغ فيها عقلي. تهتُّكٌ وانغماس في الشرب،

وكانت إحدى الليالي من السوء بحيث نمتُ مسْتَفرِغًا. لقد همستُ للإله، وصرختُ وصِحْتُ عليه. لِمَ يرفض إظهار نفسه؟ هراء ثَمِل. أصير فَكِهًا كثيرًا أحيانًا، ستحبِّين هذا. الحدّ بين المأساة والملهاة. مرض حتى الموت. الكتابة متعثّرة. مع هذا ما زلتُ واثقًا بنفسي. تجري الأمور جيدًا عمومًا. ـ أجد مؤخَّرًا متعة في الوجوه. نساء مُسِنَّات يمخطن أنوفهنّ. أراقب الرجال المُسِنِّين. رأيتُ اليوم جَرْوًا كان من النعومة بحيث أردت تملُّكه لنفسي. ـ آلات قهوة معدنية يخرج البخار منها. بُصاق يملأ الأرصفة. ظُلمة الشوارع في الليل. ظُلمة الأحلام. أصوات تذوب في الحشود. عباراتٌ تختلط من أفواه مختلفة فتصير سخافات لا رابط بينها. الوجوه في قاعة المحاضرة. كلمة من الراديو. مكتبي المبعثر. قرفي من نفسي لتغيُّبي عن المحاضرات على طول أسبوعين متتابعين، والسخريّة في أنني مع هذا نجحتُ في إحراز اسمٍ في قائمة العميد لأفضل الطلاب. الرغبة القوية في التوقف عن القراءة، في التوقف عن الاستماع والبدء بالحديث... وأُرْبَط بالصمت مجدّدًا عند الموت فقط.

التاسع والعشرون من آذار: لدي ثقة تامة بكِ على الرغم من التقلبات الطفيفة... ستبزُغِين قويةً وكاملة. أما في ما يتعلق بي... أواجه صعوبة هائلة في تخيُّل أي نوع من المستقبل لنفسي، في تخيُّل أي شيء على الإطلاق. لقد صارت المشكلات السياسية من الاستبداد بحيث استحالت أفكار كهذه عن المستقبل. إن واجهني التجنيد العسكري الإلزامي في الصيف المقبل، سيكون قراري الذهاب إلى السجن ـ لا إلى كندا. لا يمكنني تقديم أي تفسير معقول ـ لا شيء غير أن هذا هو الفعل الأكثر احتقارًا. لذا فإنني مجبَرٌ بطريقة غريبة على التفكير مباشرةً في شيء يتطلب كثيرًا من الوقت...

لقد صعب علي الالتزام بالمهمات التي عليّ. لقد جعلت واجباتي الدراسية تفوتني بشكل فادِح ـ ستجيء قريبًا وتحطِّم رأسي. إنني أتمشى في اضطراب صامت، وأشاهد حوادث الشارع، وأقرأ كتبًا لا دخل لها بالكُلِّية، وأفكر في كتابتي بإسراف، ولكنني لم أنجز منها إلا القليل مؤخَّرًا. يبدو كل شيء زيفًا دونك ـ كل شيء سجنًا أتخبَّط فيه حتى عودتكِ. ليس القنوط الكلمة المقصودة، بل إحساس بأنني لستُ حيًّا.

بدأت انتفاضة كولومبيا بعد كتابة هذه الرسالة بثلاثة أسابيع، وتبيَّن أنها لقاحٌ فعّال

ضد جائحة الانهيارات العصبية التي كانت تهدِّد بأن تسود على الحَرَم الجامعي في ذاك الصيف ـ بما فيها انهيارك العصبي. بقراءة الرسائل التي كتبتها في الشهور التي قادت إلى ذاك اليوم (الثالث والعشرون من نَيْسَان)، تُشْدَه بعُمْقِ تعاستك، وبمدى قُربك من ما بدا تفسُّخًا مطلقًا، ففي السنين التي تلت هذا الحدث غَشَّتِ الذاكرةُ تفاصيل ذاك الوقت، وتمكَّنت بطريقة ما من تلطيف الألم، ومن تحويل أزمة داخلية شعواء إلى ضربٍ من التوعُّك المُضْجِر الذي تجاوزته في النهاية. نعم، لقد مرت الأزمة، ولكن لم يحدث هذا إلا لأنك غيَّرتَ رأيك فجأة ودعمتَ الطلاب المنتفضين، فكانت هذه أول وآخر مرة تشارك فيها في نشاط مُدَبَّر جماعيًا، وبدا أن تأثير الانضمام إلى الآخرين قد أوقف فترة التعاسة التي جرفتك، فأيقظك ومنحك حِسًّا جديدًا وأشدّ عزمًا بهُوِيَّتك. في الرابع من أيَّار، في أول رسالة كتبتها بعد اقتحام شرطة نيويورك الحَرَم الجامعي في ليلة الثلاثين من نَيْسان، محطِّمةً الطلاب بالهراوات ومعتقلة سبعمئة منهم، تُخبِر في هذه الرسالة: «... اقتحمت الشرطة مبنًى، لقد ضربني الشرطيون، لقد اعتُقِلْت»، ومن ثم تردف بعد خمس فقرات: «... الأحرى أنه من الصعب التخطيط للصيف الآن، إذ عليّ الحضور في المحكمة في السابع من حَزِيران، ولا أدري كم ستطول الأمور، بل من الممكن حتى أن أنتهي إلى السجن ـ مع أنني أشك في هذا». وفي الرسالة التي كانت بطول ثلاث صفحات في الرابع عشر من أيَّار، حَذَّرتَ ليديا من الابتعاد عن الصحافة، شارحًا لها أن منشورات مثل *تايم* و*نيوزويك* و*نيويورك تايمز* قد شوَّهت الحقائق ولا يمكن الوثوق بها، وأن المصدر الوحيد الموثوق للمعلومات هو صحيفة الطلاب، *Columbia Daily Spectator*، التي توشك أن تجمع كتابًا من جميع مقالاتها على طول الشهر الماضي، وسترسل إلى ليديا نسخةً حالما يتوفر. ومن ثم تنتقل إلى مناقشة الأساليب التي وظفها الطلاب في أثناء الاعتصامات، قائلًا إن نشاط الشرطة كان خطوة ضرورية في جلب الأغلبية إلى جانب الطلاب، وإن جميع من كان في المباني عَرَف ما كان سيجري، وإنهم أرادوا بما فعلوه أن تجيء الشرطة وتتصرف تمامًا كما تصرفت، فما كان يمكن لشيء أن يقود إلى اعتصام جامعي كامل كالجاري الآن إلا مشهد عُنف الشرطة. تقول في الفقرة التالية إنك كنتَ مفاجَأً بنحو مسرور كثيرًا بسبب «سلوك الناس المُلْتَزِم في المباني المُقْتَحَمة. لم تَثُر ثائرة أحد، ولم

يزعج أحدٌ الآخر أو يُغضبه. شُغِل الجميع في العمل بعضهم لبعض طوال أسبوع... أما بالنسبة إليّ أنا الشكّاك كثيرًا في أمور كهذه، كان عليّ أن أشكّل جزءًا من ما يجري حتى أتعلم أنه ممكن، حتى ولو لوقت محدود». ثم تعتذر بعد عشرة أيام أنك لم تكتب مجددًا بعد وقت قصير من المرة الماضية. «لقد ظلت الأمور فوضوية وعنيفة ـ جرت مواجهة أخرى مع الشرطة قبل ليلتين، ولكنك لربما قرأتِ عنها». ثم بعد فقرتين تُخبِر عن رغبتك الشديدة في الذهاب إلى لندن: «ولكن حتى السابع من حَزِيران، وهو اليوم الذي أحضر فيه في المحكمة للحصول على تاريخ محاكمتي، فإنني... عاجز عن إنشاء أي خطط. حالما أعلم ما سيجري لي، سأعطيك كل المعلومات».

تبدأ نبرة رسائلك تتغير بعد هذا. فالشخص الكئيب والمستغرق في ذاته والناقم الذي كان في الشهور القليلة الماضية يتلاشى فجأة، ويحل محله آخر، يبدأ شخص مختلف تمامًا بالكتابة إلى لندن. إنه تحول عجيب، فظروف حياتك الخارجية لم تتغير: كانت الحرب هي الحرب نفسها، وخطر التجنيد العسكري الإلزامي الوشيك هو الخطر نفسه، والكفاح لإيجاد طريقك هو الكفاح نفسه ـ ومع هذا حُرِّر شيء في داخلك، وبدلًا من النواح بسبب فساد العالم، صرتَ شَكِسًا وصاحب دعابة (تُظهِر هذا الرسالة المشاغِبة في العشرين من حَزِيران)، وأكثر استئناسًا بنفسك بأشواط، كما لو أن حوادث نَيْسَان وآذار منحتك صدمة كهربائية وأعادتك إلى الحياة.

الحادي عشر من حَزِيران: كنتُ أكتب قَلِقًا منتظرًا أن أسمع منك، ولكن لمّا لم يصل شيءٌ بعد كل هذه الأسابيع، فكرتُ أنني سأستغل هذه الفرصة الذهبية (الطقس حارٌّ بنحو لا يُحتَمَل) لأكتب إليك. عليّ أن أجعل ملاحظاتي موجزة وفي صميم الموضوع:(1)

1. إنني مشتاقٌ إليكِ كثيرًا، وأفكِّر فيكِ طوال الوقت. آمل أنه باستطاعتنا رؤية بعضنا بعضًا قريبًا.

(1) في النقاط والفقرات التالية كثيرٌ من الكلام الذي يستحق أن يُدعى «هراءً» كوصف له (إذ يحاول المؤلف وهو ما زال يجرّ أذيال المراهقة في بداية عشرينياته إبداء حِسّ فكاهة جديد لليديا)، لكننا نقلناه كما هو في كتاب أوستر، فلا يُستَغرَب ما يرد فيه ألبتة. [المترجم]

2. إنني أتساءل ما الذي كنتِ تفعلينه. أتعملين أم إنك في عطلة؟ أأنت في لندن أم في مكان آخر؟

3. عليّ العودة إلى المحكمة في السابع عشر من تَمُّوز، وبعد هذا لربما لن يكون عليّ العودة إليها حتى أيلول. آمل وأدعو أنني... سأتمكن من مغادرة نيويورك.

4. إنني بخير، وقد بدأت بالكتابة جيدًا... إن عقلي مسترخٍ.

5. أقرأ أقل بكثير من ما اعتَدْتُ، لذا صرتُ أذكى وأملك حِسَّ دعابةٍ أفضل...

6. لستُ قلقًا بشأن مصيري.

7. أسمعتِ شيئًا من پيتر و/ أو سو؟

8. أخبريني كيف تشعرين، وما كنتِ تفعلينه.

9. إنْ جَرَى كلّ شيء على ما يرام، سأكون في لندن في آب.

10. اكتبي لي قصيدة، وارقصي رقصة الپولونيز.

11. ضربة من المنشار تقطع خشبًا صلدًا. إنه تشرين الأول. تتناثر النافذة في عَجَلة.

12. دعيني أفعلها. إنه المساء. يتجمع الموسيقيون حول السمفونية وهم يشربون الحليب.

13. لقد ذابت اللوحة. بقي ثلاثة أسابيع للربيع. ترقص المزرعة في المَرفَأ.

14. جِدِي كتابًا جيدًا واقرئيه تحت الماء. حُكِم على سقراط بالموت لأقلّ من هذا بكثير. إن المِكْنَسة في أحلامي جُثّة.

15. بإمكان الجميع الجَمْعُ والطرح. إن العشب أشدّ حُمرةً في الظل. لستُ متفاجئًا.

16. لمَ حوضُ الاستحمام كبيرٌ جدًّا؟ يشربُ بعض الناس ببسي ـ كولا، ويشرب بعضهم الآخر كوكاكولا. يغنّي الجندي في الدبابة أغنية لشوبرت.

17. عندما نلبس أحذية رياضية مطاطية نظنّ أنفسنا غالبًا عِصِيَّ قفزٍ (pogo – sticks). سيحلّ المساء قريبًا، ومن ثمّ سيمخط الأعمى أنفه باستخدام ورقة الدولار.

18. لقد فَرّ السياسيون من الدولة. إنه الصباح، ولكن الجوّ ما زال مظلمًا. نرى في وسط يأسنا كلماتٍ مكتوبة رأسًا على عقب، تتدلّى من فَكَّيْ بَجَعٍ.

19. أرجوكِ جِدِي الرسمة المُرْفَقة.

20. أرجوكِ اقبلي حَامِلَ حُبِّي.

العشرون من حَزِيران: فَتَاتي المَدَام.[1]

نُبْدِي أحيانًا عندما نكون مستعبَدِين رغبةً في وضع العالم في جيبنا. نمشي رائحين جائين في الشارع مع رفيقنا، سيِّد المزامير. فتَحَ مرَّةً علبةَ فولٍ عندما قعد على آلتنا الكاتبة مانعًا إيَّانا من مواصلة كَدْحِنا اليومي، ثم قال: «يا لي من رجل حكيم!». أما امرأته راقصة الباليه العمياء، جِرْسي سِتِي (Jersey City)، فقد ضربت يومًا إصبع قدمها بدبابة (كان داخلها جندي يلعب «أَجِنَّة مجفَّفة»)[2] وأُصيبَت بعدوى الزُّهري. على الناس الآن الذهاب إلى السّينَما بمروحيّة. مع هذا فباقتطاع الأوقات التي يُعلن فيها الراديو خسوفًا للقمر، لا يبدو أن هذا يزعج أحدًا. أما بالنسبة إلي فإنني أُعَزِّي نفسي بإخراج بطانة جَيْبَيّ وبملء جَوْرَبَيّ بالنقود.

يُخَيِّم خط الاستواء على ظهر الكرسي، وعَرَج، وشُومَة مُصَوَّحة.[3] يدخل رجل البريد، ورجل البريد هذا بَدِينٌ يحمل كلبًا ميتًا في أسفل حقيبته، ويقول: «منذ صرتُ بدينًا بدأتُ أُلَوِّحُ بسلسلة مفاتيحي التي تبلغ طولَ قَدَمَيْن بحركة قوسِيَّة دائمة التوسُّع. قريبًا سأُمسِك الكرة الأرضية بأُنشوطة وآكلها كوجبة خفيفة، تمامًا كما أكلتُ البرتقال مرةً». لم يقطع الضحكُ نَفَسَنا من قبل كما فعلَ الآن. نقعد على مِرْحَاضِنا ونتعرَّقُ في خِزْيٍ.

أُلصِقُ في الليل قِمَعًا مقلوبًا برأسي ليحميني من التجنيد العسكري الإلزامي الذي يعصف عبر النافذة. إنها فكرة ذكية جدًّا، لا يمكن أن يتصوَّرها إلا شخصٌ هو في الآن عينه مبتهج وأنيق. كل من أعرفه يوافق على هذا، بل إن بعضهم بدأ بفعل الأمر بنفسه، ولكنني أعرفهم ولذا لا أحمل كبير إيمانٍ بهم، فهم يبدؤون كمنزلٍ يحترق ثم ينتهون كنَخْرِ الأنف.

---

(1) حرفيًا: أُنْثَايَ السيدة، لكننا سنقول «فتاة». وردت بالفرنسية في الأصل: Madame ma femelle. [المترجم]

(2) هامش في الرسالة: «مقطوعة بيانو أَلَّفها إرِيك ساتي (Erik Satie)». [المؤلف]

(3) هراوة مشققة بطرف مدوَّر. [المترجم]

إننا يا مَدَام (فتاتي)، أنا خادمك المتواضع، كوَّنتُ مؤخرًا خططًا لغزوِ العالم بسرعة البرق، لكننا نتردد في ذِكْرها الآن لسببين: الأول أن البريد خطير بنحو معلوم للجميع في نقل المعلومات السرية، وثانيًا أنكِ تؤدِّينَ دورًا حيويًّا في هذه الخطط وعليكِ الاستماع إليها فقط بالطريقة اللائقة التي يعرفها الفاتحون: من الشفتين إلى الأذنين. لذا فإن هَمْبْتِي دمبتي (Humpty – Dumpty)، أكثر خَدَمك إخلاصًا، ينتظر جَزِعًا عودتك إلى زاويته من الكَوْن.

إن همبتي دمبتي يا مَدَام، يا فَتَاتنا،[1] يتمنى أن يعبِّر عن توافقه التام مع كُشُوفِكِ الخاصة المجعولة رموزًا مكتوبة في آخر رسائلك، وحتى يستجيب لطلبك سيُرفق الخلاصة التالية لأنشطته اليومية حتى تنظري فيها:

ما دام مهمًّا عَيْشُ كل يوم بأكْمَلَ ما يُقْدَر عليه، فإنني أصحو مبكِّرًا في الرابعة وخمس دقائق صباحًا. أركض بعدها خمسة أميال للحفاظ على جسدي راسخًا وصحيًّا. وبينما ألهث قليلًا، أعود إلى شقّتي في الرابعة وثماني عشرة دقيقة وآكل فطورًا حَسَن الاتزان من الزجاج المسحوق على خبزة محمَّصة، ودم حيوان النيص، والخاويار. وبشعوري ببهجة وبأناقة تفوقان كل المرات الماضية، أخطو وشعور النَّصر يملؤني إلى الحمام، وأُنزِل سروالي، وأقعد على السرحاض، وأتغوَّط، وينتهي هذا النشاط في الساعة الرابعة وواحد وثلاثين دقيقة بالضبط. أذهب بعدها إلى المطبخ وأتناول الصحون التي أكلتُ منها توًّا وأرمي بها على الأرض، فيمسحها سيِّد المزامير. أصل في الرابعة واثنتين وثلاثين دقيقة إلى مكتبي، وأقرأ ما كتبته في اليوم الماضي، وأُمَزِّقه، وآكله، ومن ثَمّ أقعد ساكنًا تمامًا لفترة ستّ ساعات وثماني عشرة دقيقة منتظرًا أن ينزل عليّ الإلهام. ولإرهاقي بسبب هذه الجهود، آخذ غفوة لأربع ساعات بالضبط على الأريكة. أصحو فجأة محاولًا أن لا أضحك، خوفًا من الاختناق بمقاطعي اللفظية وشَنْق نفسي من غير قصد. أعود في الثانية وخمسين دقيقة مساءً إلى مكتبي، وأكتب بهَيَجان كبير في دفتر يوميَّاتي عن ما يتعلق بحوادث اليوم حتى هذه اللحظة لعشر دقائق. تُقَدِّم لي راقصة الباليه العمياء في الثالثة وجبة حَسَنة الاتزان من الفول، والمعكرونة، والفلفل الحار،

(1) Nôtre femelle.

وفجل الخيل الريفي. أنهي وجبتي الساعة الثالثة وأربع دقائق ومن ثَمّ أغادر المنزل لأقود دراجتي الهوائية عبر المتنزَّه. أعود في الخامسة وثلاث دقائق وأقعد مجددًا على مكتبي وأعتني بمحادثاتي. آخذ غفوة المساء الساعة الخامسة وخمس دقائق. توقظني في التاسعة وثلاث عشرة دقيقة أوركسترا من صفارات الإنذار والصرخات التي تشير إلى أن العشاء جاهز، ومن ثم يُقَدِّم لي سيد المزامير وزوجته راقصة الباليه العمياء وجبة حسنة الاتزان من الراديوهات، ومحامص الخبز، والمصابيح (من فئة مئة واط). وأقرأ في أثناء هذه الوجبة الصحف اليومية من نيويورك، ولندن، وباريس، وروما، وبراغ، وموسكو، فآكل أكثر المقالات إثارة كتَحْلِيَة. ألعب من التاسعة وواحد وعشرين دقيقة إلى الحادية عشرة وثلاث وثلاثين دقيقة إما البنج - بونج وإما البلياردو مع رفيقي سيد المزامير. ومن ثم حتى منتصف الليل ألعب تمارين مَعِدة. أعود في الثانية عشرة ودقيقة إلى مكتبي وأقرأ كتابًا جيدًا، وأُغلق الكتاب في الثالثة وتسع وعشرين دقيقة بالضبط. أكتب بعدها باهتياج حتى الرابعة. ولمّا أُنهَك من العمل أنام على مكتبي، ومن ثم في الرابعة ودقيقتين ينتشلني سيد المزامير وراقصة الباليه ويحملانني إلى غرفتي ويضعانني على السرير، فأتقلَّب قليلًا ومن ثم بحلول الرابعة وأربع دقائق أكون نائمًا.

التوقيع: القزم.

التاسع من تَمُّوز: علينا أن لا نَعُدّ المسافة التي بيننا شيئًا أكثر من ألَمٍ عَابِر. إننا أطفال صِغَار نحمل أخيلة زاهية تستولي علينا. لقد صَحَونا من أحلام تعيسة وقعدنا على سريرَيْنا، مُحَاطَيْن بليلٍ لا ينتهي، ليلٍ دائمًا ما مَرَّ سريعًا جدًّا في نومنا، وانتَظَرْنا... لتنقشع الظلمة ويحلّ الصباح. لقد أتى تَمُّوز فعلًا، وفي أقل من أسبوع سيجيء عيد ميلاد آخر لكِ... وبعدها بيومين سأذهب إلى المحكمة لجلسة استماع، وبعدها بقليل قد أكون في لندن...

الوقت متأخر في ما بعد الظهر. أكتب إليك حتى آخذ استراحة من الترجمات التي أُنجزها بسرعة جنونية حتى أنتهي منها. ومع أن مشاعري صارت شارِدَة كشُرُود ذراعي مُلَاكِم بالغ الحماسة ولكنه غير متمرِّس، فإن عقلي يتقدم بثبات نحو... صُقعٍ مجهول. لا أتفحَّص حيث أنا الآن معطفي خوفًا من نسيان جسدي وأنا ماشٍ خارجًا. يبدو أن

سنينًا من التخبط تستحيل إلى قوة غريبة وخرقاء لا تعرف مخاوفَ وتجد كل يوم روابطَ بين عناصرَ... غريبة في تنافرها. إنها عفوية منهجية، ديالكتيك لا يستبعد أي شيء.

ولكن مع هذا لم يجرِ كل شيء بسلاسة. لقد أُصِيبَ زوج أمي نورمَن بنوبة قلبية سيئة جدًّا قبل نحو أسبوعين، وما زال يتماثل للشفاء في المستشفى. يبدو أن الأمور بخير الآن، ولكنها كانت خَطِرة لفترة ما. لقد أمضيتُ وقتًا طويلًا في نيوآرك...

الثاني عشر من تمُّوز: لعلّ لديك صورة مبالغ فيها عن مدى تغَيُّرِي. ـ دائمًا ما يكون التغير (أو النمو)... دقيقًا، وحالنا هذه ليست استثناءً. إن مظهري كما هو، لربما باستثناء زيادة في نُحُولي (لقد صرتُ مهزولًا كثيرًا، مع أنني أحلم بأن أكون قويًّا متينًا وبأن أبدو كمايَكوفْسكي).[1] ألبس الملابس نفسها، وما زلتُ أدخِّن السجائر... ما زلتُ أُبغض الحفلات وأشعر بالإحراج بين مجموعات الناس الكبيرة. كما ألمحتُ في الرسالة الأخيرة القصيرة، إن التغيُّر الذي جرى فِكريٌّ أكثر من كونه أي شيء آخر ـ ولكن هذا بالطبع يُبدي عن نفسه في سلوكي ومواقفي: إنّ آمِرِي المُطْلَق الوحيد هو أنه تنبغي مواجهة الأمور وجهًا لوجه، بأكملها، فإن أُغْفِلَ شيءٌ ـ أكان عن عمد أم دون عمد ـ فإن المرء يعيش كذبةً...

ظنَنْتُ مرةً أن على الفن... أن يُفصَل عن المجتمع... تمنَّيْتُ مرةً أن أعيش مُديرًا ظهري إلى العالم، لكنني أرى الآن أن هذا مستحيل، وعلى المجتمع أيضًا أن يُوَاجَه ـ ليس في صَفَاء التأمُّل، ولكن لِنِيَّة الإتيان بالأفعال، ولكن الفعل غالبًا ما يُرهب الناس عندما يُوَلَّد عن أخلاقيةٍ من الأخلاقيات... إذ لا يبدو أنه متناظر تناظر واحدٍ لواحد مع نيَّته. إن الناس حرفِيُّو التفكير كثيرًا... إنهم عاجزون عن التفكير بلغة الاستعارات. ولمّا كانت الأساليب السياسية اليسارية مفتقرة إلى هذا التناظر من نوع واحد لواحد (مثل اقتحام وتَمَلُّك مبنًى جامعي)، فإن الناس في التباسهم وخوفهم يظنُّون أن مكيدةً أو مؤامرةً مشؤومة قَيْد العمل...

على الثورة الاجتماعية أن ترافقها ثورة ميتافيزيقية. يجب أن تُحَرَّر عقول الناس

(1) لعله يقصد ﭬلادِمير مَايكوﭬسكي، وهذا كان شاعرًا روسيًّا سوﭬيتيًّا وممثلاً وكاتبًا مسرحيًّا، ويملك هيئة تدلّ حقًّا على المتانة والشِّدَّة. [المترجم]

بالترافق مع وجود المادي ـ فإن لم يكن هذا، ستكون زائفةً وعابِرَةً كل حرية تُنَال. يجب أن تُخلَق الأسلحة لتحقيق وإدَامة الحرية، وهذا ما يعني تحديقًا جَسُورًا إلى المجهول ـ إلى تحوُّل الحياة... **على الفن أن يَطْرُقَ بوحشيةٍ على أبواب الأبدية**...

تنطبق رسالتك اليوم عليّ أيضًا، بخاصة العبارة: «لا أريد أن أكتب إليك حقًّا، بل أريد أن أراك مجدَّدًا»، لذا قررتُ أيًّا كانت الحال أن أجيء إلى إنكلترا، ولن أخبرك التاريخ بالضبط ـ إذ أريد أن أجعلها مفاجأة. سأكون هناك ببساطة في وقت ما بين الثامن عشر من تَمُّوز والأول من آب، لذا لا تغادري في أثناء هذا الوقت.

لذا ستكون هذه رسالتي الأخيرة. لستِ محتاجة إلى الكتابة مجددًا أيضًا إنْ لم تريدي هذا، فقط ارتَدِي فستانًا جميلًا كل يوم حتى أجيء، ودخِّني سجائرَ بقدر ما تريدين، وكوني لطيفة مع كل مَنْ تقابلينه.

عيدَ ميلاد سعيدًا.

يبدو أنها أرادت معلومات أَدَقّ بخصوص خُطَط سفرك، فهذا ما سيفسِّر هذه الملاحظة القصيرة، وهي آخر رسالة مكتوبة قبل مغادرتك نيويورك وذهابك إلى لندن:

الثالث والعشرون من تَمُّوز: أخضع لطلبك بتواضع مَلِكٍ تخلَّى عن عرشه ـ اتباعًا لنصيحة ساحِرِه ـ لينضَمَّ إلى الثورة المَشْنُونة ضِدَّه.

الثلاثون من تَمُّوز: BOAC[1] ـ رحلة طيران 500# . الوصول إلى مطار لندن: الساعة السابعة وأربعون دقيقة صباحًا.

حاشية استدراكية: فُزتُ بالقضية في المحكمة، أعني في جلسة الاستماع: أُسقِطَت التُّهَم لعدم كفاية الدليل. إن الأمر أمرَ قرارٍ مبنيٍّ على قاعدة محدَّدة، ولكن في ظل نظام يكون **القانون** فيه أهم من **العدالة**، من السذاجة الشعور بالانخداع.

مرت ثلاثة عشر شهرًا قبل كتابتك لها مجددًا، فقد انتهى الانفصال الطويل، وحالما عادت إلى نيويورك لتواصل دراساتها في كلِّيَّة برنارد فُقِدَت الحاجة إلى

(1) اختصار لشركة الخطوط الجوية البريطانية خارج البلاد British Overseas Airways Corporation، أُسِّست عام 1939 وأُغلِقَت عام 1974. [المترجم]

الرسائل. أما في العالم الخارجي الكبير فقد كانت نهاية العالم بادية في الأفق؛ لقد صارت الحرب أكبر وأكثر وحشية، وقُسِمَت الدولة إلى نصفين، واستمرت المعارك السياسية بالنشوب في كولومبيا في أثناء سنتك الرابعة في الجامعة، مع نشوب إضراب شَمل كل الجامعة في الربيع. تَفرَّق اليسار الطلابي، وكان أقصى التيار المتطرف يُدَبِّر مكيدةً لمقاوَمة مسَلَّحة، وكانت ناسا تُحَضِّر لإطلاق رواد فضاء أمريكيين إلى القمر. لقد تخرَّجت في صباح يوم أزرقَ صافٍ قبل الانقلاب الصيفي بقليل، وخضعت في الشهر التالي للفحص الجسدي في مركز مجلس التجنيد العسكري الإلزامي في نيوآرك، وعندما قعدتَ للكتابة لليديا في الثالث والعشرين من آب (عادت إلى لندن من أجل زيارة عائلية) لم يكن لديك أدنى فكرة عن ما سيحدث لك، ولا فكرة عن إنْ كُنت ستُسْتَدعى للخدمة ومَتَى ستُسْتَدْعى، ولا فكرة عن إن كان عنوانك التالي سيكون سجنًا فدراليًّا أو شقة في مورننچسايد هايتس. ولافتقارك إلى خطط ثابتة للمستقبل، قَرَّرتَ قضاء سنة كطالب دراسات عليا في قسم الأدب المقارن في كولومبيا. لم تكن الدكتوراه ممكنة، ولكنك ستكون قادرًا على حيازة الماستر في تلك السنة، ولمّا لم يكن مطلوبًا دَفْعُ رسوم دراسية وكانت الجامعة قد عرضت عليك إعانة مالية صغيرة (ألفا دولار، نحو نصف ما احتجتَ إليه للعيش)، قَدَّرْتَ أن عليك البقاء أينما كنتَ في حين ظلّ مصيرك غير واضح وأنهت ليديا سنتها الأخيرة في كلّيّة برنارد. ولأسباب تتعلق تمام التعلق بلا مبالاتك (أو احتِقَارِك) تجاه حياة الطبقة المتوسطة، قرَّرتَ زيادة دَخْلِكَ بالعمل سائق تكسي.

كنتَ في الرسالة التالية التي كانت أطول رسالة كتبتها إليها قطّ، والوحيدة المكتوبة على آلة كاتبة، تحاول عن قصد إمْتاعَها، مُحَوِّلًا سلسلة من الحوادث الدنيوية المبتذلة إلى نوع من قصة مغامرة وَضِيعة، ويدلّ روح الكتابة المتدفِّق على أنك كنتَ في مِزَاجٍ سعيد على الرغم من الحَيْرة التي كنتَ تواجهها. مع هذا تَعُدُّ الرسالة وثيقة مثيرة للفضول، ما دام يُظْهِرُكَ كلُّ ما تَرْويه شَخْصًا لا يُمَثِّل الشخص الذي كنته في المعتاد، وفاعلًا أشياء لم تفعلها في المعتاد (كالذهاب إلى عَرْضٍ هزلي في شارع الثاني والأربعون (Forty _ second Street)، والنوم مع فتاة اصطَحَبتها من البار، والدردشة مع تُجَّار مخدَّرات موشومين)، ومع هذا تثيرك الآن غرابة هذا الشاب وعدم إمكان

التعرُّف إليه ـ فلربما كانت هذه المرة الوحيدة في حياتك التي أدَّيْتَ فيها جهدًا فعّالًا لإطلاق الحرية لنفسك وللتصرف بنوع معيَّنٍ من الجُرأة، لإغلاق عينيك والقفز ـ دون الاهتمام بالمكان الذي هبطْتَ فيه.(1)

* * *

بينما كنتَ تبحث عن شقة كُنتَ تمضي بعض الوقت مع أمك وزوجها. كُتِبَت الرسالة من منزلهما في مِنْدِم (Mendham)، انيو جرسي:

الثالث والعشرون من آب، 1969:(2) أكتب إليك بِقَلْبٍ مملوء بالعاطفة، ويدَيْن

---

(1) يُذهِلُكَ الآن أنك شارَكْتَ ليديا قصة نومك مع فتاة أخرى، وليديا فتاة عَدَدْتَها حبيبتك، وانذهالك هذا لأن النبرة الدَّمِثَة البادِيَة على طول الرسالة لا تُوحِي أنك أنتَ وليديا كنتما متخاصمين آنذاك. وكنتما في الوقت نفسه شابَّيْن، ولم تعيشا معًا من قبل، ولم تكونا تخططان للزواج، ولمّا كنتما حُرَّيْن لفعل ما تريدانه، لعلّك شعرتَ أن القصة ستُمْتِعَها كما لو كانت قصةً تُشَارِكها مع صديق لا مع حبيبة أو زوجة (مستقبلية).

تُحْرِجُكَ أيضًا جوانب أخرى من الرسالة، كاستخدامك للكلمتين «fairy» و«queer» [تعني الأولى ذَكَرًا شاذًا، وتُعَدّ الكلمة الإنكليزية نفسها اليوم جارِحَة، لذا يمكن مقابلتها بـ«لوطِيّ»، والثانية تعني مِثلِيًّا أيضًا، لكنها عَنَتْ في الأصل «غَرِيبًا» وما شابه، فانتقلت إلى معنى «مِثْلِيّ» في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات العشرين، وتُعَدّ اليوم لفظة جارِحَة ⁇ المترجم]، ولكن في 1969 لم تكن الكلمة «gay» [وهي الشائعة اليوم لتعني شاذًا ⁇ المترجم] معروفة بنحو واسع، ولم تكن أمريكا قد ابتدَعَت مصطلحًا محايدًا للمثلية الجنسية، فكلّ كلمات الشوارع امتلَكَت دلالة ازدرائية تبدو مكروهة اليوم.

2CV = دو شوڤو (Deux Chevaux)، وهي السيارة الفرنسية البدائية التي اشتريتها بثلاثمئة دولار وكنتَ تقودها صيفًا، كانت من الصغر والخِفّة بحيث لم تنفع ألبتة على الشوارع الأمريكية السريعة، فسرعتها القصوى نحو خمسة وأربعين ميلًا في الساعة.

أما بالنسبة إلى هنري ك.، الشخص الذي عاد إلى نيويورك من مخيم استحطاب (لقطع الأشجار) في متشچن ومن ثَمّ ظهر بنحو غامض في غرفة الرجال في محطة حافلات پورت أوثرتي (Port Authority) الموجودة في مانهاتن ⁇ ليس لديك أي ذِكْرَى عن مَنْ كان، مع أن المفروض أنه كان صديقك.

توجد أيضًا أخطاء في الاصطلاحات، مثال هذا المَمْشَى (Promenade) في ابروكلن هايتس الذي تُشير إليه باسم إسپلَنَاد (Esplanade)، ولكنك ستتركها كما هي، فهذا ما كتبته في ذلك الوقت، ويجب أن لا يُعْبَث بالكبسولة الزمنية ألبتة. [المؤلف]

(2) الرسالة طويلة جدًّا ومكوَّنة من فقرة واحدة فقط، لذا سنبقيها كما هي دون تقطيع إلى فقرات. [المترجم]

تَزِلَّان بحثًا عن المفاتيح[1] الملائمة، وبشيء من المَرَح، وشيء من الإنهاك. بدأتُ مؤخرًا بالكتابة على الآلة الكاتبة... أختبر فيها تَرَدُّدًا أقل، وزيادةً في السلاسة أو الانسياب، وتنفيسًا أسرع عن الكلمات، وعلى الرغم من الوسيط المِيكَانِيّ فإنه يتناسب أكثر مع فَوْرية أفكاري. إنني مستلقٍ على السرير، والآلة الكاتبة على قدميّ. يقترب الوقت من منتصف الليل. عُدتُ من نيويورك قبل نحو ساعتين، نيويورك... مِرْجَلٌ متقَيِّحٌ من التعاسة البشرية، حيث كنتُ أبحث عن شقة وأحاول تأسيس نفسي كسائق تكسي، فالأَهَمُّ قبل المهمّ. تقع مؤسسة المركبات الآلية في شارع المركز 80 (Centre Street 80)، ليس بعيدًا من المحكمة التي قضيتُ فيها مساءات عديدة، كمتفرِّج وكمُدَّعَى عليه معًا. (هل أخبرتك قطّ عن يوم الجمعة الذي قضيته مع مِتْش Mitch أشاهد المحاكمات، إلى جانب اليهوديين الحسيديين الكئيبين والمتشردين الناعسين الذين اعتادوا الذهاب إلى هذه القاعات المُكَيَّفة بالكامل كلّ يوم كما لو كانت مسرحًا سينمائيًّا، فيجثمون على مقاعدهم بكلّ إنصات ويشاهدون مجرى «العدالة»، إنهم القُضَاة الحقيقيون، القضاة اللا مبالون، القُضاة الذين يشهدون على مصَايِر أشخاص آخرين مجهولين لا عَدّ لهم، لا يُمَيِّزهم غير أرقام الدعاوى المرفوعة عليهم أو تفوُّق تقنيّ في طبيعة جرائمهم، إنهم القضاة الذين يشاهدون كما ينظر الذَّوَّاقة إلى لوحة أو السكران إلى تلفزيون؟ إن لم أخبرك من قبل، فسأخبرك). إن مؤسسة المركبات الآلية واحدة من هذه الثلاجات الرخامية المَهُولة المملوءة بالبيروقراطيين من كل جِنس وحجم ونظرة، الذين... يُقسَمون عمومًا إلى ثلاث فئات: مُسِنُّون متعَبُون نَكِدون، ومُسِنُّون متعبون مبتهجون، ونساء مُرِيبات مع... وجوه مخَضَّبة... تتكون إجراءات الراغب في أن يصير سائق تكسي من مراحل عديدة: الحصول على رخصة سائق (شوفير)، والحصول على رخصة سيارة أُجرة، والحصول على وظيفة مع الشركات التي تُعَدّ بالمئات في المدينة. كانت زيارتي لقِسْم المركبات الآلية (M.V.) لغرض وحيد هو تحقيق أول هذه المتطلَّبات. ولكن كانت تنتظرني مفاجأة. لقد ظننتُ أن عليّ الحضور لا أكثر، وأخذ موعد للاختبار الكتابي، والعودة بعد يوم أو يومين، وأخذ الامتحان، ومن ثم الحصول على

(1) يقصد مفاتيح الآلة الكاتبة. [المترجم]

الرخصة، وهذا كان مضمون ما حدث فعلًا، باستثناء تفصيل وحيد مهم: لن يُعقَد الامتحان حتى السادس من تشرين الأول. نعم، نعم، إنه الروتين الحكومي البيروقراطي العَقِيم مجددًا، وقوائم الانتظار الطويلة، والمَعْمَعة، والأرقام، والاستمارات. أمَّلْتُ أن أكون مُحَارِبَ شوارع بحلول الوقت الذي ستجيئين فيه... مملوءًا بمئة قصة ممتعة من زبائني للمساعدة في تلطيف عِبْء العودة إلى الكُلِّيَّة. وا أسفاه،[1] لن يحدث هذا الآن. إنني مُجبَر في غضون هذا على مواصلة العيش اعتمادًا على مواردي المالية المتناقصة. ومع هذا، حاولتُ النظر إلى الجانب المُشرِق من هذه النكسة الصغيرة، حاولتُ هذا وأنا ماشٍ بعيدًا عن سِنتر استريت مرورًا ببوَّابة مانهاتن، وهي قَوْس هائل بُنِيَ بلا مُسَوِّغ في نهاية تشامبرز استريت (Chambers Street). وإن عَجَزتُ عن التفكير في جانب مُشرِق، فإنني صَمَّمتُ على اختراع جانب كهذا، فكذا كان مزاجي ذاكَ اليوم. قلتُ لنفسي: حسنًا، في الأقل يمكنك البقاء رجلًا حرًّا لوقت أطول قليلًا، يمكنك في الأقل قضاء مزيدٍ من الوقت مع كِتَابَتِكَ، يمكنك في الأقل الاستقرار في كُلِّيَّتِكَ، يمكنك في الأقل إيجاد شقة... لذا شَرَعْتُ في البحث عن شقة. لم تستمرّ الأوديسة[2] أكثر من يومين أو ثلاثة أيام (لا يمكنني صِدْقًا التذكر، مع أنها رحلة حصلت فعلًا)، ولكنها قد تكون استمرت لسنتين أو ثلاث سنوات أيضًا. ولكن قبل بَدْء الكلام عن هذه الأوديسة، عليّ تقديم تعليقاتي ببعض المعلومات كأرضية لما سأقول حتى يُمكنك فهم نوعية الحوادث الدقيقة بنحو أفضل، وفهم الحال العقلية التي وجدتُ نفسي فيها فهمًا دقيقًا، وفهم أثَر هذه الحال العقلية في الحوادث التي جَرَت. قُدْتُ في اليوم الذي تَلَى اليوم الذي غادرتِ فيه لندن إلى نيويورك لرؤية «إس». كانت هذه واحدة أخرى من رحلاتك العجيبة بسيارة 2CV، إنها قصة غَرَامٍ من الدخان والشاحنات والعَرَق، ألحانٌ من الخرسانة، والقَنَاطر، وغاز البروبان، والفولاذ، مشهد المصانع الشَّهِيّ، وملاعب

(1) الكلمة الأصلية المستخدمة هي hélas، وهذه المقابل الفرنسي لـalas الإنكليزية بمعنى وا أسفاه، أو وا حسرتاه، أو للأسف، إلخ. [المترجم]

(2) أو الرحلة الطويلة، تشبيه برحلة أودسيوس في الأوديسة الإغريقية، أحببنا إبقاء الكلمة كما هي. [المترجم]

الجولف المُصَغَّرة، ودُور سينما للسيارات، ومعارض السيارات المستخدمة، وكل التوافه المُسَلِّية بنحو لا ينتهي في طبيعة شمال انيوجرسي. قابلتُ «إس» في شركة التنظيف عند الشارع الخامس عشر (Fifteenth Street)، وَجَدته عند مكتب معدِنِيّ في حُجَيْرَة مُقَسَّمة موضوعة في نوع من المستودعات، يقرأ *نيويورك پوست*، ونسخة من كتاب *الفكر البَرّي*[1] لِليڤي استروس في زاوية المكتب، وكان في مزاجٍ مبتهج بوجه الإجمال. لقد كان عازمًا على أن لا يترك نيويورك تدمِّره، مع أنه اعترَف بشعوره فعلًا بالكَلَل والتعب. قفزنا إلى السيارة وقُدنا إلى المدينة، إلى الشارع السادس (Sixth Avenue) في أثناء ساعة ازدحام السير، وكِدْنَا نموت عندما رَاوَغْتُ في طريقي إلى جانب سيارة 2CV أخرى يقودها رجل مُسِنّ قَابَلَ تَزْميري بالسيارة بابتسامات وَدُودة وتلويحات مضطربة بيده. عندما وصلنا إلى شقة «إس» قعدنا منتَظِرَيْن فتاةً قابلها في الطائرة، وقد أمضَت السنتين الأخيرتين في كومونة في ولاية أُرِچنْ، وكانت على وشك المغادرة إلى منزل آلپرت في انيوهمشير، وآلپرت هذا هو صديق تِمِثي ليري (Timothy Leary)... سألت «إس» أن يجد لي فتاةً أُصاحِبها كي لا نكون مُثَلَّثًا، ففعل هذا أو في الأقل حاول فعله، ولكنه لم ينجح. وصلت الفتاة وتَبَيَّن أنها ودودة أكثر بكثير من ما توقَّعت. خَرَجنا ثلاثتنا لتناول عشاء صيني، ومن ثم قُدْنَا فوق جسر ابروكلن ـ وكانت هذه أول مرة لي، وهذا ما أَمْتَعَني كثيرًا. مَشَيْنا عَبر ابروكلن هايتس قليلًا، ومن ثم إلى جانب إسپلناد ناظِرِين إلى السُّفُن، والقواطر البحرية، ومانهاتن على الجهة الأخرى من الماء. قَعَدنا في مقهًى خارجي رائع لنحو ساعة، وكنتُ أنا و«إس» منهمِكَيْن، أو هكذا بدا الأمر، بنحو غامض في مسابقة تُعْوِزها الحماسة لإثارة إعجاب الفتاة التي كان اسمها سوزيت، ويمكنني القول في العموم أننا كنا ثلاثتنا على علاقة طيبة جدًّا. قُدْنا إلى منزل [أُمِّ] «إس» في حَيٍّ ابرايتن بيتش (Brighton Beach)، ومن ثم مَشَيْنا في الممشى الخشبي نحو كوني آيلند (Coney Island)، ومررنا بجماعات عديدة من اليهود المُسِنِّين الذين كانوا محتشدين في الظُّلمة حول مُغَنِّي موسيقا «الريف القديم».[2] ولسبب ما فإن هذه

(1) ترجمنا عنوانه، The Savage Mind، كما تُرجِمَ إلى العربية. [المترجم]

(2) أو موسيقا الكَنْتري Country Music، وفي نصّ أوستر «Old Country». [المترجم]

المشاهد الصامتة، هؤلاء الناس المسنِّين الخَرِفين... المتحدثين باليديشية والبولندية، مَلَؤوني بِيَأْسٍ يَعْقِد اللسان حاولتُ تجاهله بالضحك. بدا الأمر كما لو كان المرء يمشي إلى حلمٍ من ماضيه، ماضٍ يُرَى لأول مرة وحُسَّ بهِ فقط من قبل، بالطريقة نفسها التي يُحِسّ بها أمريكيو القرن العشرين كيف كان الغرب الأمريكي القديم. قَدِمنا إلى كوني آيلند، وكانت هذه أول مرة لي أيضًا، وكانت الليلة بأكملها كما يلي: الخطو بين جُثَثٍ، أشياء ميتة لم أعرف عنها إلا من القِيلَ والقَال، لكنني واجهتها الآن لأول مرة بِلَحْمِهَا، وكان الوقت متأخرًا في ليلة من ليالي أيام الأسبوع (ما عدا الأحد) الماطرة مطرًا خفيفًا، فلم يكن كثيرٌ من الناس في الخارج، ولم يوجد أحدٌ من الحشود المهولة التي يتوقع المرء رؤيتها في كوني آيلند. كان كل شيء خرابًا يملؤه منحرفون ساهرون، وتحلُّلًا لِمَا لم يكن قد مرت عليه سنين طويلة، وراديوهات زاعقة في ممرات فارغة ومعدنية مسقوفة، مع رائحة بشعة مع أنها خفيفة من نَتَنِ الآلات الهاذرة. لم نملك الكثير من المال... ولم نشارك إلا قليلًا بالاحتفالات، وتجاهلنا المُتَع التي كان يمكننا الالتذاذ بها بربع دولار. لا شيء غير جولة عابرة على السيارات الكهربائية الاصطدامية... وكان يوجد سادِيٌّ بَدين يُدَلِّي رِجْلًا من السيارة صدَمَنا دون أي رحمة مرةً بعد مرة دون أدنى ابتسامة ولا حتى تكشيرة، كما لو كان ينفِّذُ واجبًا قديمًا، يحقق مهمة عُهِدَ بها له في أبكر أيام شبابه. لَعِبنا الكرة المتزحلقة (Skee ball) وفاز كلٌّ منا بِشَارَةِ شريفٍ من الألمنيوم، فثبَّتناها على صدورنا هازِئين، ومن ثم عدنا إلى بيت «إس» ماشين على المَمْشى الخشبي، وزَلَقْنا أيدينا على الدربزين المعدني المُبَلَّل بماء المطر، ونظرنا من خلال قِدَدِ السياج الخشبي لمعرض الأحياء المائية، مشاهِدين الجهود اليائسة لبطريق عجوز يحاول القفز من صخرة إلى أخرى، وتوقفنا لبرهة تحت ملجأ مسقوف بالقرميد لتدخين سيجارة. شربنا القهوة في بيت «إس»، وناقشنا تفوُّق هنري مِلِر الذي لا ينتهي على جاك كِرُوَاك (Kerouac)، ومن ثَمّ قُدنا بالفتاة عائدين بها إلى... حَيِّ اكْوِينز. كان الوقت الثالثة صباحًا تقريبًا، وعدنا لسبب غير معروف أنا و«إس» إلى كوني آيلند، وأظن أن الجوع هو ما أعادنا، فأكلنا السجق والمَحَار في مطعم نيثن،

وهو مكان متألِّق للساهِرين المتْعَبِين، فأشغلنا في محادثة رجل أسودُ متَشرِّدٌ وأدْرَد[1] بالكاد استطعت فهمَ صوته، وكان يوجه صعوبة في الوقوف على قدميه، فأعطيناه خمسة سنتات، وأخبرناه بالوقت، فوشوشنا مسائل خاصة مشوَّشة، وفي أثناء مغادرته اصطدم اصطدامة خفيفة دون قصد بشابٍّ أسودَ مُهَنْدَمٍ يقف بإزاء منضدة المطعم مع إخوانه وعائلاتهم، فاتهم الرجلُ العجوزُ ـ وهو نصف فاقد للوعي، ونصف غاضب، وهو غضب معتاد كما بَدَا ـ الشابَّ بأنه دفعه عَمْدًا. مَنْ يظنُّ نفسه هذا العجوز ليضايق غيره هكذا؟ لم يحتمل الشابّ الشتائم التي تلقَّاها، ثم إنه إلى هذا كان محترمًا... ولم يُرِد شيئًا من هذا الرجل العجوز، من هذا المتشرد الوضيع الذي كان ممكنًا أن يكون والده. بدأ بدفعه جِدِيًّا، نافخًا صدره كما لو كان طاووسًا مغرورًا، ومن ثم ذهبَ به إلى شرطي أبيض كان يقف خارجًا في الشارع، مثَرْثِرًا بقائمة من الاتهامات المزيَّفة لِكَاهِنِ الاعتراف الأبيض، متصرِّفًا كأنه يريد أن يقول: لم يَجْلِب لي هذه السمعة السيئة إلا حثالات كهؤلاء. بدا هذا المشهد القصير مهمًّا بالنسبة إلي، حتى لو كان هذا فقط للبرهنة على الصدع الفاصل بين أشخاص يجب أن يكونوا أقرب ما يكونون بعضهم من بعض... انتهت القصة هنا، فالشرطي لم يجد في القضية شيئًا مُحَمِّسًا كثيرًا. عُدتُ أنا و«إس» إلى شقة والدته، فتحدثنا عن الكتابة حتى السادسة صباحًا، فانتهينا تمامًا كما أظن عندما كنَّا على شَفَا خوض جدال حقيقي. لقد تحدَّثَ عن النظام، والدقة، والمهام المحدود، أما أنا فعن الفوضى، والحياة، والفساد، فلم أستطع الاتفاق معه في شأن اندثار الإنسان الفَرْد الوشيك. لقد كان رأيي أن مشكلة العالم كانت أولًا وقبل كل شيء مشكلة الذات، ولا يمكن تحقيق الحلّ إلا بالبدء من الجُوَّانِيّ ومن ثَمَّ... التحرك إلى البَرَّانيّ. كان الحلّ هو التعبير، لا البَرَاعة. ما يزال «إس» كما أعتقد عالِقًا كثيرًا في مرحلة الناقد، وما زال مستغرقًا كثيرًا في تجريدات غير مُوَازَنَة بالحقائق العمياء التي تُمَثِّلها آلام الجُوع.[2] أقول: تَمسَّك بالحياة، سأجعل هذا شِعَاري، أتوافقين؟ تمسَّك بالحياة مهما كانت مؤلمة وكريهة ووهمية. وقبل كل شيء الحرية، وقبل كل شيء عليك توسيخ يَدَيْك.

---

(1) بلا أسنان. [المترجم]

(2) حرفيًّا كما في نَصِّ أوستر: آلام المَعِدة. [المترجم]

لقد كنتُ أتشدق عليه بالكلام كالمجنون، مملوءًا في الآن عينه بالغضب والمرح، وغضبي هذا كان من عدم اتفاقه مع رأيي، أما مرحي فكان أنني طوَيْتُ إلى الأبد صفحة... الثرثرة الأكاديمية، والإغواء الذي تمثله الأفكار المُؤَنَّقة، والأدب المكتوب بحرف لامٍ كبير (L)،[1] ومنقوشٍ نقشًا بديعًا على أغلفة كتبٍ فاخرة من الجِلْد. إنني بخيرٍ تمامًا يا ليديا، دعيني أُطمئنك أنني بخير تامّ. إنني أكتشف ما الذي... يعنيه أن تكون فنانًا، أن تكون الرجل الذي يصير فنَّانًا بقَلْب كلّ ما في باطنه ظاهرًا. دعيني أُقَبِّلك قبل النوم. لقد كان «إس» تَعِبًا كثيرًا، فلم يستطع التماشي معي، فذهبنا إلى النوم. نِمْتُ في غرفة نوم أُمِّه، في سرير زواجها في الليلة الماضية. كان شعورًا غريبًا، واستيقظت لأجد ساعِد يدي اليسرى منتفخًا من وَرَمٍ مهول، ويبدو أنه من بَقَّةٍ ما أو من نحلة. اليوم يومٌ ممطرٌ آخر. أمضيتُ كاملَ فترة ما بعد الظهر أفتِّش عن شُقَق في ابروكلن هايتس. كان فندق القديس جورج كالسجن، فلم أتردد في اتخاذ قراري. فندقٌ آخر، وحديثٌ مع المدير الأسود عن غروب الشمس، والنوافذ، ونسائم الهواء، والحياة في الجنوب قبل خمس عشرة سنة، ولكن لم تكن في الفندق غُرَفٌ متوفرة. وكالات، واستمارات، ورُسُوم، وجُوع. سلسلة من الشقق المرتفعة السعر وصغيرة الحجم، أُوِّجَت بمشية بطيئة لعشرين دقيقة مع مُضَارِب يهودي أرثوذكسي عجوز لرؤية مكان آخر كان أيضًا غير مقبول. أخبرتُ نفسي أنّ عليّ نسيان ابروكلن الآن في الأقل. عدتُ إلى مانهاتن واتصلت بـ«إس» مجددًا، وكنتُ توّاقًا حتى الاستماتة إلى الفتيات، وإلى المصاحبة، وإلى دَعْمِ نَظْرَةٍ عَطُوفةٍ إليّ، ولكن هذه المغازي المفاجئة إلى مملكة الرغبة كانت دائمًا جوفاء وعقيمًا. أمضينا المساء كله نتصل على الأصدقاء، ونزورهم، ولم نُفَوِّت حتى المعَارِف الذين عرفناهم عَرَضِيًّا بأكثر ما يكون، ولكننا لم ننجح. اتصلنا بِجُولي فأجابت فتاة اسمها آيدا قالت إن جولي ذهبت إلى كاليفورنيا أو مكان مشابه، ولكن صوتها كان... مُرِيحًا، وقرَّرْتُ أن علينا الذهاب هناك أيًّا ما كانت الحال، فلمّا وصلنا فَتَح الباب بنحو متردد شاذَّان أسودان يُقَهقهان ثَمِلان تمامًا قالا إنهما لا يعرفان شيئًا عن آيدا. لعلها كانت هناك، متحدِّثةً عن أعماق سَرِيرَتها في غرفة خلفية بصوتها المعسول،

(1) يعني Literature بالإنكليزية. [المترجم]

ولعلها كانت تغنِّي أو تهمس لنفسها، ولكن إن كانت حقًّا كذلك فإنني لم أرَها قطّ ولم أسمعها مجددًا. أيقظنا «إل» من سريره، وكان شِبه نائم، وإلى جانبه على المخدة نسخة من *السنوات العِجَاف*،[1] فخلعناه من أغطية السرير مع تحيَّاتٍ صاخبة وأخذناه إلى السيارة، ووعدناه بأخذه زيارةً إلى حانة في الجزء الشرقي. كُنا بهيئة رَثَّة، وغير حليقين، ومُتَّسخين، وبالكاد كنا الرجال المثاليين لجَمِيلات الجزء الشرقي الأسطوري اللواتي اخترعناهن في يأسنا، ثم إلى جانب هذا بالكاد امتلكنا عشرة دولارات، ولمّا وصلنا كانت الحانات تكاد تخلو من أي أحد، فلم نتعب أنفسنا حتى بدخولها، ماذا نفعل؟ كانت سخافة الليلة صارخة كثيرًا بالنسبة إلينا. لقد قررنا الذهاب إلى عروض منوَّعات (تنتهي بعرض تَعَرٍّ)، لكنها كلها مغلقة، لذا نُنهي أخيرًا سوء الحظّ بسندويشات من مطعم راتنر. لعلكِ تفهمين الطبيعة المميزة لهذا السلوك الخَفِيّ: إنه لا أباليّ بالمطلق، ومستعدٌّ تمامًا لمواجهة أي تحدٍّ، ومعاناة أي عواقب، ثم إنه فوق القلق، وفوق الابتهاج، وفوق الضَّجَر. توازنٌ تام مُؤَسَّسٌ على انعدام الجذور، وعلى تقبُّل النفس، وعلى فضول لا يُخمَد أَوَارُه. إنني أجد وضع نفسي في مزاجٍ كهذا أسهل وأسهل، النظر إلى الأشياء كما لو كنتُ أفعل لأول مرة. كذا تكتشفين سِرَّ كلِّ ما يحيط بك. لقد كنتُ في مثل هذا المزاج، وما زلتُ فيه، مستعدًّا لتقدير حتى أدَقِّ الأشياء. عدتُ بعدما غادرتُ مؤسسة المركبات الآلية إلى شقة جدي حيثُ أودعتُ أغراضي، واتصلتُ بـ«إس»، وذهبتُ إلى المدينة لمقابلته على العشاء. قررنا أخيرًا زيارة العرض في مسرح المنوَّعات في الشارع الثاني والأربعين بين الجادَّتَيْن[2] التاسعة والعاشرة. استجدانا خارجًا متشردٌ لإعطائه سبعة سنتات ليشتري قنينة نبيذ قبل إغلاق متجر المشروبات الروحية، قبل أن تُطفَأَ هذه اليافطة المضاءة بالنّيون، كما قال، ووعد أنه سيشرب في صِحَّتنا. ونحن في طريقنا إلى المسرح بدأت حماسة «إس» بالفتور وتحدث عن الذهاب إلى مشاهدة فلم بدلًا

(1) مقابل The Lean Years، ولعله يقصد كتاب «السنوات العِجَاف: تاريخ العامل الأمريكي، 1920 - 1933» The Lean Years: A History of the American Worker, 1920 - 1933، وهذا كتاب نُشر في 1960 للمؤرخ إرڤنج برنشتين. [المترجم]

(2) مثنّى الجادَّة، بمعنى الشارع العريض المُشْجِر وحَسَن المنظر. [المترجم]

من ذلك، فلم تفعل مقاطعة المتشرد لنا إلا إطالة تردد وحيرة «إس». بدا أن سعر التذكرة البالغ أربعة دولارات هو ما قَطَع في القرار، ولو لم أُصِرَّ على أن علينا الدخول في أي حال حتى مع ثمن التذكرة هذا، فإنني مقتنع أننا كنا لنستدير ونعود أدراجنا. لستُ أقصد بهذا أن أستنكر على «إس» ما أراد، فسلوكه مفهوم تمامًا، ولم أكن مُصِرًّا إلا لأنني ظننتُ أن علينا أن لا نتراجع عن خططنا، فهذه عادة سيئة يُصَار إليها، لذا دخلنا ودفعنا دولاراتنا الأربعة للمرأة السوداء في كشك الصَّرَّاف، وكان يقعد إلى جانبها ولدها الصغير يقرأ كتاب قصص مصوَّرة (comic book). كان المسرح مظلمًا ومملوءًا بأناسٍ متناثرين... كان غالبهم من الكُهُول أو متوسِّطي السنّ، ولم يكونوا رديئي الهيئة كثيرًا، بل إن واحدًا منهم كان يلبس طاقية كرة قاعدة وعليها حرف B كبير. كان علينا الانتظار لخمس وأربعين دقيقة قبل بدء العرض التالي، وكانت الأفلام في أثناء هذا هي التي تُعرَض، وأظنها تُدعى أفلامًا رجالية،[1] وبالكاد كانت مشوِّقة، إذ لم تكن أكثر من أفلام نساء عاريات يتلوَّيْنَ على سرير، مع مشاهد مقرَّبة متكررة على فُرُوجِهِنّ، كان الأمر كله بالأحرى مملًّا وعديم الحياة، وبالكاد أظهر الحُضُورُ أي اهتمام. كان يجري في المسرح كثيرٌ من الأمور من أُناسٍ يحضرون وآخرين ويتحركون من مكان إلى آخر، بل إنني سمعتُ بعض الشخير من المقدَّمة. توقفت الأفلام أخيرًا في منتصف مِلَفّ عارِضِ الفلم (لا توجد بداية ولا منتصف ولا نهاية، ولذا لا يكاد يُهِمّ متى أوقف جهاز العرض السينمائي)، وأعلن صوت امرأة بلهجة فرنسية أن العرض سيبدأ بعد خمس دقائق. هذا ما قَدِمْنا من أجله، فصارت معنويَّاتنا أبهَجَ قليلًا. بدأت فِرْقَة حيَّة بالعزف من وراء الستارة، مع تركيز شديد على ضَرَبات الطبلة الرتيبة، ومن ثم يعلن الصوت الفرنسي مجددًا هذه المرة عن «المحبوبة كثيرًا والمثيرة جدًّا افليمنچ لِلِي»، ومن بين الأسماء الأخرى التي أتذكرها هؤلاء أكثر مَنْ أحببتهنّ: آمبر مِسْت، وكِيمونو توكيو، وسَنْدرَا دِل ريو. تؤدي كل واحدة منهنّ دورها على انفصال، فلكل واحدة مشهدها الخاص، وزيّها الخاص، وبعضهنّ يتحدث بنحو ماجِن مع الرجال في الصف الأول، وبعضهن

(1) مقابل stag films، وهي نوع مبكِّر من الأفلام الإباحية الصامتة التي كانت موجَّهة إلى الرجال فقط. [المترجم]

الآخر لا يفعل، وبعضهنّ يتزين بالأقراط، وبعضهنّ يلبس القفازات، وبعضهن يلبس الجوارب. ثم إن كل جسد... مختلف، فهذا مكتنز، وذاك نحيل، وهذا غَضّ، وذاك ناشف، وهذا جميل، وذاك ليس جميلًا. لا يُحَدِّد النجاح كما أعتقد المظهر الحَسَن أو براعة الرقص، بل القدرة على التواصل مع الجمهور. لا يوجد شيء أكْأَبُ من مشاهدة راقصة تَعَرٍّ فاترة العاطفة والروح، فهذا أدنى شكل من الانحطاط، أما الراقصات الجيدات فإن مشاهدتهنّ مُتْعة، ولا شيء يمكنه إيقاف ثَرَاء أنفسهنّ من البُرُوز. إن كَوْنَ واحدنا في حضور امرأة تُقَدِّر تمام التقدير قوَّة جِنْسِها يكاد يسبب لنا انتصابًا قضيبيًا، إذ يمكنها السُّمُوّ في أشدِّ لحظاتها رِفْعَةً على حدود فَنِّها المُهِينة فتُنْشِئ انسجامًا مُدهِشًا مع مُشَاهِديها، بل تكاد تُنشِئ تفاهمًا وانغماسًا واسترسالًا أُمومِيًا مع الرجال القاعدين قبالتها. إنني مقتَنِعٌ أن على راقصة التعرِّي الجيدة التَحَلِّي بحكمة وصبرٍ لا ينتهيين... أودّ الحديث مع واحدة منهن، وهي إلى الآن أكبر الراقصات سِنًّا، وهي التي كانت المُقَدِّمة أيضًا، فقد أعجبتني طريقة مغادرتها المسرح بعد العرض، ولم أشاهد انصرافها إلا بالصدفة: كانت ذراعها بذراع حبيبها القويّ الممتلئ البُرْتُوريكَوِيّ، ويدها الأخرى تمسك بيد ابنتها الصغيرة شقراء الشعر. إن النساء اللواتي يَعِشْنَ في شقق مكيَّفة ومُتْرَفة ويَتَبَخْتَرْنَ داخلاتٍ وخارجاتٍ من متاجر الجزء الشرقي الغالية، مُتَجَمِّلاتٍ تجمُّلًا كثيرًا يحملنه كما لو كانَ علامةَ الثروة والوَجَاهة، والسيدات اللواتي يَرْشَحْنَ بأعمال خيرية، واللواتي يتحدثن بأصواتٍ متعلمة، ويَشْغَلْنَ مناصِبَ مسؤولة، ويَقُدْنَ سيارات، ويناقشن الفنون، ويأمرن الخَدَم - كل هؤلاء النساء الأمريكيات الغنيات لا يُدانِينَ ألبتة هذه المرأة كثيرة التزيُّن والمنصرفة ببطء وهي في سنِّها الأربعين. مع أن عرض التَّعَرِّي نَفَّرَني قليلًا، فإنني نمتُ نومًا هنيئًا لرؤيتي هذه المرأة. اجتمعتُ في اليوم التالي مع «إف»، وخرجنا للبحث عن شُقَق: ذهبنا أولًا إلى مكتب تسجيل كولومبيا، فلم نجد شيئًا، ومن ثَمّ استعلمنا عن سَكَن طلاب الدراسات العليا، فوجدنا قائمة انتظار من خمسمئة شخص، ومن ثم تَصَفَّحنا الجرائد، وبدأ اليأس بالتزايد، فحتى الشقق الفندقية كانت مملوءة. حصلتُ على نموذج طَلَب للإنترناشونل هاوس،[1] فبدأت

(1) سَكَن خاص وغير ربحي لطلاب الدراسات العليا والباحثين وغيرهم في مورننج هايتس في

بتعبئته ومن ثمّ مزّقته قَرَفًا عندما رأيتُ أنهم يريدون توصيات من الأساتذة، وسِجِلًا بإنجازاتي، وبَيَانًا بوضعي المالي. مرّ اليوم، ولم يمكنني حتى تفحُّص أي شقّة. ولكن رفقة «إف» كانت ممتعة وظلّت ثقتي سليمة. ينضمّ إلينا «إس» لتناول عَشَاء في مطعم صيني. كان الحديث جيدًا، والأكل جيدًا، ومرة آخر آكل بأسلوب صينيّ. ثم بدأنا بالمشي إلى بولڤار وشارع ابرودواي، فقال «إس» إنه يظنّ أنه يريد أن يتمشَّى، فبَغَتنا هذا القول أنا و«إف» كقولٍ سخيف، فظاهرٌ أننا كنا نمشي بالفعل. سلسلة من القهقهات، وضحك خافتٌ على المارَّة، على دانس الأنيقين (Dapper Dans) وسوزِيَّاتهم الأخَّاذات (Sweet Susies)، وعلى هَرِيس السعداء (Happy Harrys) واجْلِنْدس المُقَهْقِهَات (Giggling Glindas)،[1] والسيدات العجائز وكلابهنّ. ندخل الطرف الغربي دون أن يكون لدينا شيء معين نفعله. قعدتُ أنا و«إف» في الحانة مع اهيو «إس» (Hugh S.)، أما «إس» فذهب إلى طاولة كانت تقعد إليها صديقته. لوَّحتُ لاكْلاوْديا «تي» على الجهة الأخرى من الشارع، وتكلَّمتُ مع اهْيُو عن كاليفورنيا، والشقق، والآلات الكاتبة، فقرَّر «إف» المغادرة بعدما أُنْهِكَ مني. ثم جاء «إس» بعد بُرهة وسألني إنْ أَرَدْتُ اصطحاب الفتاتين إلى السينما (إذ كانت صديقته قاعدة مع صديقة أخرى). لم أكن مستعجلًا لاتخاذ أي قرار... لأنني كنتُ أشربُ جَعَّتي وأشعر بالأحرى أنني تَعِبٌ. وافقتُ على أن أنتقل إلى الطاولة بعد أن أنتهي من مشروبي، فأنهيته بهدوء مهتمًّا كثيرًا بأن تجري المحادثة بسرعة، ولعل الكلمة التي أبحث عنها هي اللا مبالاة. تَبَيَّن أن صديقة «إس» فتاة ممتلئة بوجه بَهِيّ تُعرَف بالاسم الغريب «سَام». كانت الفتاة الأخرى، جاي (J.)، من ديترويت ـ مع تشديد على المقطع الأول ـ وكانت لديها لهجة ريفية أحببتها... لم تُرِد الفتاتان الذهاب إلى السينما، ولم تكن لديّ مشكلة في هذا ألبتة، وبدلًا من السينما أردْنَ تحضير كِيكَةً (قالب حلوى)، ودُعِيتُ أنا و«إس» بموَدَّة... اشترينا المكوِّنات في متجر كان يبعد بعدة مربَّعات سكنية في نفس الشارع، وكان اسم الفتاة الصرَّافة كما

نيويورك. [المترجم]

(1) هذه أسماء Dan وSusy وHarry وGlinda بِصِيَغ الجموع، وصعب نقلها إلى العربية بصيغة جمع، لذا كتبناها كما هي نُطقًا ما عدا اسم سوزي. [المترجم]

قرأتُه مكتوبًا على بطاقة الاسم: .PeeWee T. أُخْبِرنا أن شقة الفتاتين مسكونتان منذ الشهر الماضي بثُلاثِيّ غريب من تجار مخدِّرات، وكانت شقتهما فوق المطعم الياباني في الشارع رقم 105، إلى جانب صالون مدام روزليا. لم تكن الفتاتان تسكنان في الشقة على طول غالب الصيف، لذا أعادتا تأجير الشقة لهؤلاء الثلاثيّ، ولكن كان واضحًا أن خطأً ما قد وقع، لذا اسمحي لي بوصف ثلاثتهم: كان يوجد أول بِلْ، وهو أكثرهم ثرثرة وأشدّهم إصابة بالذُّهان، ويبدو أنه القائد، وكان في العشرين تقريبًا في ظَنِّي، وسَرَّح شعره بأسلوب أحياء الدراجات النارية في القرن التاسع عشر ـ وهي تسريحة ذَنَب البَطَّة (DA) ـ وكان يلبس حَلَقًا كبيرًا ذهبيًّا على أذنه اليسرى، وعليه عدة وُشُوم، يقول أحدها: وُلِدْتُ لِأُقيمَ جحيمًا (Born to Raise Hell)، وخَدَم في الجيش وتَلَقَّى رصاصة في رجله في كوريا، وكانت له عينان كالمُوسَى، ومَوَدَّة قد تتحول في أي لحظة إلى عنف، ولكننا انسجمنا بنحو مدهش، وأخبرني قصة فِقدانه ميداليّاته بمغادرته دون إجازة رسمية، وقصة انضمام أخيه إلى عصابة سائقي دراجات نارية، وقصص الشرب والمخدرات، وكيف أنه لم يحِبَّ شيئًا أكثر من أن «يَثْمَل تمامًا»[1] مع شخص آخر. لقد أخبرني قصصًا كثيرة، أكثر من أن تُرْوَى. وكان يوجد أيضًا كِنْ (Ken)، وهو ولد المجموعة الوسيم، الذي يلفُّ شعره كل ليلة في بَكَرَاتٍ لِيُبْطِلَ أثَرَ محاولة سابقة لجعله أمْلَسَ، وما فهمته أنه تعرَّف إلى ميرف راكب الأمواج (Murph the Surf) الشهير وكان مطلوبًا في ولايات مختلفة لجرائم صغيرة منوَّعة. ويوجد أخيرًا چاري، وهذا كان رفيقًا هادئًا وخَلِيعًا، وكان إما أغبى الثلاثة وإما أذكاهم، وأنا عاجزٌ تمامًا عن تحديد أيّهما كان حقًّا. قعدنا جميعًا منتظرين خَبْزَ الكيك. وصل هنري «ك» (.Henry K) مع صديق، وكان سافر هنا توًّا بسيَّارة عابر طريق من مخيَّم استحطاب في متشچن حيث قضى الصيف يحضِّر لدخول كلية جامعة متشچن لعلم الحراج. مَرَّ الوقت بتعبئة استبيان من مجلة ايلاي بوي عن الجنس، وأكل الكيك، والدردشة معًا. لا بدّ أننا كنّا عشرة أشخاص، ومن ثم غادر هنري أخيرًا، ومن ثم صديقه، وأراد «إس» المغادرة وكنتُ على وشك المغادرة معه ولكن الفتاة من ديترويت قالت إنها تودّ بقائي، هكذا على نحو غير

(1) موضوعة بين علامتي اقتباس لأنها بالعامية «to get «destroyed. [المترجم]

متوقع، لذا ها نحن ذا الاثنان قاعدان على الأريكة، نشرب وِسْكي بِرْبِن (bourbon) الأمريكي، ونسمع حديث بِلْ المطوّل عن مشروبات الشَّرق، ولقد تحدث بلا نهاية حتى ظننته لن يخرس أبدًا، وزاد فِقدان صبري بزيادة ثَمَلِي، عارِفًا بحَدْسٍ خافِت أن الفتاة كانت تفكِّر في نفس ما كنتُ أفكِّر فيه. ثم عَرَض في النهاية أن يذهب لشراء بعض الجعَّة، فاستغللنا هذه الفرصة وبدأنا بتقبيل بعضنا بعضًا على الأريكة... كنتُ متفاجئًا لاكتشافي أنها لم تلبس ملابس داخلية. عاد بِلْ، فشربتُ معه كأس جعة كي أكون مهذَّبًا، ومن ثم الفتاة التي كانت صغيرة وشَرِسة... أخذتني إلى غرفة نومها فاستلقينا على مرتبة السرير وتجَامَعْنَا حتى الفجر، مملوءَيْن بالشهوة ودون أي موانع. لقد نفعني هذا، إذ استيقظتُ منتعشًا وسعيدًا بعد أربع ساعات نومٍ فقط. انطلقنا للبحث عن شقق، فكان إخفاقًا آخرَ تامًّا. ومن ثم ذهبنا في وقت متأخر بعد الظهر إلى السينما، وعدنا إلى شقَّتها في حدود التاسعة لتحضير عشاء، وكان بِلْ وكِنْ وچاري موجودين، يحتفلون بما ادَّعَوْا أنه بيع مجموعة كبيرة من مُخَدِّر الهلوسة LSD. وثمّ تساءلوا إنّ كنّا نمانع الأكل في مطعم، إذ كانوا يتوقعون زيارة «شريك آخر في العمل»، فأعطونا أنا والفتاة عشرة دولارات وغادرنا دون أي اعتراض - إلى المطعم الهندي في شارع 93 لتناول وجبة مرتفعة الثمن، فقاطعنا في أثناء تناولها مرّتَيْن بيّاع جرائد كان يقول ثلاث كلمات فقط بصوت ملاكم مترنِّح: واقِع، وقَبِّل، وضاجِع. واقِع، وقَبِّل، وضاجِع. واقِع، وقبِّل، وضاجع. ثم زرنا «إل» بعد العشاء وبقينا حتى نحو الواحدة والنصف، وفي الطريق إلى شقة .J وقفنا عند منزل شخص ظنَنَّتُه يعرف مكانًا للإيجار، وهي امرأة في الثامنة والثلاثين من جمهورية الدومنيكان، اسمها إزابيل، عملت كراقصة إسبانية، ولم تتوقف عن الضحك، وكانت سمينة، وقوية، ومُبْهِجة تمامًا في الحديث معها. وللأسف أعادت تأجير بيتها إلى زوجين تزوَّجا مؤخَّرًا في سنِّهما الثامنة والسبعين. وكانت تنوي المغادرة بعد بضعة أيام إلى آيدهو (Idaho) لتعيش مع حبيبها البالغ تسع عشرة سنة، وهو ولد يعيش ويعمل في مزرعة ذَهَبَ إلى كولومبيا لسنة. عدنا إلى شارع 105 لنجد الشقة فارغة إلا من فتاة شابة ليست كثيرة الذكاء اسمها آنّا، كانت تعيش في الشقة أيضًا، كانت قاعدة على سُلَّم النجاة، وواضح أنها منزعجة، فقالت: إن الثلاثة بِلْ وكِنْ وچاري، لمّا ظنّوا أن

الرجل الذي جاء إلى الشقة شرطيٌّ، ضربوه ـ ولكن بشكل لائق ـ ومن ثَمّ هربوا مسرعين عبر سلَّم النجاة. رنّ الهاتف بعد بُرهة فأجَبْتُ، فكان المتَّصِل جُو ـ وهو الرجل الذي ضُرِب ـ مُقسِمًا بالانتقام من بِلْ وكِنْ وچاري، لقد كان في المستشفى فأُجْرِيَت له عشر قُطَب، وها هو يريد العودة غدًا مع إخوته ليُعَادِلَ الأمور، وأخبرني أن أُحَذِّرَهم. غَيَّرت الفتاة آنًا قصتها الآن، إذ قالت إنهم عَرَفوا أن جو ليس شرطيًّا، ودَعَوْه إلى الشقة ـ بحجَّة بيعه مخدِّراتٍ ـ لا لشيء إلا ليضربوه ويسرقوه، فيا لها من خدعة رخيصة! ولحسن حظه لم يجلب كثيرًا من المال معه. ارتعبت .J كثيرًا فحاولتُ تهدِئتها، وأخبرتها أنهم لربما لن يعودوا، وأنهم حتى لو فعلوا فلن ندعهم يدخلون، ثم إنهم لن يودُّوا الدخول عندما يعرفون بأن الآخرين يبحثون عنهم. راقبَ جوزِف وإخوته في اليوم التالي المبنى من الخارج باستمرار، ولكن الفرسان الثلاثة تخلَّفوا عن المجيء. ثم مرَّ يومٌ آخر من التفتيش حول الشقة، وهذه المرة في سيارة يقودها سَام، يقودون جيئة وذهابًا من طرف مانهاتن إلى طرفها الآخر، من أدنى الطرف الشرقي إلا واشنطن هايتس. نتناول وجبة أخرى في مطعم راتنر. لمَّا عرفَتْ افتقاري إلى المال، وانتهاء ما لديّ من السجائر، قامت .J عن الطاولة وعادت مع حُزمة من سجائر لَكِي اسْترايك (Luckies)، فكان هذا لُطْفًا صغيرًا غير مطلوب أَثَّرَ فِيَّ كثيرًا. شاحنات، وهِبِيز، وكنْزَات، وشوارع سريعة، وحركة سير، وأروقة مُغْبَرَّة. تحدَّثتُ في واشنطن هايتس مع امرأة عن شقَّة ابنتها في جَادَّةِ اكليرمونت. كانت ابنتها، المُطَلَّقة الآن، تعيش في سانت توماس وتحاول أن تصنع حياةً جديدة بتدشين مدرسة رقص. سيكون عليّ الانتظار عدة أيام لتلقِّي جوابٍ. تَمَشَّيْتُ أنا و.J في أرجاء واشنطن هايتس، وهي منطقة منكوبة ومهجورة... ومن ثمّ استقلَلْنا الْمِتْرو لنصل إلى محطة حافلات پورت أوثرتي بعد مئة وأربعين مربعًا سكنيًّا. كان علينا الانتظار ساعةً قبل انطلاق الحافلة. كنتُ مسهولًا، وفي أثناء واحدة من رحلاتي الكثيرة إلى المرحاض ـ وهذا أمرٌ مروِّعٌ في مثل هذا المكان، فكلّ الشواذّ ينظرون عبر الفتحات في حُجَيْرات دورات المياه ليشاهدوك وأنت تتغوَّط ـ وفي هذا المرحاض العامّ الغريب، كبير بحجم سُوق، قابلتُ مجددًا هنري، إذ كان عائدًا لتوِّه من نزهة إلى انيُوجرسي. أوْحَتْ رؤيته بشَبَهٍ غريب مع إقامتي القصيرة في نيويورك. لم أتوقَّع

مقابلته ألبتة، وهَأنا أراه مرتين في غضون ثلاثة أيام. انضممنا إلى J. في غرفة الانتظار، وذهبنا إلى الصيدلية حيث ابتعتُ دواء ابرومو (Bromo) عند المنضدة. أمُفْتَرَضٌ أخذه للصداع أم للمغص؟ أيًّا كان الأمر، كان الدواء أقذَرَ شيء ذقته أبدًا، كأنه بركانٌ طبشوري من التقيُّؤ. أطْرَفَ المشهد كثيرًا رجلًا أسود عجوزًا كان قاعدًا إلى جانبنا حتى إنه عجزَ عن احتواء ضحكته. صعِدنا إلى الرصيف وقُلنا وداعًا. أظنّ أنهما كانا ذاهبين إلى السينما. صعدتُ إلى الحافلة وعانَيْتُ الطريق كله مع ثُلة فتيات ثانوية مُقَهْقِهَاتٍ لم يتحدَّثْنَ عن شيء سوى علاماتهن في المدرسة. قرأتُ في أثناء الرحلة مقالة كتبها هنري مِلِر: **رسالة إلى السُّرياليين في كل مكان.**

لقد حَلَّ الصباح. لقد استغرقتني كتابة هذه الرسالة المكوَّنة من فقرة واحدة لَكِ ساعاتٍ عديدة. إنني تَعِبٌ تعبًا لا يصدَّق، ولكنني انتهيت. بدأت العصافير بالجموح: تغريدةُ صباحٍ مبكِّر، طَرُوبٌ ووَفِيرة. متأكِّدٌ أنه سيكون يومًا جميلًا. سأنام خلاله كطفل. أردتُ كتابة رسالة طويلة لك حتى أحوز انتباهك بأطول ما يمكن، ولقد كتبتُ بِحُبٍّ وتَعَب. إنني مشتاقٌ إليك جِدَّ الاشتياق. أستكتبين إليّ قريبًا؟

مع حُبِّي،
پول

يكرّس أوستر كتابه للإضاءة على حنايا ذهنه كما تستعيدها الطفولة. ويمكن عدّ الكتاب تاريخاً لتطور المؤلّف النفسي، حيث "حكاية الشتاء" تاريخ لتطور جسد الكاتب.

الطفولة هنا هي البطل المطلق. وبالقدر الذي توحي فيه الأحداث بأنَّ الكاتب قد عاش طفولة ثريَّة بالوقائع والاختلاط، فإنَّك تخرج بانطباع حاسم بأن الحقيقة الوحيدة هي عزلة الكائن البشري في عالم يجاهد ليبدو متماسكاً. بالأخص في فصله الأول حين يستعرض أوستر بأريحيَّة هواجس الطفل الذي يرى النجوم ألغازاً، والمقص كائناً يمشي، والتلفاز ابن عم لأبريق الشاي! أو حين يرى نفسه ذاتها محض "حبَّة بَقول بشريَّة".

لا يمكن لطفل يكتب قصيدته الأولى بعمر التاسعة إلّا أن يكون منعزلاً بما يكفي وإن بدا صخب التجارب الاجتماعية المدرسيّة يدحض ذلك ظاهرياً. ظلال من حرب كوريا، وأخرى عن شعوره بالإذلال من نوبات تبول لا إرادي، وثالثة عن تبلور شخصيته قبيل البلوغ عبر هوسه بالسينما مستعرضاً فيلمي: "The Incredible Shrinking Man" و"I Am a Fugitive From a Chain Gang".

الداخل الذي هو القرين لعزلتنا، الحقيقة الوحيدة المؤكدة للكائن في حياته الأرضية. الداخل الذي نهرب إليه من كل ما يخترق صفاء لحظتنا النادرة، المبددة بلا شفقة على مذبح التواصل الشبكي التكنولوجي اللا نهائي.

في الفصل الأخير من الكتاب يورد أوستر رسالة إلى حبيبته/زوجته لاحقاً، ليديا ديفيس: "بالنسبة لي، مشكلة العالم هي أولاً وقبل كل شيء مشكلة ذاتية، ولا يمكن تحقيق الحل إلا من خلال البدء من الداخل".

إخراج وتصميم:



ISBN 978-9-9226913-5-0

